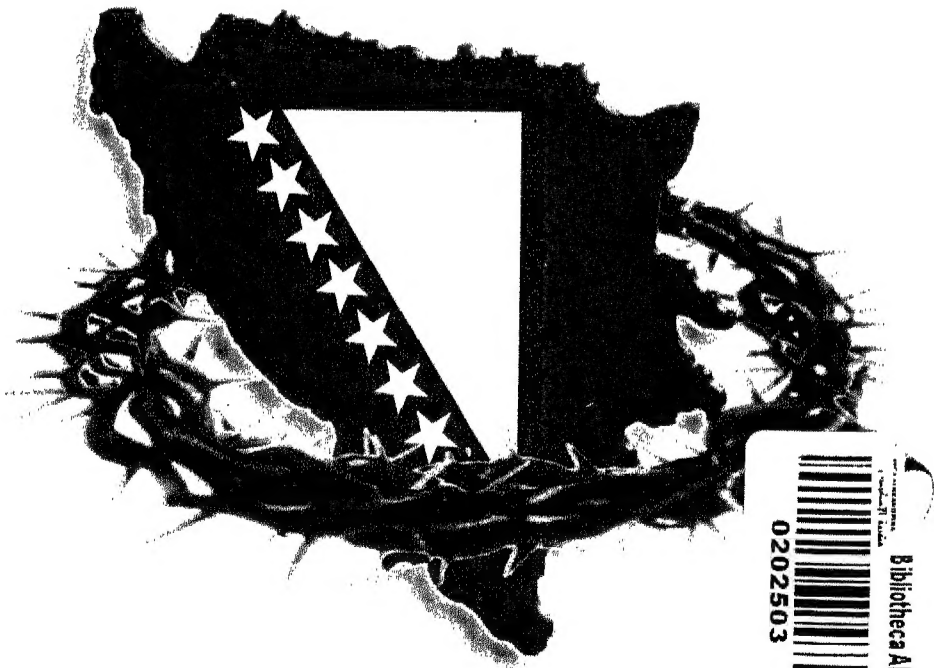


زكريا عبيد

البوسنة والهرسك وأشواقك السلام

نظرة إلى آفاق المستقبل



0202503



مكتبة مدينتي

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة مدينتي

البوسنة والهرسك .. وأشواق السلام

زكريا عبيد

البوسنة والهرسك .. وأشواق السلام

نظرة إلى آفاق المستقبل

مكتبة مديبولي

اسم الكتاب : البوسنة والهرسك .. وأشواق السلام

اسم المؤلف : زكريا عبيد

الـمـوـزـع : مكتبة مديوني

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

ت. ٥٧٥٦٤٢١ فاكس ، ٥٧٥٢٨٥٤

الطبعة : الطبعة الأولى ، ٢٠٠١

رقم الإيداع : ٢٧٨١ / ٢٠٠١

الترقيم الدولي : ISBN : 977-208-318-3

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى السيد حارث سلايدجتش

رئيس وزراء البوسنة والهرسك

أمل البوسنة فى تحقيق مستقبل

يملؤه العدل والسلام . . والتقدم

" إن السلام لا يتحقق عندما يتوقف إطلاق الرصاص والمدافع .. إن السلام يتحقق عندما يسود العدل والمساواة بين البشر .. وعندما تعود الحقوق إلى أصحابها ، وإلا فإننا بدلا من أن نزرع ورود السلام فإننا نزرع أشواكها فقط " .

زكريا عبيد

مقدمة

فى بدايات عام ١٩٩٢ كنت أتابع كما يتابع الكثيرون فى كل بقاع الأرض الأنباء القادمة من البوسنة .. كنا نتابع صراع ما قبل الحرب .. ولسبب ما أصبح واضحا لى الآن أن معظم الناس ، فيما عدا المتخصصين ، لم يكن على إدراك كامل بما يجرى فى يوغسلافيا بشكل عام ، وفى تلك الجمهورية المحصورة بين الجمهوريات الأخرى فى الاتحاد الذى بدأ ينشطر إلى شظايا قبل عدة أشهر وأقصد بها البوسنة والهرسك بوجه خاص .. وقد اتضح لى فيما بعد أن وسائل الإعلام وعلى مدى سنوات طويلة لم تكن تلقى ضوءا ما على ما كان يحدث فى تلك الجمهورية رغم أنها كانت من أكبر جمهوريات الاتحاد اليوغسلافى مساحة .. بل أزعج أن عددا كبيرا من الناس سواء فى مصر أو فى باقى أنحاء العالم العربى أو الإسلامى بل وعلى المستوى الدولى أيضا لم يكن قد سمع عن مدن مثل سراييفو وموستار وتوزلا وبانيا لوكا وبيهاثش قبل أن تشتعل الحرب هنا ..

وقد اتضحت لى أسباب هذا التعتيم الإعلامى بعد ذلك بعدة سنوات عندما قمت بزيارتى الأولى لبلجراد فى صيف عام ١٩٩٨ عندما بدأ البرلمان الذى لم يخمد لحظة طوال سنوات طويلة فى كوسوفو فى الانفجار ليهدد العالم كله بالحرب . تجاه ما يحدث .. إلا أن ردود الأفعال تلك كانت مجرد رد فعل

متعاطف في أغلبه من مسلمين تجاه إخوانهم ، وحتى تلك اللحظة أزعج أننا لم نكن نفهم على وجه الدقة ما يحدث في البوسنة .

لقد أسرع الجميع آنذاك - وكنت من بينهم - للبحث عن وسيلة للتعبير عن التضامن مع أولئك الذين يبدو جليا أن هناك من يرغب في محوهم من الوجود ، وعلى الرغم من ذلك فقد اتضح أن الأمور أعمق بكثير من فهمنا السطحي للأحداث ، وأبعد كثيرا من المعلومات التي تصلنا ، بل وأكثر كثيرا من رغبة البعض في أن تقوم للمسلمين دولة لا تبعد حدودها الشمالية الغربية عن قلب أوروبا سوى عدة دقائق تقطعها أية طائرة من طراز قديم .. وبنفس القدر أكثر من رغبة البعض في ألا تقوم لهذه الدولة قائمة . وفي الواقع لقد اكتشفت أن البوسنة كانت مسرحا لصراع دولي آخر ، والأغرب من ذلك أنه كان صراعا بين قوى غربية وعلى وجه الدقة بين الولايات المتحدة وباقي دول أوروبا .

في مايو ١٩٩٢ كانت الحرب قد اشتعلت في البوسنة والهرسك وتزايدت الأنباء عن عمليات التطهير العرقي ضد المسلمين على يد الصرب ، وحتى أكون منصفًا فقد جرت عمليات مماثلة من قبل الصرب ضد الكروات في سلافونيا الشرقية وكنين وغيرها ، وضد كروات البوسنة في المناطق المتاخمة للمناطق التي استولى عليها الصرب في جنوب كرواتيا ، وذلك قبل أن يقوموا هم أنفسهم - الكروات - بإذاعة البوشناق - مسلمو البوسنة - ما ذاقوه هم في البداية على يد الصرب وقبل أن يعودوا للتحالف معهم وتكوين الاتحاد المسلم الكرواتي - الفيدرالية - من خلال اتفاق واشنطن عام ١٩٩٤ ، وهو الوقت الذي أدرك فيه العالم الغربي أنه لا سبيل إلا بوجود دولة تضم المسلمين والكروات وهو الوقت الذي أدرك فيه الكروات أنه لن تقوم لهم قائمة في البوسنة بدون المسلمين بعد أن خذلها الصرب معا .

فى الرابع عشر من مايو طلب منى الصديق الزميل حلمى عبد العزيز -
وكان مشرفا فى ذلك الوقت على إحدى الجرائد التى يصدرها الحزب الوطنى
الديمقراطى فى مصر - أن أكتب عن البوسنة ، وكنت أتابع وقتها ما يجرى
هناك .. ولما كان ذلك واجبا وطنيا أيضا ، وعلى الرغم من أن الأمور كانت فى
الوقت نفسه ما تزال مشوشة فقد كتبت أول مقال لى عن البوسنة تحت عنوان
(ماذا يحدث فى البوسنة والهرسك ؟) .. كان السؤال موجها للجميع بمن فيهم
الدكتور بطرس غالى الذى كان قد تولى قبل أشهر قليلة منصب الأمين العام
للأمم المتحدة .. وكان على أن أتوجه فى اليوم التالى إلى الولايات المتحدة فى
منحة دراسية وهناك التقيت مع عدد كبير من الصحفيين والسياسيين
والمواطنين العاديين وناقشت مع المهتمين منهم تلك القضية التى كانت تشغل
بالفعل حيزا كبيرا من تفكيرى .. ومنذ ذلك التاريخ بدأ ارتباطى الحقيقى بالبوسنة
ولم أكن أدرك أننى ولسنوات طويلة قادمة سوف أكون شاهدا لى على ماحدث
أثناء الحرب .. بل ماحدث أثناء السلام .

وعلى الرغم من أننى أبدأ فى كتابة صفحات هذا الكتاب من إحدى شرفات
المنزل الذى كنت أسكن فيه فى شارع تيتوفا فى سراييفو فى نهاية عام ١٩٩٩
وبعد نحو أربع سنوات من حلول السلام الظاهرى إلا أننى يجب أن أنقل ماقاله
لى أحد حكماء هذا البلد قبل أن أغادر البوسنة فى أواخر ذلك العام إذ قال "
البوسنة هى جزء من البلقان .. ويخطئ من يعتقد أن السلام قد حل فى المنطقة
بانتهاء الحرب فى البوسنة وكوسوفو ، كما يخطئ من يعتقد أن السلام فى
الشرق الأوسط قد حل .. فالسلام لن يحل ما لم تنته أطماع الطامعين فى البلقان
وما لم تنته إلى الأبد أطماع إسرائيل فى جيرانها .. وستظل النيران مشتعلة تحت
رماد كثيف هنا وهناك .. ما لم يحدث شىء عظيم يطفئها إلى الأبد أو يشعلها
من جديد " .

إننى أؤكد منذ البداية أننى لست هنا بصدد تقديم دراسة تاريخية أو سياسية عما حدث فى البلقان وبشكل خاص فى البوسنة ثم كوسوفو من بعدها وقد كنت شاهدا أيضا على ما حدث بها ولكنى بصدد تقديم شهادة عيان لما حدث فى البوسنة ليس أثناء الحرب بل أثناء السلام وتحليل بعض هذه الأحداث والأوضاع الناشئة عن الحرب واستخلاص العبر منها حتى نضمن أن تكون الرؤى فى المستقبل أكثر وضوحا ، وحتى لا ينسى القارئ العربى البوسنة والهرسك ولكى لا يسود الاعتقاد بأن قضية هذه البلد قد انتهت وأنا يمكن أن نضعها فى خلفية ذاكرتنا .

ومنذ وطأت قدمى أرض كرواتيا فى الأيام الأولى من عام ١٩٩٦ ثم أرض البوسنة فى أكتوبر من العام نفسه ، ولأربع سنوات تقريبا ، أصبح لى كثير من الأصدقاء الذين لم أكن أتوقع أن تجمعنى بهم تلك الصداقة العميقة والحميمة وبتلك السرعة وذلك الدوام .. كانوا لى عونا فى عملى كمراسل لوكالة أنباء الشرق الأوسط فى المنطقة أو فى حياتى ، وفى تغلبى على معاناة الأيام والليالى الطويلة الشاقة وخاصة عندما كانت سراييفو لا تزال مجرد حطام . وكانوا - وهو الأهم - عونا لى فى فهمى للأمور وإرشادى فى طرق وعرة ودروب مظلمة فى أكثر بقاع الأرض تعقيدا رغم أننى كنت بالفعل أعرف أننى أضع قدماى فى منطقة لا مثيل لها فى كل أنحاء الدنيا من مثل هذا التعقيد السياسى والعرقى والدينى وقبل كل شىء هذا التعقيد الاجتماعى .

ولعلى أذكر هنا ودون أن أخل بحق كثيرين من الأصدقاء البوشناق والكروات والمسلمين والمصريين الذين عاونونى فى مهمتى ما قدمه لى من عون كل من السيد حارث سيلایدجتش رئيس وزراء البوسنة المتقف الذى يمثل الجيل الجديد القادم من الزعماء الأكثر تفتحا واستنارة وحبا لبلاده والمدركين

لحقائق العالم الجديد والذي أعتقد بل وأتمنى أنه سيكون الزعيم الذي سيتولى قيادة البوسنة في سنواتها القادمة بعد انتهاء مهمة الحرس القديم والقدير وعلى رأسهم المناضل على عزت بيجوفيتش .. كما أذكر بكل التقدير السفير أحمد عبد الرحمن أبو طالب سفير مصر السابق في البوسنة الذي كان وبحق السند الأول لى في البوسنة - والسيد ميرزا خيرتش مستشار الرئيس على عزت بيجوفيتش والصديق العزيز الشيخ مصطفى تسيرتش رئيس العلماء ومفتى البوسنة والسيد عزت ستارتشفتش السكرتير العام لاتحاد الغرف التجارية في البوسنة والهرسك والسفير عبده حضروفيتش القائم بأعمال سفير البوسنة في القاهرة - سابقا - والسفير هانى خلاف سفير مصر في ليبيا وسفيرها السابق في بلجراد .

الفصل الأول

الطريق إلى سراييفو

تراجيديا .. لم تنته

فى ركن صغير على طائرة نقل عسكرية من طراز سى ١٣٠ تحمل علامات الجيش الملكى النرويجى تابعة لقوات تنفيذ السلام فى البوسنة كنت مربوطا إلى مقعد مصنوع من شرائط قماشية وحولى العشرات من الوجوه التى تحمل سمات متباينة ، إيطالية وألمانية وأمريكية وغيرها وأزياء عسكرية مختلفة تحمل كل منها أيضا سمات كل تلك الدول .. كنت أقبع فى ذلك الركن وأنا أحاول أن أنسى ضجيج المحركات الأربعة لهذه الطائرة العسكرية الضخمة وهى تحملنى أخيرا إلى سراييفو .

ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى أركب فيها طائرة من هذا النوع لكنها كانت بالتأكيد المرة الأولى التى أكون فيها جزء من هذا الخليط الدولى منذ انتهاء حرب الخليج حينما كنت أقوم بتغطية عملية تحرير الكويت .. هذا الخليط من العسكريين والمدنيين كان له وجهة واحدة .. وربما اختلفت أسباب كل واحد منا وربما اختلفت نتائج الرحلة .. إلا أن كل شئ كان يبدو متجها إلى نفس الهدف .. فقد توقفت الحرب فى البوسنة ورفع الحصار عن سراييفو .. وبدأ عصر جديد من السلام هناك .. وبدأ كأن من فاتهم استثمار سباق الحرب أصبحوا فى عجلة من أمرهم لاستثمار سباق السلام .

المسافة من زاجرب عاصمة كرواتيا ، حيث انتظرت هناك عشرة أشهر كاملة لأبدأ هذه الرحلة إلى سراييفو ، لا تتعدى النصف ساعة بالطائرة ، إلا أننى قطعتها فى أكثر من ثلاث ساعات بتلك الطائرة الضخمة ، فقد كان علينا أن نهبط فى مطار مدينة توزلا الذى تحول - وقتها - إلى أكبر قاعدة عسكرية

جوية أمريكية في البلقان كله انتظارا لانقشاع الضباب من مطار سراييفو .. وعلى أرض المطار رحت أتحدث مع الطيار النرويجي وأسأله عن التوقف الطويل وعما إذا كان بمطار سراييفو أجهزة ملاحية للمساعدة على الهبوط أثناء الضباب .. وعندما عرف أنها المرة الأولى التي أزور فيها سراييفو ضحك قائلاً إنه لم يبق في سراييفو شيء حتى تبقى هناك مثل تلك الأجهزة .. وقال لي مساعده "أنه لو عرف من قاموا ببناء هذا المطار ما سيحدث في المستقبل لما بنوه في وسط منطقة الجبال صانعة الضباب .. وعلى أية حال عندما تصل سراييفو ستعرف بنفسك كل شيء" .

وتهدر المحركات مرة أخرى وبعد دقائق قليلة .. وبلا إعلان كالذي تذيعه مضيفات الطائرات المدنية كانت عجلات الطائرة تدب بعنف على الأرض .. كنت خلال تلك الدقائق كمن يركب آلة الزمن .. أنتقل من مكان إلى آخر دون أن أرى شيئاً أو أعرف شيئاً ، فليس هناك سوى هذا الخليط العجيب من حولى .. وفي النهاية توقفت المحركات وانفتحت مؤخرة الطائرة وقفرنا إلى الأرض .. وتطلعت حولى .. أنا في سراييفو ..

منذ اللحظة الأولى يقتنع المرء بأن حرباً توقفت هنا قبل أيام .. فالمطار لم يكن مطارا بالمعنى المعروف .. بل كان مجرد مجموعة من الخيام والطائرات العسكرية من كل لون ومن كل بقاع الأرض ، ومبان كانت من قبل يطلق عليها مطار سراييفو الدولي لم تعد سوى كومة من الحطام .. وطائرة تقف بعيداً وحيدة مهمة تحمل علامات شركة الطيران اليوغسلافية قيل لي أنها تقف هناك منذ بداية الحرب .. ولا تزال تلك الطائرة هناك في مكانها حتى الآن .. وفوق تلك المباني والخيام رُفع علم فرنسا - التي كان جنودها يسيطرون على المطار ويديرونه - إلى جانب علم قوات الناتو .. والامم المتحدة ..

إجراءات بسيطة .. بل ربما لم تكن هناك إجراءات على الإطلاق .. وكانت تلك هي المرة الأولى - والأخيرة - التي أدخل فيها إلى دولة دون تأشيرة ودون المرور على جوازات ودون أن أحصل حتى على تصريح بالدخول .. كانت البطاقة الصحفية التي تمنحها قوات تنفيذ السلام للصحفيين كفيلاً بكل شيء .. فعندما طلبت من الصديق الدكتور قاسم ترنكا وكان وقتها سفيراً للبوسنة في كرواتيا - وهو أيضاً أحد مهندسي اتفاق دايتون للسلام - تأشيرة دخول إلى البوسنة ، قال لي .. " ياسيدى نحن نريدكم هناك .. وعليك أن تذهب فقط ولن تجد هناك من يمنعك .. إن بلادنا مفتوحة للجميع " .. ولقد رأيت ذلك .

أعبر مجموعة المباني المدمرة ثم بوابة حديدية صغيرة حيث أجد الصديق الشاب عاصم رواشدة .. وهو صحفي أردني لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره وقتها ، وكان هذا الشاب أكبر عون لي في سراييفو حتى غادرتها بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات .. وفي سيارته الصغيرة وضعت حقائبي وبدأت رحلتى الطويلة في ذلك العالم المجهول .

قبل اثني عشر عاماً تقريبا من يوم وصولي إلى سراييفو كانت المدينة وقتها تستعد لاستضافة دورة الألعاب الأولمبية الشتوية ، وكرست يوغسلافيا الاتحادية كل جهودها لكي تبدو المدينة في أجمل صورها .. وكان قد تم بناء العديد من الملاعب الرياضية الشتوية الجديدة واستاد ضخمة وآخر مغطى وهو المعروف باسم (زيترا) بل تم بناء أحياء بأكملها ومن بينها ، نوفي جراد ودوبرينيا وكذلك عدد من الفنادق كان من بينها فندق هوليدي إن ، وقد قدر لهذه المنشآت جميعاً أن تدمر تماماً أثناء الحرب ، فيما عدا فندق الهوليدي إن الذي

قدر له أن يكون شاهدا على أحداث الحرب التي اندلعت بعد ذلك بثمانية أعوام بل وناله الكثير من ويلاتها .

فى ذلك التاريخ أصبحت سراييفو - كما كانت دائما - واحدة من أجمل مدن أوروبا وأضيفت على مدى الأشهر التالية مآذنها القديمة وقبابها النحاسية الخضراء ومنازل كنائسها الكاثوليكية والارثوذكسية .. ولم يكن لأى شخص مهما بلغت قدرته على الوصف أن يحدد على وجه الدقة ملامح صورة الحرب التي عاشتها تلك المدينة الصغيرة .. ولا يمكن أيضا لأى كتاب مهما بلغ حجمه أن يجمع كل الروايات والحكايات والقصص التي وقعت ما بين لحظة إطلاق أول رصاصة فى الحرب والتي راح ضحيتها - سعادة أول شهيدة - وبين إطلاق آخر طلقة سقطت فوق سوق ماركالا التي قتلت أكثر من سبعين شخصا فى ثوان فى عام ١٩٩٥ .. ففى غابات البوسنة ، وفوق جبالها ، وفى قراها البعيدة عن العيون وقعت أبشع الجرائم التي يمكن أن تكون الأسوأ فى التاريخ الحديث أو القديم على السواء .

فى لحظة غفلة من الزمن فتحت جهنم أبوابها لتصب نارها وحممها فوق المدينة الساكنة فى قلب الوادى الضيق الذى يخترقه نهر ملييتسكا .. لحظة استمرت أربع سنوات !! وعندما أغلقت جهنم أبوابها كانت قد تركت (سراى البوسنة) أطلالا حزينة وبقايا جمال هنا وهناك .. وشظايا صور جميلة .. بقايا .. لم يعد هناك سوى بقايا من كل شيء .. وكانت الصورة تتكرر فى كل مدينة وقرية ..

وهكذا وفى اليوم الثامن من شهر أكتوبر عام ١٩٩٦ كنت أخطو أولى خطواتى نحو قلب المدينة التي كانت ولأربع سنوات طويلة حديث العالم .. المدينة التي أطلقت من أجلها صرخات الملايين من كل أنحاء العالم " انقذوا

سراييفو " .. لكن يبدو لحسن الحظ أن الاوان لم يكن قد فات تماما .. فعندما وصلت إلى قلب المدينة كان كل شيء يسير ببطء ، لكن الحياة كانت رغم ذلك تسير .. وقد طلبت من صديقي أن يسير ببطء حتى يمكنني أن أتفحص كل جزء من الطريق الذى نسير فيه .. فلم أستطع صبرا حتى أصل إلى مكان إقامتى . شارع تيتوفا أو شارع تيتو هو الشارع الوحيد الرئيس الذى يخترق المدينة كلها ، فى بدايته يوجد ثلاثة مبان كانت فى الماضى جميلة ، أولها مبنى صحيفة أو سلوبودجينا - أو الحرية - ثم مبنى رعاية كبار السن ومبنى سكن الطلاب ، وعلى الناحية الأخرى كانت تقع المنطقة الصناعية .. وكانت جميعها قد دمرت فى الساعات الأولى للحصار ، وعلى الرغم من أن معظم هذه المنشآت أعيد بناؤه بما يشبه المعجزة فى فترة وجيزة بعد الحرب ، إلا أن المسؤولين فى المدينة قرروا أن يتركوا الجانب الأكبر من الجريدة المدمرة كما هو رمزا على العدوان الذى وقع وربما حتى لا ينسى أحد ما حدث ، وهكذا كانت الأشواك التى زرعها الحقد أثناء الحرب تنمو مع بداية السلام .

كانت صدمتى فى الواقع كبيرة .. وعلى الرغم من أننى شاهدت ما تعرضت له مدن كثيرة من جراء الحرب سواء فى بلدى مثل السويس والإسماعيلية ، أو فى بلاد أخرى مثل الكويت .. إلا أن مشهد سراييفو كان مختلفا ، ففي هذا الشارع الطويل الذى يخترقه خط الترام ، لم يكن هناك وقتها سوى ترام واحد ذو عربتين يذرع المدينة جيئة وذهابا مكدسا بعشرات من المواطنين .. وأعادتنى الصورة إلى ما كانت عليه القاهرة فى منتصف السبعينيات بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وجاعنى الرد على سبب وجود هذا الترام الوحيد بأسرع مما توقعت ، فهناك إلى جوار المبنى الذى مازالت تحتله مكاتب الأمم المتحدة كانت المأساة مجسدة .. على اليمين عشرات من عربات الترولى الكهربائية ، تقف على مساحة شاسعة من الأرض وقد تفحمت ، وما لم يكن

محترقا منها فقد ناله من التدمير والفساد بفعل أربع سنوات من الحرب والأمطار والشلوج ما يجعل منها مجرد قطع حديدية لا تصلح لشيء . أما على الجانب الأيسر من الشارع فى نفس المنطقة فقد كانت هناك عشرات من عربات الترام ترقد بنفس الطريقة فى صورة مكررة .. أما منازل المدينة فكانت - بلا استثناء يذكر - بلا نوافذ زجاجية وقد غطتها قطع من البلاستيك كتب عليها الحروف المميزة للمفوضية العليا للاجئين .. وبدا لى للحظة أن المدينة ليست إلا معسكرا كبيرا للاجئين . والأغرب من ذلك أنه حتى السيارات القليلة التى كانت تسير فى شوارع المدينة كانت هى أيضا بلا زجاج .

كان صديقى صامتا بعد أكثر من نصف ساعة قضيتها منذ وصولى إلى المدينة ، وعندما تحدث أخيرا قال لى إننى لم أشاهد سوء جزء يسير من الصورة وغدا نبدأ جولة حقيقية فقد حل الظلام فجأة ولا تزال سراييفو بلا كهرباء .

على مدى نحو شهر كامل منذ ذلك التاريخ كانت مهمتى الأولى فى البوسنة أن أرى وأسمع وأدون وأن أتحدث مع الناس ، حتى يمكننى أن أرسم فى ذهنى بوضوح صورة ما حدث هنا على مدى أربع سنوات ، وما يمكن أن يخلفه من آثار فى المستقبل .. وقد أتحت لى فرصة نادرة قلما تتاح لصحفى .. ففى تلك الفترة الزمنية القصيرة تمكنت من أن أقطع البوسنة طولا وعرضا لأشاهد معظم قرأها ومدنها من بيهاتش فى أقصى الشمال الغربى إلى موستار فى الجنوب إلى توزلا فى الشرق وحتى زيننسا فى الوسط ، فقد ساعدنى على ذلك السفير أحمد عبد الرحمن أبو طالب(*) بشغفه الشديد فى معرفة كل جزء من أجزاء البوسنة ،

(*) تسولى السفير احمد عبد الرحمن أبوطالب منصبه فى يونيو ١٩٩٦ حتى يوليو ١٩٩٩ . وكان يشغل منصب قائد قوات الدفاع الجوى برتبة الفريق .

وكان فى الوقت نفسه يحاول تحديد أكثر المناطق المتضررة التى يمكن توجيه المساعدات المصرية لها . وفيما بعد عندما قمت بزيارة مدينة بالى - معقل المتشددىين من صرب البوسنة - كنت أيضا فى صحبة السفير النشط وتلك قصة تحتاج إلى تفصيل ستتضمنها صفحات الكتاب .. والمهم أن ما رأيته خلال الساعة الأولى من وجودى فى سراييفو لم يكن سوى افتتاحية لفصول الدراما التى شاهدت آثارها فيما بعد .

لشخص مثلى يعيش فى واحدة من أكبر مدن العالم وأكثرها ازدحاما - القاهرة - فإن سراييفو لا تعدو أن تكون ضاحية صغيرة لم يكن يزيد كل عدد سكانها فى ذلك الوقت عن سكان شارع غير مزدحم من شوارع القاهرة أو نيويورك أو طوكيو ، بل وينطبق عليها ذلك حتى بعد أن وصل عدد سكانها فى بداية عام ألفين إلى نحو نصف مليون نسمة . وهى مدينة لا تختلف فى طابعها العام عن أى مدينة فى يوغسلافيا السابقة بل وفى أوروبا بشكل عام . إلا أن أكثر ما يميزها عن تلك المدن هو مآذنها ذات الطراز المميز التى ترتفع سامقة هنا وهناك وخاصة فى الحى القديم المعروف باسم الباشتشارشيا ، وعلى الرغم من ذلك فإن ما يميز مدينة عن أخرى فى العالم كله ليس إلا صفات أهلها .

فى قلب سراييفو شارع يقع على الضفة الغربية لنهر ميليتسكا هو شارع فيسونوفو شيتاليشتا وهو يشبه أحد شوارع القاهرة الشهيرة فى الخمسينيات وهو شارع الجبلية الذى يطل على النيل فى حى الزمالك ، بل إن هذا الشارع يحمل نفس الصفة التى أطلقها عليه العامة فى القاهرة بأنه شارع العشاق .. ويقال إن أجمل حكايات الحب التى شهدتها سراييفو بل والبوسنة كلها كان ذلك الشارع الجميل مهذا لها .. كان الشارع أيضا أهم متنفس لأهل المدينة فى ليالى الصيف ، وكانت نزعتهم فيه لا تعادلها إلا النزعة فى حدائق ايلدجا المعروفة

باسم - فريلو بوسنة - والتي ينبع منها النهر الذى اكتسبت البلاد اسمها منه .
ولقد شاء قدر الشارع الجميل أن يكون هو الآخر ولأربع سنوات طويلة أن يكون
الخط الفاصل بين المتحاربين .. الصرب فى الشرق والبوشناق والكروات فى
الغرب ، وعندما سرت فى هذا الشارع للمرة الأولى رحت أتخيل الجمال الذى
زال وأدركته النيران فاحترقت كثير من أشجاره وذهبت ذكريات جميلة ، وحتى
بعد سنوات من انتهاء الحرب كانت ضفتا النهر فى تلك المنطقة تخبئان عشرات
من الألغام تحت سطحها ، والغريب أن أهل سراييفو كان همهم الأول بعد انتهاء
الحرب هو إعادة الشارع الجميل إلى سيرته الأولى .

وقد شاعت الصدفه وحدها أن أسكن فى الجانب الذى كان يقطعه الصرب
من سراييفو أثناء الحصار فى حى جربافيتسا ، وقد راعنى فى البداية أننى كنت
أسكن فى هذا المبنى الضخم وحدى تقريبا .. فقد كانت جميع شققه لا تزال
مدمرة بشكل غريب وبعد أكثر من شهرين من إقامتى فى هذا المكان استطعت
أن أفهم من صاحبة الشقة ، وهى سيدة طاعنة فى السن ، أن معظم سكان المبنى
لم يعودوا بعد إليه ، وأن الصرب قبل أن يغادروه - بعد أن تم الاتفاق على
عودة الحى لينضم إلى باقى العاصمة تحت سيطرة المسلمين والكروات - قاموا
بتهب كل ما هو موجود فيه وحطموا كل شىء وما لم يستطيعوا نقله معهم
أحرقوه بل أنهم قاموا بإشعال النار فى مبان كاملة ولم يتركوا شيئا فى الحى
يمكن للآخرين استخدامه .. ولذلك كان هذا الحى الذى لم يمس تقريبا طوال فترة
الحرب أكثر مناطق سراييفو تخريبا .. والغريب أن ذلك كله تم بعد انتهاء
الحرب رسميا .. خلال الأشهر الأولى من عام ١٩٩٦ . بعد أن سمعت هذه
القصة رحت استعيد تلك المشاهد التى كانت تعرضها شاشات التليفزيون العالمية
قبل أشهر قليلة ..

كان المشهد غريبا حقا .. فقد كان الجميع على الجانبين يهتفون ويتصايحون ، لكن هدف كل جانب كان مختلفا فى هتافه وصياحه .. كان يفصلهم نهر ميليتسكا الصغير الذى لا يتجاوز عرضه أكثر من عشرين مترا .. على الجانب الشرقى كان الصرب غاضبون ويهددون .. وعلى الجانب الغربى كان البوشناق والكروات يهللون فرحا .. ويهتفون أخيرا رفع الحصار عن سراييفو وانطلقت من صدورهم زفرات طال كتمانها لسنوات أربع أو يزيد على أحد شاطئى النهر كان بكاء وصراخ وغضب وعلى الآخر كان بكاء الفرح بالسلام فقد تم فى مدينة دايتون الصغيرة فى ولاية أوهايو الأمريكية قبل قليل توقيع اتفاق السلام الذى أنهى الحرب التى أقضت مضاجع أوروبا وانتهت بذلك أطول وأبشع حرب عرفها التاريخ الحديث منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ولدت فى أوروبا أخيرا دولة مستقلة كادت أن تصبح ثانى دولة إسلامية فى أوروبا بعد البانيا لولا أن العالم وبشكل خاص أوروبا لم تكن مستعدة لقبولها .. وعلى أية حال وفى ذلك اليوم ارتفع بحرية فوق مآذن المساجد التى تبقت آذان الصلاة ودقت الكنائس الكاثوليكية أجراسها ابتهاجا بالسلام ، وعلى الجانب الآخر كان حريق يشتعل فى بداية طريق طويل تملؤه أشواك السلام الدامية .

صورة عن قرب

لا يعادل البلقان فى تعدد شعوبها ولغاتها وعاداتها واختلاف - بل وتناقض - الاتجاهات السياسية والدينية فى هذا الإقليم التاريخى سوى الهند ، وهذا الإقليم يضم نحو عشر دول .. وأزعم أن تقدم أوروبا واستقرارها أو عرقلة هذا التقدم وتهديد الاستقرار فيها مرتبط كثيرا بهذه المساحة من الأرض التى تشكل فخا أو حتى لغما تحت أقدام أوروبا .

اليونان ورومانيا وبلغاريا والمجر وألبانيا وخمس دول كانت تشكل فى الماضى القريب دولة واحدة من أجمل وأقوى بلدان أوروبا كلها هى يوغسلافيا ..

هذا هو المسرح التاريخي لمعظم الحروب والصراعات فى القارة الصغيرة .. كانت تلك المساحة من الاراضى الواقعة فى جنوب شرق القارة مطمعا - ولا تزال - لكل القوى الكبرى فى العالم فقد كان هناك دائما من يقول إن من يسيطر على البلقان يسيطر على العالم .. وهكذا ومنذ الامبراطورية اليونانية إلى الامبراطورية الرومانية فى العصر القديم وإلى الامبراطورية العثمانية فى العصور الوسطى إلى الامبراطوريات الألمانية والسوفيتية والأمريكية فى العصر الحديث كانت منطقة البلقان مهدا للأحداث وهدفا لكل من كان يطمح يوما فى أن يحكم العالم .

منذ منتصف ثمانينيات القرن الماضى كان العالم يتجه وبسرعة مذهلة نحو التغيير ، فخلال سنوات قليلة وقع الانهيار العظيم للاتحاد السوفيتى ، وتشققت أجزاؤه ثم انفصلت بعضها عن البعض ، وبدأ كأن العالم كله يتجه نحو الانشطار السياسى فانقسمت كثير من الدول مثل تشيكوسلوفاكيا ثم انهار حائط برلين وتوحدت ألمانيا من جديد .. وبدأ العالم الغربى يطارد فلول الشيوعية .. وعلى الرغم من أن يوغسلافيا كانت تعد الدولة الشيوعية الأكثر اعتدالا فى عهد مؤسسها الماريشال جوزيف بروس تيتو ، إلا أن الوضع اختلف بعد سنوات من وفاته ، وبدأت الأنظار تتجه إلى تلك المنطقة من البلقان حيث كان يتعين تقريرها هى الأخرى من بقايا الشيوعية فى العالم لتصبح أوربا نظيفة .. وعلى الرغم من الاعتقادات التى سادت تلك الفترة من أن بداية الانهيار كانت ستأتى من كوسوفو بسبب الأحداث التى مرت بها منذ وفاة تيتو عام ١٩٨٠ إلا انها كانت فيما يبدو الخاتمة .. أما البداية فكانت فى سلوفينيا عام ١٩٩١ .

فى عام ١٩٩٠ أجريت أول انتخابات متعددة الأحزاب فى الجمهوريات الست فى الاتحاد اليوغسلافى ، وفى ديسمبر من العام نفسه تولى سلوبودان ميلوشيفيتش رئاسة جمهورية صربيا .. وبعد عدة أحداث مدبرة من جانب

الجيش الاتحادى اليوغسلافى ضد الكروات ، قرر البرلمان الكرواتى فى ٢٢ فبراير ١٩٩١ الانفصال عن الاتحاد .. وبعد هذا التاريخ بأربعة أيام أعلنت المناطق الصربية - وهى سلافونيا وبارانيا وسلافونيا الغربية - سرييم الغربية - فى كرواتيا إعلان الحكم الذاتى ، ثم أعلنت الاتحاد فيما بينها بعد ذلك وقررت الانفصال عن كرواتيا وإطلاق اسم جمهورية صرب كرايينا على نفسها ، وجعلت من مدينة كنين الواقعة على ساحل بحر الادرياتيك عاصمة لها .. وقد حاول الرئيس الكرواتى فرانيو تودجمان وقتها تدارك هذا الأمر فاجتمع فى ٢٥ مارس من نفس العام مع سلوبودان ميلوشيفيتش رئيس صربيا فى ذلك الوقت - فى كاراديوريفو - ثم اجتمعا مرة أخرى بعد عشرين يوما فى تكفاس وفى هذين الاجتماعين اتفقا على مبدأين هامين ، الأول اقضاء رئيس وزراء الاتحاد اليوغسلافى وقتها انتو ماركوفيتش - وكان كرواتيا - بهدف القضاء على اصلاحاته الاقتصادية أما المبدأ الثانى والأكثر خطورة هو تقسيم البوسنة والهرسك الى مناطق نفوذ بين كرواتيا وصربيا .. والمبدأ الثانى هو ما كشفه الرئيس المقدونى كىرو كليجروف فى بدايات عام ٢٠٠٠ .

ووسط أحداث متسارعة كان رؤساء الجمهوريات اليوغسلافية الست يحاولون تحديد مصير الاتحاد ، وفى ٢١ يونيو عام ١٩٩١ أعلن البرلمان فى سلوفينيا الاستقلال عن الاتحاد اليوغسلافى ، وقامت قوات الشرطة بأقامة نقاط حدودية على جميع خطوط الحدود بينها وبين كرواتيا وإيطاليا والمجر والنمسا ، وفى اليوم التالى أقامت كرواتيا نقاطاً مماثلة وقامت الجمهوريتان بسحب ممثليهم من البرلمان اليوغسلافى الاتحادى .

يعتبر يوم ٢٧ يونيو ١٩٩١ هو يوم بداية الحرب فى يوغسلافيا السابقة بل يعتبر هو يوم بداية الانهيار الحقيقى للاتحاد الذى اصبح هشا .. فى ذلك اليوم

بدأ تدخل الجيش الاتحادى فى سلوفينيا لمحاولة إزالة نقاط الحدود التى أقامتها الشرطة السلوفينية وبدأت حرب الأيام السبعة بين الجانبين ، ولكن الأمر لم يستغرق طويلا فعلى الرغم من أن إعلان سلوفينيا الاستقلال كان بمثابة انفجار داخلى صغير الا أنه من الواضح أن السياسى المغمور - وقتها - ميلان كوتشان كان قد أعد عدته جيدا فقد جمع حوله وبتأييد من ألمانيا - الأب الروحى - وإيطاليا - الجارة الطيبة - عددا كبير من المثقفين والسياسيين القوميين الذين أدركوا أن يوغسلافيا شأنها شأن الاتحاد السوفيتى يجب أن تخفى من عالم يبحث عن مستقبل جديد .. ولم تكن ثورة ميلان كوتشان - الذى أصبح فيما بعد الرئيس الديمقراطى لشعب صغير ودولة ربما كانت واحدة من أصغر دول أوروبا - ثورة بمعنى الكلمة رغم أنه تم الترتيب لها منذ شهور طويلة وتم الحشد المعنوى المطلوب داخليا وخارجيا ، فقد كانت سلوفينيا فى كل مراحل الاتحاد اليوغسلافى منذ نشأته تعتبر نفسها جزءا من أوروبا الغربية وثقافتها فهى الأقرب جغرافيا لقلب الوسط الأوروبى وكذلك الأقرب إلى نهج اقتصاده الحر .. إلا أن سلوفينيا كانت تعتبر حائط الصد الشمالى لكل يوغسلافيا ضد الأطماع الغربية التى لم تكن فى شكلها الظاهرى تعادل الأطماع القادمة من الشرق ذلك لأن يوغسلافيا حافظت لسنوات طويلة على علاقات جيدة مع جيرانها مثل النمسا وألمانيا وإيطاليا .. ولذلك فقبل أن ينتهى العام - ١٩٩١ - كانت مجموعة دول الاتحاد الأوروبى قد اعترفت بسلوفينيا كدولة مستقلة .

ولكن قبل أن تنتهى آثار الانفجار الأول كانت كرواتيا قد أعلنت الاستقلال بدورها وفى استفتاء ديموقراطى تم وفقا لشروط الغرب من أجل الاعتراف بها - وبدأ الانفجار الثانى والأخطر ينذر بقدم الحرب ، وعلى الرغم من بعض الأحداث الدموية المتفرقة التى ارتكبها صرب كرواتيا بمعاونة الجيش

الاتحادى اليوغسلافى إلا أن بداية الحرب الحقيقية فى كرواتيا يؤرخ لها بيوم ٦ يوليو عام ١٩٩١ عندما قامت وحدات من الجيش الاتحادى بإشعال النار فى مدينة تسليى فاحرقتها بالكامل وقتلت معظم سكانها وطردت الباقين منه لتمتد الحرب بعدها الى كل مكان ، وأصبح الجيش الاتحادى متورطا بالكامل فى الحرب إلى جانب المتمردين الصرب وقام باحتلال العديد من المدن الكرواتية حتى يوم ١٤ سبتمبر وهو موعد بدأ مأساة مدينة فوكوفار .. وفى اليوم التالى أطلقت صفارات الإنذار من الغارات الجوية فى سماء العاصمة زاجرب للمرة الأولى .. وبدأ الهجوم ضد مدينة دوبروفنيك التاريخية ..

كان الانفجار الثانى أقوى من الأول وأكثر خطورة وأكبر تأثيرا .. فكرواتيا هى أكبر جمهوريات الاتحاد - الذى كان - وأغناها ، وهى تضم معظم سواحل الاتحاد على بحر الادرياتيک وفى شرقها تقع حقول البترول الوحيدة فى كل أوروبا - إذا ما استثنينا بحر الشمال - وهى أيضا البوابة الشمالية والغربية للاتحاد على أوروبا ، وكان إغلاق هذه البوابة وهذه السواحل يعنى انفصال صربيا عن القارة أو عزلتها بحزام يشبه الهلال وكذلك باقى جمهوريات الاتحاد .. لقد كان انفصال كرواتيا يعنى أيضا أن حلم صربيا الكبرى سينهار وسيصبح الصرب أقلية تحت سيطرة الأعداء التقليديين والتاريخيين فى كرواتيا .. ولذلك كان هناك مبرر قوى لأن تعلن بلجراد الحرب لسنوات حتى عندما اعترفت أوروبا باستقلال كرواتيا فى أواخر العام وتم الاتفاق على إنهاء الأعمال العدائية بين قوات الحرس الوطنى الكرواتى والجيش اليوغسلافى - وقد تم الاتفاق فى سراييفو - وانسحاب الجيش اليوغسلافى إلى البوسنة ، ظلت هذه القوات متورطة فى الحرب بمساعدة المتمردين الصرب الذين أعلنوا الآن جمهوريتهم المستقلة فى كرواتيا ..

كان البركان الذى ظل خامدا لأربعين عاما قد استيقظ وكانت يقظته عنيفة أشعلت من جديد كل الخلافات التقليدية القديمة بين تراثين وحضارتين وعقيدتين مختلفتين فى دين واحد .. وتكررت أحداث الماضى ، صدام مروع وضحايا بعشرات الآلاف وتشريد مئات الآلاف وقد قدر لى أن أشاهد عن قرب نتائج هذا الصدام وآثاره - كما سبق وأشرت - والتي ستظل باقية لسنوات طويلة قادمة ، ذلك عندما أتيحت لى الفرصة بالتجول فى أنحاء ما كان يسمى بجمهورية كرايينا الصربية التى شقت أنحاء كرواتيا إلى نصفين غير متصلين ، شاهدت فى فوكوفار ما كان كفيلا وحده بأن يدق للعالم ناقوس الخطر حول ما يمكن أن يحدث بعد ذلك فى البوسنة لكن أحدا لم ينتبه .. فى فوكوفار لم يكتف أربعين ألف جندى من جنود الجيش اليوغسلافى والميليشيات الصربية شبه العسكرية - التشنيتيك - باحتلال المدينة وطرد سكانها من الكروات .. لقد راحوا يدمرون بيوتها بيتا بعد آخر حتى أصبحت أطلالا خربة وماتت تحت هذه الأطلال وتحت جنازير الدبابات عشرة آلاف إنسان ودفن من أسعده حظه منهم فى مقبرة جماعية تم اكتشافها وانتشال من فيها بعد خمس سنوات من سقوط المدينة .

كانت فوكوفار رمزا للصدام بين عقيدتين وإرادتين .. وكان الصدام مروعا كما قلت وكانت أطماع فرانيو تودجمان ، الذى لم يكن قد سيطر بعد على الأراضى الكرواتية ، قد ذهبت أدراج الرياح بعد تدمير المدينة .. لكن الرجل كان مثابرا وعنيدا وظل لسنوات طويلة يعد العدة لاستعادة كرواتيا من يد الصرب . وبعد أربع سنوات فاجأ العالم بعمليتين عسكريتين متزامنتين فى عام ١٩٩٥ أسقط فيهما الجمهورية الصربية المزعومة ورد الصاع صاعين انتقاما لفوكوفار ، فدمر مدينة كينين وأعاد إلى كرواتيا ما اقتطع منها وطرد الصرب

منها وأعلن كرواتيا نظيفة من الصرب ، وبعد انتهاء الحرب أعيدت المناطق الثلاث في الشرق - سلافونيا الشرقية وغرب سريم وبارانيا - إلى كرواتيا بقرار من الأمم المتحدة .

منذ بداية العام ١٩٩٢ كانت الأنظار تتجه إلى البوسنة .. فقد كان المرجل يغلى منذ زمن .. فقد قررت الأمم المتحدة أن يكون مقر قوات حفظ السلام في كرواتيا في سراييفو .. لكن الأحداث مضت بسرعة .. ففي السابع والعشرين من فبراير وبعد أن استقرت الأمور على الجبهة الكرواتية لم ينس الجانبين المتحاربين البوسنة التي أعلنت أنها سوف تجرى إستفتاء على الاستقلال واجتمع ممثلو فرانكو تودجمان وسلوبودان ميلوشيفيتش في مدينة جراتز النمساوية القريبة من الحدود السلوفينية وترأس الجانب الكرواتي جوزيب مانوليتش - الساعد الأيمن للرئيس الكرواتي - وفي الجانب الصربي كان هناك رادوفان كارادجيتش رئيس الحزب الديمقراطي الصربي في البوسنة ومعه كوليفيتش ، وهناك بحثا إمكانية قيام اتحاد - كوفيدراي - في البوسنة كخطوة أولى لتقسيمها بين صربيا وكرواتيا .. ولمرة الثالثة فشل الجانبان في الوصول إلى اتفاق ، وخرج كل جانب وفي ذهنه الاستيلاء على البوسنة والهرسك .

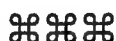
بعد يومين من ذلك التاريخ جرى الاستفتاء في البوسنة والهرسك وعلى الرغم من مقاطعة الصرب له إلا أن ٩٩,٤ في المائة من الأصوات اختارت الاستقلال عن الاتحاد اليوغسلافي .. وهنا وقع الانفجار الثالث الذي هز أرجاء أوروبا وأستمر يدوى لأربع سنوات كاملة في أعنف حرب تشهدها أوروبا منذ أنتهاء الحرب العالمية الثانية .. وقبل أن يقع الانفجار الأخير في كوسوفو قبل أن ينتهى القرن .

في اليوم التالي لإعلان نتيجة الاستفتاء بدأت الحرب في البوسنة وقام الصرب بالهجوم على مدن موستار واوسيك وستولاتس وترافنك وفاراش

وتربينا وغيرها ، ودخلت دبابات الجيش اليوغسلافى شوارع بيلينا واحترقت بوسانسكى برود .. وأخيرا بدأت الميليشيات الصربية مدعومة بقوات الجيش اليوغسلافى فى حصار سراييفو اعتبارا من أول أبريل ١٩٩٢ وبعدها بدأ التفاوض من جديد بين كروات البوسنة وصرب البوسنة فى جراتز ، وترأس الوفد الكرواتي هذه المرة ماتى بوبان زعيم كروات البوسنة بينما ترأس كارادجيتش للمرة الثانية وفد صرب البوسنة وأعلن الجانبان بعدها أنه لم يعد هناك سببا للعداء بين الجانبين فى البوسنة .. كانا يريدان أن يظهرهما للعالم أن المسلمين وحدهم هم المسئولين عن الحرب فى البوسنة لكن هدفهم انكشف وتسارعت الاحداث وتساعدت لتستمر أربعة أعوام طويلة .

إن الحديث عن يوميات ما حدث بين الأول من أبريل ١٩٩٢ وتوقيع اتفاق ديتون للسلام فى نوفمبر عام ١٩٩٥ إنما يحتاج لعدة كتب منفصلة حتى يتاح للمرء أن يعرف حقيقة ما جرى وأن يطلع على البطولة التى أبداهها الشعب البوسنى تحت الحصار فى جوراجدة وبيهاش وموستار وسراييفو .. وقد سطرت هذه اليوميات فى كثير من الكتب بالفعل وما يعيننا هنا هو المستقبل .. فالبوسنة والهرسك تحتاج منا لا أن ننكأ مزيدا من الجراح بل أن نضع أصابعنا على مصادر القوة والضعف فى هذا البناء الوليد حتى يمكن أن يرتفع ، وأن يأخذ شعب هذا البلد المكانة التى يستحقها بين شعوب أوروبا والعالم .. ولست ممن يرون أن هذا الهدف بعيد المنال .. كما أننى مع من يرون أن البوسنة لم تعد بحاجة إلى مساعدات إغاثية إنسانية .. بل تحتاج إلى إعادة بناء الإنسان والوطن وهو ما يحتاج منها إلى أن تبذل كثيراً جداً من الجهد مع جهد آخر من المجتمع الدولى . وتلك كانت وجهة النظر المصرية .. فقد روى لى مسئول

مصرى أن بعض المسؤولين فى المشيخة الإسلامية فى البوسنة طلبوا من السفير المصرى فى البوسنة مساعدتهم على إقامة شواهد رخامية لمقابر شهداء الحرب ، وكان تقديرهم أنها سوف تتكلف عدة ملايين من الدولارات ، وما كان من السفير إلا أن قال إن مصر سوف تقدم هذه المساعدة ولكن ليس للشهداء وإنما لأبناءهم ، فسيكون الشهيد أكثر سعادة عندما يرى أن البوسنة التى استشهد من أجلها ترفع رأسها بإعادة بناء مصانعها ومدارسها ومستشفياتها أكثر مما يسعده أن يقام له شاهد تكتب عليه قصة بطولته ..



الفصل الثانى

أشواك السلام

ماذا تملك البوسنة ؟

حتى قبل عام ١٩٩٢ وقبل تفكك الاتحاد اليوغسلافى القديم كان اقتصاد الجمهورية التى تحمل اسم البوسنة والهرسك واحدا من أقوى اقتصاديات الاتحاد كله .. بل إن ميزانها التجارى كأقليم اقتصادى مستقل مع الخارج كان يميل دائما لصالحها .. ولا شك أن موقعها الجغرافى الوسيط بين جمهوريات الاتحاد الأخرى وطبيعتها المناخية قد منحها ميزات كثيرة فضلا عن توفر مصادر الثروة من قوى بشرية تتميز بالكفاءة والنظام إلى ثروة طبيعية سخية من فحم وحديد ومعادن أخرى وطاقة كهربائية وأرض زراعية خصبة ربما لا يوجد مثيل لها فى كل أوربا ، إذ على الرغم من صغر مساحتها إلا أنها تملك تنوعا مناخيا فريدا جعلها تنتج العديد من المحصولات غير التقليدية فى أوربا مثل التبغ فضلا عن الغابات التى تمثل ثروة لا تنتهى ، إلى جانب وجود احتمالات للعثور على البترول فى مناطق الهرسك .. فضلا عن ذلك فإن الطابع الثقافى الذى كانت تمثله البوسنة وسط جمهوريات الاتحاد كان يجعلها إقليماً منفرداً .. وفى الوقت نفسه لا يمكن إغفال أن البوسنة بما تملك من تاريخ ثقافى متنوع سواء كان ذلك ثقافة دينية أو حضارات شرقية وغربية امتزجت فيها يجعلها منفردة فى كل أوربا بالإضافة إلى طبيعتها يمكنها من أن تأخذ مكانا بارزاً فى عالم السياحة ، وهى صناعة لا تزال البوسنة تفتقد الكثير من حرفيتها على الرغم من وجود مقوماتها وبشكل خاص السياحة الشتوية التى تتميز برخصها ..

وباختصار فإن البوسنة كانت تملك منذ البداية مقومات الدولة اقتصاديا .. ولم تكن على جانب آخر تفتقد مقومات الدولة السياسية خاصة أنها كانت تتمتع

ببرلمان متعدد الطوائف - بغض النظر عن ممارسات ذلك البرلمان فى فترة ما قبل الحرب - إلا أن كل هذه الثروات والقدرات والمقومات كانت تخضع لتمييز عنصرى بالغ الوضوح .. فنظرا لطبيعة الدولة الشيوعية وسيطرة القومية الصربية على معظم مؤسسات الدولة السيادية سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية فقد تم تركيز السلطات ومصادر الثروة فى أيدي القوميين الصرب ، ولم يترك للبوشناق سوى بعض الوظائف الرمزية فى الصفوف العليا وقاعدة عريضة من الوظائف فى الصفوف الأقل تأثيرا .. وفى الأيام الأخيرة قبل إعلان الاستقلال كانت هناك عمليات استنزاف لكل الثروات التى يملكها المسلمون والكروات فى البوسنة .. وفى سراييفو على وجه الخصوص .. فقد تم سحب معظم العملات الأجنبية من الأسواق ، وبدا للجميع بمن فيهم المسلمون والكروات أن الصرب يعدون لشيء ما .. وعلى الرغم من التحذيرات الكثيرة التى وجهها بعض المثقفين إلى المواطنين من ضرورة الاحتفاظ بثرواتهم - الضئيلة - إلا أن الفكرة التى كانت متمكنة من العامة هى أن شيئا لن يحدث ، وعندما بدأ الحصار فى مايو ١٩٩٢ لم يجد مواطنوا العاصمة شيئا .. حتى جميع الاحتياطات الاستراتيجية من سلع وأموال وصكوك وغيرها كانت قد اختفت مع اختفاء صرب المدينة .. وما حدث فى سراييفو حدث فى مدن كثيرة .. كانت الخطة هى تحطيم مقومات الدولة .. حتى إذا ما أعلنت كان الفشل حليفها إلى زمن طويل .. وما لم يتمكن صرب البوسنة من تحطيمه هو إرادة البوشناق فى أن تكون لهم دولتهم .. وهى الدولة التى شارك فيها الكروات بحكم مصيرهما المشترك ..

وإذا فالبوسنة قد أثبتت على مدى سنوات الحرب وما بعدها أنها يمكن أن تصبح دولة جيدة بمقوماتها التى تملكها بالفعل .. إلا أن هناك أهدافا يتعين

تحقيقها حتى تقف من جديد على قدميها .. ولنقل إن هناك أشواكا لا تزال تدمى
أقدامها يتعين نزعها حتى يمكن أن تلحق بالركب الذى فاتها طوال سنوات
الحرب ..

وفى اعتقادى أن أهم الأهداف التى يتعين أن تتركز عليها جهود المجتمع
الدولى والبوسنويين أنفسهم تتلخص فى ست نقاط رئيسية هى : الاقتصاد
باعتباره العمود الفقرى فى وضع أى دولة على خريطة النشاط الدولى فى
عصر تتسارع خطواته وتضيق حدوده التجارية والاقتصادية وتوفير المناخ
المناسب للعمل والأمان والأمن اللازمين لإحياء الاقتصاد ، ومن بين ذلك
إدراك أهمية اكتشاف الأمراض الاجتماعية التى سببتها الحرب والبحث عن
السبل الكفيلة بمعالجتها مع إدراك أن مجتمع يتمتع بالصحة البدنية والنفسية هو
مجتمع مؤهل لدخول عالم جديد يكاد يصل إلى حد الاندماج ، وهو عالم بالقطع
لن يرضى بدخول غير الأصحاء فيه ، ويضاف إلى ذلك القضاء على الألغام
 وإعادة النظر فى النظام الحاكم وإصلاح الهياكل السياسية بإعتبار أن حكومة
واعية ومترابطة ومنسجمة هى أساس نجاح الدولة فى إدارة دفة السفينة فى هذا
العالم المتغير .. عودة اللاجئين واعتقال مجرمى الحرب . وفى هذا الفصل
نتناول ببعض التفصيل تلك المشكلات والآفاق المستقبلية لتحقيق المعادلة
الصعبة فى إمكان حلها ..

١ - بدءا من تحت الصفر

فى بدايات شهر يوليو من عام ١٩٩٩ كان الصيف قد حل أخيرا فى سراييفو .. وبعد اعدادات مضية كلفت البوسنة التى كانت تحاول أن تتعافى اقتصاديا أكثر من خمسة ملايين مارك ألماني .. بدأ أكبر زعماء العالم فى الوصول إلى المدينة التى كانت تستعد لأكبر حدث فى تاريخها منذ استضافة دورة الألعاب الشتوية الاولمبية .. كان الحدث هو أول مؤتمر قمة أوربي يستهدف إعادة التوازن الاقتصادى والسياسى والاجتماعى لدول البلقان .. والذى تم اختيار قاعات استاد زيترا المغطاة لانعقاد المؤتمر فيها .. وعلى مدى شهر قبل هذا التاريخ كان الجميع يتساءلون . ماقيمة هذا الحدث الكبير ؟ ماذا ستستفيد البوسنة منه بالاضافة إلى وضعها مرة أخرى وربما أخيرة فى بؤرة الأحداث .. وتحدث الجميع وتناقشوا وهم يرون ملايين الماركات تتفق على تنظيف المدينة وتخلق عشرات الوظائف التى لن تزيد مدتها عن أيام قليلة من أجل مؤتمر اليوم الواحد .

فى صباح يوم المؤتمر بدأ توافد كبار الزعماء المشاركين فى الوصول .. وفى نفس اليوم بدت سراييفو كمدينة أشباح .. لم يكن فى شوارعها سوى بضعة أشخاص أما الغالبية فقد ذهبوا إلى الشواطئ الكرواثية لاستغلال عطلة إجبارية بسبب المؤتمر .. ولم يستقبل الزعماء فى شوارع المدينة سوى الصمت ومئات من قوات حفظ السلام والشرطة الدولية التى لم تكن تعطى سوى انطبعا بأن انقلابا عسكريا وقع قبل لحظات .. ولم يكن يشق سكون المدينة سوى صفارات الدراجات البخارية التى كانت تسبق مواكب الزعماء .. وفى الواقع لم تكن بحاجة إلى تلك الصفارات .. وكان هذا هو رد الفعل الأول والأخير من سكان البوسنة تجاه ما سمي بمؤتمر الآمال العظيمة .

إنهم يكذبون !!

وعلى مدى نحو ساعتين هي عمر المؤتمر قام المئات من الصحفيين والإعلاميين بأقلامهم وكاميراتهم بتسجيل واحدة من أكبر مسرحيات القرن العشرين وأتيح لكل رئيس دولة أو رئيس حكومة فرصة الكذب لمدة خمس دقائق ، وأتيح للرئيس الأمريكي بيل كلينتون فترة مضاعفة وأتيح لبعض رؤساء المنطقة أن يحلموا في يقظتهم لنفس المدة .. وعندما حان دور الرئيس على عزت بيجوفيتش قال : " إن البوسنة تحتاج إلى أفعال .. لقد شبت البوسنة من الكلام .. وما تحتاجه البوسنة تحتاجه كل دول البلقان " . وعندما انتهى الحفل الإعلامي لم تحصل البوسنة وكل دول البلقان إلا على أرقام هزيلة ، وعلى كلام كثير ، وآمال عريضة عظام . وعندما عاد سكان سراييفو من الشواطئ الكرواتية قالوا كنا نعلم ولذلك لم نضع وقتنا في الترحيب بهم .

في ذلك المؤتمر أقر زعماء أوروبا - وروسيا - خطة وصفت بانها "مارشال جديدة " للبلقان .. كانت تقضى بإفناق خمسة مليارات دولار على مدى السنوات الخمس من عام ٢٠٠٠ إلى عام ٢٠٠٤ لإعادة التوازن الاقتصادي والسياسي لتسع دول بلقانية هي البوسنة وكرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا وألبانيا وبلغاريا ورومانيا والمجر إلى جانب صربيا والجبل الأسود - بعد ابتعاد ميلوسيفيتش عن السلطة - ولم تشمل الخطة اليونان بالطبع لأنها دولة عضو في الاتحاد الأوربي بالفعل .

وعلى الرغم من أن الميزانية المقترحة لخطة مارشال البلقانية كانت تبدو ضخمة للوهلة الأولى إلا أنها كانت تتعارض بشكل سافر مع ما جرى في البوسنة على مدى أربعة أعوام من الحرب ، فقد خرجت باقتصاد كارثة دمر ٨٠ في المائة من بنيتها الأساسية بما في ذلك البنية الأساسية الصناعية ، ومع

ماجرى على مدى أربعة أشهر فى يوغسلافيا التى دمر جانب لابس به من اقتصادها الثقيل ولاسيما محطات الطاقة والصناعات الثقيلة .

فى عام ١٩٩٨ قال رورى أوسوليفان ممثل البنك الدولى فى البوسنة "أننا لا يجب أن نخفى الحقيقة ، إن مجموع المساعدات التى قدمت وستقدم إلى البوسنة منذ عام ٩٦ وحتى عام ٢٠٠١ لن تزيد عن خمسة مليارات دولار - ومائة مليون دولار - وأن ما تحتاجه البوسنة لإعادة اقتصادها إلى الحد الذى كان عليه قبل بداية الحرب عام ١٩٩٢ هو ٢٤ مليارا !!!! " .

ولا شك أن زعماء أوروبا والولايات المتحدة وروسيا عندما جاءوا إلى سراييفو فى مظاهرة يوليو ١٩٩٩ كانوا يدركون تماما تلك الحقيقة المؤلمة ، وعندما أجمعوا بشكل غريب على أن الخطة الأوروبية الجديدة سوف تعيد إلى دول البلقان إلى مستوى دول أوروبا الغربية فقد كانوا يعلمون أيضا أنهم يكذبون ، وكان البوسنيون يعرفون ذلك أيضا .

ولاشك أن هناك من كان يعلم أن الأمر لم يكن سوى مشهد مثير من مسرحية دولية تم الإعداد لها جيدا .. فقد ثارت أصوات من داخل الدوائر التى تورطت فى إعلان مشروع ما سمي باعادة الاستقرار إلى البلقان للمطالبة بإبداء قدر من المصداقية أمام دول المنطقة وأمام العالم ، ولذلك وقبل أن يمضى عام واحد على إنتهاء مؤتمر سراييفو وفى أبريل من عام ٢٠٠٠ عاد خافيير سولانا - الذى لم يشارك شخصيا فى المؤتمر - إلى سراييفو بعد أن ترك منصبه كأمين عام لحلف الناتو وأصبح مفوضا ساميا لشئون السياسات الأجنبية والأمنية المشتركة بالإتحاد الأوروبى وكان بصحبته هذه المرة كريس باتن مفوض الإتحاد الأوروبى وهناك أكد مجددا " أنه يتعين على السلطات فى البوسنة الإسراع فى إجراءات الإصلاحات الاقتصادية ، والعمل على عودة

اللاجئين كشرط مسبق لتحسين العلاقات بين البوسنة والاتحاد الأوربي " .. وقال " إن زيارته هذه للبوسنة تحمل رسالة واحدة لجميع المسؤولين فيها وللشعب أيضا .. وهى أن اقتراب البوسنة من أوروبا سوف يعتمد على مدى تقدم الإصلاحات .. أما كريس باتن فقال " إن الاتحاد الأوربي سوف يظل المساهم الرئيسى فى المساعدات المالية إلى البوسنة .. إلا أن حسن نوايا الدول المانحة سوف يعتمد على الأسلوب الذى تستخدم فيه البوسنة هذه المساعدات على أرض الواقع . وأن الإتحاد الأوربي سوف يقدم على مدى العام ٢٠٠٠ مائة مليون يورو - أى أقل قليلا من مائة مليون دولار - وهو ما يزيد عما يمنح للهند والصين معا !!!! وهو ما يعطى فكرة واضحة عن أهمية البوسنة للاتحاد الأوربي " ..

وفى الشهر التالى - مايو ٢٠٠٠ - تعرضت المفوضية الأوربية لانتقادات عنيفة بسبب خطتها - الطموحة - لإنفاق نحو خمسة مليارات دولار على ما يسمى بخطة إعادة بناء البلقان ، وهى الخطة التى كان مقررا لها أن تبدأ مع بداية العام نفسه ، ولم يكن الانتقاد بسبب قلة هذه المبالغ وإنما لأن الحكومات التى تمثل دول الاتحاد الأوربي كانت قد بدأت فيما يبدو فى التراجع عن تعهداتها فى مؤتمر قمة سراييفو وخاصة فيما يتعلق بالبوسنة لأن الأخيرة لم تنته بعد من الإصلاحات المطلوبة وهكذا كان الأوربيون يضعون العربة أمام الحصان مرة أخرى .

وعندما عقد أول مؤتمر للدول المانحة للبوسنة فى عام ١٩٩٦ حيث تم الاتفاق على أن هذا البلد سيتلقى على مدى خمس سنوات ٥,١ مليار دولار أمريكى جاء فى إعلانه الأخير أن الدول المانحة تأمل أن تستخدم الحكومات فى البوسنة والهرسك هذه المبالغ - الموعودة - من أجل التغييرات الهيكلية

الضرورية للتحول من المرحلة الشيوعية إلى المرحلة الرأسمالية " . ولكن هذا الهدف الكبير لم يكن فى مقدرة البوسنة أو فى مقدرة حكومتها المركزية أو حكومتى الكيانين .. فالمبالغ التى وعد بها المجتمع الدولى كانت تكفى لإجراء هذا التحول لو لم تكن البوسنة قد شهدت حربا أدت كما قلت إلى تدمير ٨٠ فى المائة من اقتصادها وتعطيل الباقي ، مما يعنى أنه كان عليها أن تبدأ من الصفر إن لم يكن أدنى من ذلك .. فقد كان الهدف من خطة الإعمار والتحول هو تمهيد الطريق أمام الاستثمارات الأجنبية فى البلاد ، ولكن هذه العملية فشلت - وبكل صراحة - فشلا ذريعا لعوامل كثيرة ، وقد فشلت كثير من الشركات الأجنبية فى تثبيت وجودها بينما أغلقت العديد من الشركات المحلية أبوابها قبل أن تحنل بعيد ميلادها الأول .. فمن ناحية كانت معظم الشركات المحلية أو الأجنبية تقوم بتسويق سلع تم إنتاجها خارج البوسنة لأن من حاولوا إنتاج مثلها فى المصانع الصغيرة الباقية ، مثلما حدث فى مصنع الملابس الضخم فى ترافنيك ، قد فشلوا فى تسويقها نظرا للمنافسة الضخمة .. لقد كانت هناك مشكلات التحويلات البنكية والضرائب الجمركية التى لا تعادلها نسبة فى أى دولة أخرى فى العالم سوى فى كرواتيا - حتى ذلك الوقت - حتى قوانين الخصخصة نفسها والتى كان لابد أن تسمح بتملك الأجانب العقارات ومؤسساتها فى الداخل كانت قد تأخرت كثيرا ثم نظم المراقبة المالية التى لا شك أنها كانت تنتمى هى والنظام المالى بأسره إلى الفترة الشيوعية .. وكان هناك بشكل يمثل خطرا كبيرا ، الفساد .

ولا شك أن قضية الاقتصاد فى البوسنة إنما تعنى قضية النمو ، وفى دولة لايزيد معدل النمو فيها وفقا لإحصائيات المؤسسات المالية الدولية لا يزيد عن واحد فى المائة فى حين أن المطلوب هو زيادة معدل النمو إلى ٣٩ فى المائة ،

ولا تزيد الاستثمارات الصناعية فيها عن ٢ في المائة من مجموع الإنفاق العام في حين أن المطلوب هو رفع قيمة هذه الاستثمارات إلى ٤٠ في المائة فإن الأمر يتطلب وقفة غير طويلة إلا أنها فاحصة لبحث الأخطاء التي أدت ولا تزال تؤدي إلى تعطيل الإسراع في عملية النمو . غير أنه من المؤكد أن المشكلات الاقتصادية في البوسنة متصلة ومتقاطعة ومتشابكة إلى أقصى الحدود ، وفي الواقع لا يمكن حل كل منها بشكل فردي ، فإن كان يتعين حل هذه المشكلات فينبغي حلها في إطار شامل وموحد . وعلى الرغم من الخطط المحكمة التي تم إعدادها إلا أن المناخ الاقتصادي وخاصة المسؤولين عنه لم يكن ولم يكونوا مؤهلين لمثل هذه الخطط .. وهنا فإننا نلقى باللوم وبشكل أساسي على السياسة والسياسيين كما سيحدث في كل المشكلات الأخرى التي تعيق تقدم البوسنة على النحو الذي سنراه في كل أنحاء هذا الفصل .

من بين السلطات التي منحها المجتمع الدولي " للممثل الدولي في البوسنة " الذي تحول إلى "المفوض السامي " فيما بعد هي حق فرض القوانين بصفة مؤقتة إذا لم تتمكن الأطراف الثلاثة من الاتفاق على صيغة هذه القوانين .. وكأنما كان المشرعون الدوليون يدركون أن هذا البند في مهام الممثل الدولي سيكون الأهم .. فعلى مدى عامي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ لم يكن بيد الممثل الدولي المفوض السامي في البوسنة سوى فرض نحو ١٣ قانونا يتعلق معظمها بنواح اقتصادية بحتة مثل الاتفاق على شكل العملة الموحدة " المارك التحويلي " الذي حل محل الدينار اليوغسلافي القديم والدينار البوسنوي والكونا الكرواتية ، إلى قوانين الضرائب وأخرى تتعلق برموز الدولة مثل العلم والنشيد الوطني وشعار الدولة وغيرها .. وقد فرضت هذه القوانين ، وهي قوانين معمول بها حتى الآن ، لأن الجميع كانوا يفتقدون إلى الإرادة السياسية وكانت الأفكار القومية

القديمة تتحكم فى قراراتهم حتى أن البرلمان المركزى وعلى مدى مناقشات وجلسات طويلة فشل فى التوصل يوما إلى حل وسط ينبع من إتفاق ، فالإختلاف كان هو الأمر السائد ، وحتى تلك الأمور التى كان يمكن الإتفاق عليها وهى أمور شكلية على الرغم من خطورتها كإختيار شكل عملة الدولة وعلمها إلا أن الجميع تركوا بمحض إرادتهم للمفوض السامى حق فرض الشكل الذى يراه المجتمع الدولى ، وهكذا جاء علم الدولة وشعاراتها وعملتها خاليا من أى خلفية وطنية بغض النظر عن صور الشخصيات التى طبعت على العملات الورقية ..

فى ظل هذا المناخ السياسى الذى يتحكم فيه مجلس دولة لا يملك الصلاحيات الكافية ، وفى ظل مجلس وزراء لا يملك نفس الصلاحيات ووزراء يقل عددهم عن أصابع اليد الواحدة ، وفى ظل الخلاف العميق بين الإتجاهات والمصالح تضيق قضايا الاقتصاد ويظل العنصر السياسى عقبة كؤود أمام النمو .

إن نظرة سريعة على الميزان التجارى بين البوسنة وأكبر شركائها التجاريين - كرواتيا - يشير إلى أن الميزان التجارى بين البلدين يميل لصالح كرواتيا بمعدل ٦ إلى واحد وهو ما يشير إلى الهيمنة الاقتصادية التى تفرضها كرواتيا على البوسنة .. وعلى الرغم من كل الاتفاقيات التى وقعت فى أواخر عام ١٩٩٨ وخلال عام ١٩٩٩ بشأن تعديل هذه الموازين إلا أن كرواتيا لا تزال تمثل - بهيمنتها وتحكمها فى طرق المواصلات إلى البوسنة - عقبة أمام التنمية . وفى اعتقادى أن الاتفاق الخاص بمنح البوسنة ميناء كرواتيا هو ميناء بلوتشا على ساحل بحر الأدرياتيك ، بدلا من المنفذ البحرى الوحيد للبوسنة على هذا البحر وهو مدينة نايوم ، ربما يحل جانبا كبيرا من مشكلة

الاقتصاد البوسنى إذا ما صدقت نوايا كرواتيا فى العمل ببنود اتفاق تاجير الميناء ، وهو اتفاق اتخذته كرواتيا كورقة ضغط لسنوات طويلة ضد البوسنة .

التحول الاقتصادى ونظرية المؤامرة

لا شك أن التحول الذى تشهده البوسنة هو تحول صعب ، والتحول الاقتصادى هو عصب هذه الحركة التاريخية كلها . ويتعين الاعتراف أن البوسنة التى تملك جميع العناصر الفنية والثروات التى تؤهلها إلى إحداث تحول سريع وسهل تفتقد أيضا إلى التوزيع الجيد للثروة .. وأحدث بشكل خاص عن عملية الخصخصة أو التحول من اقتصاد الدولة إلى الاقتصاد الحر وبيع ممتلكات القطاع العام إلى القطاع الخاص فى الاتحاد المسلم الكرواتى .. فما يحدث بالفعل فى البوسنة من بيع لممتلكات الدولة سيسهم إلى حد ما فى إعادة تكريس الفكر الطائفى .. فمن المعروف أن البوشناق أستخدموا طوال تاريخ الدولة اليوغسلافية كعمال مهرة .. أو فى وظائف ادارية غير هامة بينما كان الكروات هم افضل التجار والاقتصاديين .. وهم وفقا لتجربتى سواء فى كرواتيا نفسها أو فى المناطق الكرواتية من البوسنة يعرفون كيف يستثمرون أموالهم وفى أى المشروعات .. وقد استمر هذا النمط من التقسيم حتى بعد استقلال البوسنة وخاصة فى السنوات التى بدأت فيها عمليات التحول وبيع القطاع الخاص ..

ولست أوافق مع نظرية المؤامرة على البوشناق .. ولكنى أؤيد بشدة نظرية المصالح .. ووفقا لهذه النظرية فقد وجد كروات البوسنة فى رجال الأعمال فى كرواتيا سندا قويا مكنهم من البدء مبكرا فى السيطرة على المصادر الاقتصادية فى البوسنة .. وسواء كان ذلك بهدف السيطرة على البوسنة فى النهاية أو أنه مجرد استثمار اقتصادى فقد تمكنوا من الحصول على أفضل المشروعات مثل

مشروع مجمع الألومنيوم الكبير في موستار وغيره ، في حين أن أيًا من الاقتصاديين البوشناق لم يتمكن وحتى الآن من السيطرة على أي من المشروعات الهامة .. ويرجع هذا إلى سبب رئيسي وهو أن المساندة الإسلامية للبوشناق تركزت طوال الوقت على المساعدات الإنسانية وإعادة إعمار المساجد والمدارس الدينية أو على الأكثر إعادة إعمار المساكن المهدمة .. والاستثناء الوحيد الذكي والهام الذي خرج عن نطاق هذه المساهمات غير الفعالة - وبجهود مضيئة من حارث سيلادجيتش رئيس الوزراء المناوب - هو تدخل الكويت للاستثمار في مشروع مجمع الحديد والصلب الضخم في زينيتسا .. وفي اعتقادي أن محاولات الدول الإسلامية فيما عدا تركيا - على تأكيد الهوية الإسلامية للبوشناق ورفع مآذن المساجد من جديد في وسط أوروبا - هي محاولات جيدة إلا أنه لن يعادلها ولن يؤكد حق البوشناق في الحياة بطريقة كريمة سوى مساعدتهم على امتلاك وسائل الإنتاج والاقتصاد بحيث لا يضعفوا مرة أخرى .. ومن ناحية أخرى يتطلب تحقيق هذا الهدف من جانب البوشناق أن يتخلوا عن أفكارهم الاقتصادية القديمة ، وبشكل خاص تخليهم عن فكرة الحصول على أقصى ميزة من الاستثمارات الأجنبية وبشكل محدد تلك القادمة من دول إسلامية .. فقد خسروا وقتا ثميناً في مفاوضات عقيمة طوال عامي ١٩٩٨ و ١٩٩٩ مع مستثمرين جاءوا من دول عربية وإسلامية من أجل تحقيق هذا التوازن في الاقتصاد داخل الاتحاد المسلم الكرواتي .. وما ينطبق على الاتحاد ينطبق أيضا على الكيان الصربي .. ومرة أخرى لن يتمكن البوسنيون - بوشناق كانوا أم كروات أم صرب - أن يحققوا هدف التحول دون أن يتحرروا تماما من محاولات تكريس القومية عن طريق السيطرة على الاقتصاد فهذه في النهاية عملية مشتركة تحتاج إلى أيدي الجميع .

فساد ومفسدون

لم يكن غريبا على دولة وليدة مثل البوسنة ، خرجت لتوها من حرب مدمرة وباقتصاد منهار وبأطماع تنهش جوانبها من الشمال والجنوب وبتحول اقتصادى جذرى من المرحلة الشيوعية إلى المرحلة الرأسمالية أن تتعرض لموجة من الفساد وإساءة استخدام السلطة وتفشى الرشوة والوساطة وغيرها .. لقد تعرضت وتعرض دول العالم كلها إلى مثل تلك الحالات .. وفى البوسنة كان الأمر واضحا .. فالدولة صغيرة ودخلها محدود .. وهكذا ظهرت بوضوح آثار الثراء غير المشروع على الكثيرين الذين لم يستطيعوا إخفاء جرائمهم وفسادهم .. وظهرت طبقة جديدة من أثرياء الحرب الذين استخدموا كل الطرق غير المشروعة فى الاستفادة من الأموال التى حصلوا عليها أثناء الحرب بالمتاجرة فى كل شىء بدءاً من السجائر وانتهاءً بالسلاح ..

ومنذ منتصف عام ١٩٩٨ كانت الشكوى المرة التى كان الجميع يرددونها تحدث عن انتشار الفساد الذى بدأت رائحته تزكم الأنوف أفرادا ومؤسسات ومحليين وأجانب .. كان الجميع يهمسون حتى ذلك الوقت عندما بدأت وسائل الإعلام تنشر شيئا فشيئا بعض القضايا والتلميحات التى تحولت بعد حين إلى حملة قومية .. كان الفساد يخلق أول ما يخلق الاقتصاد البوسنى .. وفى النهاية اضطرت الحكومة المركزية ثم حكومة الاتحاد المسلم الكرواتى أخيرا إلى الاعتراف رسميا بوجود عمليات فساد ، واضطرت فى الوقت نفسه لتقديم بعض الضحايا .. وهنا فقط أمكن حصار الفساد لكن لم - ولن - يتم القضاء عليه .

كان السبب الرئيسى وراء انتشار الفساد هو النظام المالى والقوانين الاقتصادية العتيقة التى كانت مطبقة حتى ذلك الحين ، وحتى الجديد منها كان

لا يزال يطبق بروح الفكر القديم .. هذا النظام كان يشرف عليه صغار المسؤولين في الحكومة الذين لم يكن أفضلهم يحصل سوى على مرتب نحو مائتي مارك ألماني في ظل تضخم يحتاج إلى عدة أضعاف هذا المبلغ لممارسة حياة اجتماعية عادية أو أقل من ذلك .. وقد استغل الكثيرون من الأثرياء الجدد هذه الناحية الضعيفة من النظام الاقتصادي البوسنوي .. ومن خلال تلك الناحية جرت عمليات التهرب من الضرائب والتهريب وانتشرت الرشوة وظهرت جماعات احتكارية تتولى تهريب السلع الاستراتيجية أو استيرادها دون دفع أى ضرائب ، مما كان يضيع على الاتحاد الفيدرالي وحده أكثر من ثمانمائة مليون مارك - أى ما يوازى ميزانيته في عام كامل - ضرائب جمركية فقط .. وفي ظل نشوء جماعات مافيا منظمة ضاع الكثير من أراضي الدولة ومؤسساتها وعقاراتها .. لقد طالت رائحة الفساد الكثيرين .. حتى أن مسئولين كبار في الدولة ، وعلى رأسهم الرئيس على عزت بيجوفيتش ، وجهت إليهم اتهامات بالفساد .. وعند هذا الحد كان ينبغي أن يدرك الجميع أن هذه التهمة كانت تستخدم في هدم رموز الدولة .. وعندما نشرت صحيفة نيويورك تايمز تقريراً عن الفساد تضمن بعض الأسماء التي تمثل رموز الدولة ومن بينها على عزت بيجوفيتش .. كان على الرجل أن يأمر بتشكيل لجنة دولية للتحقيق في هذه الاتهامات بل إن الكونجرس الأمريكي قام بتشكيل لجنة للتحقيق وقام المفوض السامى بتشكيل لجنة مماثلة وفي النهاية اكتشف الجميع الخدعة .. وبرأت ساحة الرجل ..

لقد استخدم الاتهام بالفساد سلاحاً ضد جانب واحد من الأطراف الثلاثة في البوسنة في محاولة لإثبات أن هذا الجانب لا يمكن الاعتماد به ولا بقدرته على إدارة الدولة أو حتى المشاركة في إدارتها .. وفي النهاية خرجت القيادات البوسنوية من الأزمة .. وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من قضايا الفساد قد تم الكشف عنه إلا أن إثارة القضية كان له ردود فعل متعددة وعلى جميع

المستويات وكان له ضحايا له ، وأبرز ضحايا هو نائب وزير الداخلية الاتحادى - بوزو ليوتار - وهو من كروات البوسنة - وتوفى بعد أيام من انفجار قنبلة فى سيارته بالقرب من منزله فى وسط سراييفو فى يونيو ١٩٩٩ وكان مسئولا عن ملف مكافحة قضايا الفساد فى الاتحاد .

وبدءا من عام ٢٠٠٠ أصبح يتعين على البوسنة أن تواجه الواقع .. ففى نهاية هذا العام تنتهى فترة السماح التى حددتها الدول المانحة للبوسنة .. ففى مايو من العام نفسه عقد آخر اجتماع لهذه الدول ولم يعد يتبقى للبوسنة سوى استغلال اخر دولار من المنح السابقة .. ولذلك يتعين علينا قبل أن نترك هذا الجزء أن نؤكد من جديد أنه إذا ما ارادت البوسنة والهرسك أن تقف مرة أخرى على قدميها - بعد أن انتهى بالفعل دور الدول المانحة - فليس أمامها إلا خيار واحد يعتمد على قاعدتين أساسيتين ، وهذا الخيار الوحيد هو أن تستكمل مسيرتها الاقتصادية ذاتيا .. والقاعدة الاولى لهذا الخيار هو قوتها البشرية .. وهى قوة لا شك جيدة بشرط أن تتخلى هذه القوة عن التعقيدات السياسية الطائفية والبيروقراطية .. أما القاعدة الثانية فهى منح المزيد من الدعم للقطاع الخاص المستثمر والوطنى .. والاقتداء بتجارب الدول الأخرى فى التحول الاقتصادى وبشكل خاص بولندا ومصر وسلوفاكيا .. وفى كل الاحوال فإن السياسيين فى البوسنة والذين لا يزالوا يفتقرون إلى الشجاعة ويتمسكون وبحرص على مصالح قومية ذات طابع ضيق عليهم ، الآن أن يخرجوا إلى الواقع الذى يدور حولهم وهو واقع يؤكد أنه لا مخرج للبوسنة سوى باقتصاد واحد وبفكر واحد .. وبأيدي الجميع .

٢ - الألغام ومفقودون وضحايا

فى أثناء الحرب تكون عملية زرع الألغام وسيلة لإعاقة تقدم العدو عن اختراق صفوف جيش ما .. وعندما تنتهى الحرب تكون تلك الألغام نفسها سببا فى إعاقة البلاد عن التنمية والتقدم ..

حدث ذلك فى بقاع مختلفة من العالم .. وعلى الرغم أنه ومنذ الثمانينات من القرن الماضى تقريبا تقلص استخدام الألغام فى الحروب وخاصة فى آسيا وأفريقيا - باستثناء الحرب الأفغانية والحرب العراقية الإيرانية - وحالات متفرقة فى أفريقيا مثل رواندا وأريتريا - إلا أن حرب البوسنة وهى أعظم حرب شهدتها أوربا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية - وبغض النظر عن الحملة الجوية الغربية ضد صربيا فى عام ١٩٩٩ - كانت سببا لعودة تلك الشياطين المدفونة تحت الارض وبأعداد ضخمة .

والغريب أنه رغم مرور أكثر من خمس سنوات على حلول السلام فى البوسنة فإن مشكلة الألغام لا تزال تشكل أحد أهم العوائق أمام التنمية وعودة اللاجئين ، بل وتعوق عمليات البحث عن المفقودين الذين يصل عددهم إلى نحو عشرين ألفا وفقا لتقديرات اللجنة الرسمية للبحث عن المفقودين فى البوسنة والذين يرقدون فى سلام فى مقابر جماعية فى أماكن بعضها معروف والآخر مجهول تحوطه الألغام لحراستها أو ربما لمنع من يحاول الاقتراب منها لاكتشافها وبالتالي اكتشاف جريمة جديدة وقعت هنا أو هناك .

ولم يكن من زرعوا الألغام فى أرض البوسنة - أيا من كانوا - يعتقدون عندما زرعوها - أنهم يزرعون الأشواك التى ستدمى ولسنوات طويلة أقدامهم وأيديهم وربما أقدام وأيدي أبنائهم وأحفادهم ، وأن أول ضحاياها سيكونون هم الأبناء والأحفاد ، فقد أشار الخبراء إلى أن البوسنة تحتاج إلى نحو عشرين عاما

قادمة لتتخلص من آخر لغم فى أرضها ، هذا إذا لم يتوقف العمل على مدى هذه السنوات كلها .

المأساة بالأرقام

تبلغ مساحة البوسنة واحد وخمسون ألف وستمائة كيلو متر مربع .. من بين المساحة قدر مركز مكافحة الألغام التابع للأمم المتحدة فى البوسنة UN MINE ACTION CENTER والمعروف اختصارا بإسم UNMAC أنه من بين هذه المساحة يوجد نحو ثلاثمائة كيلو متر مربع تضم حقول ألغام بشكل مؤكد ، وأن هناك نحو مائتى كيلو متر أخرى يشتبه فى أنها تضم حقول ألغام بنسبة أقل ، وأن معظم هذه الخمسمائة كيلو متر تقع على خطوط الفصل الحالية بين الكيانين .. أو تلك المناطق التى كانت تشكل يوما خطوط القتال الأولى بين الجانبين المتحاربين .

ويقدر عدد الألغام المزروعة فى أراضي البوسنة بكيانيتها وفقا لتقديرات الـ UNMAC بنحو ثلاثة ملايين لغم ، وهناك تقديرات أقل تتراوح بين مليونين ومليون ونصف مليون لغم تنتثر فى أكثر من ١٩ ألف حقل ألغام وحتى شهر مارس من عام ٢٠٠٠ لم تكن قوات الأمم المتحدة أو قوات الناتو أو المنظمات التطوعية أو حتى المؤسسات الحكومية والخاصة - بعد أن دخلت مؤسسات خاصة إلى هذا النشاط - قد استطاعت على مدى السنوات السبع الماضية من أن تقلل حجم هذا الخطر الهائل إلا بقدر قليل للغاية لا تزيد نسبته عن واحد فى المائة ..

وشأنها شأن جميع المشكلات التى تواجه البوسنة فإن العائق الرئيس أمام المشكلة يظل هو التوجهات السياسية المختلفة فى كل من الكيانين .

عقب انتهاء الحرب وفي بدايات عام ١٩٩٦ تم انشاء أول مؤسسة بوسنية رسمية للبحث عن الألغام وإزالتها ، إلا أن هذه المؤسسة وعلى مدى عام كامل تقريباً فشلت في تحقيق أى من أهدافها ، وهى العمل على نزع الألغام فى كل أراضى البوسنة .. وأعاق السياسيون عملها . ونتيجة لذلك انهارت تلك المؤسسة واختفت .. وفى فبراير عام ١٩٩٧ تم إنشاء اللجنة الوطنية لإزالة الألغام NATIONAL DEMINING COMMISSON والتي عرفت اختصاراً باسم NDC وبدورها لم تتمكن هذه اللجنة من أن تبدأ نشاطها - فى كل أنحاء البوسنة - سوى فى نوفمبر من العام نفسه ، وتم وضع نشاطها فى إطار عمل مجلس الوزراء المركزى وهو ما كان كفيلاً بالقضاء عليها .. فبعد عدة أشهر من عملها ورغم تعاونها الوثيق مع مركز الأمم المتحدة إلا أنها لم تقم بعمل يذكر نتيجة لإختلاف الآراء داخل المجلس فانهارت من تلقاء نفسها .

لا شك أن خمسمائة كيلو متر مربع من أراضى البوسنة - صغيرة المساحة - ملوثة بالألغام - إنما تشكل خطراً بالغاً على هذه الدولة الصغيرة .. فعلى الرغم من أن هناك حقول ألغام تبلغ مساحتها عشرات أضعاف مساحة البوسنة نفسها تنتشر فى صحراء مصر الغربية والشرقية وسيناء وغيرها من آثار الحرب العالمية الثانية والحروب مع إسرائيل إلا أن هذه الألغام لم تؤثر بشكل مباشر فى سير الاقتصاد المصرى ونموه نظراً لأن هذه الألغام تقع بعيداً عن مناطق العمران وعن المراكز الزراعية والصناعية وإن كانت تشكل عائقاً أمام مد هذه المراكز إلى المناطق الملوثة .. ولكن الأمر يختلف فى البوسنة .. معظم الاراضى الملوثة يقع إما فى مناطق سكنية أو فى المنازل نفسها أو فى المناطق الصناعية والزراعية والحدائق والغابات .. وبمعنى آخر يقع فى أكثر المناطق ازدحاماً وأنفعها للاقتصاد .

وعلى مدى سنوات أربع قضيت معظمها فى البوسنة وخلال وجودى فى سراييفو لم يكن يمر يوم واحد دون أن نسمع انفجار لغم .. وما لم يكن الانفجار فى إطار عملية تطهير فهو يعنى ضحايا ومعظمهم من الأطفال .. وربما كانت المفاجأة الكبرى هى فى مكان وضع اللغم ثم انفجاره من بعد .. وبغض النظر عما وجد من الغام فى أحياء سراييفو مثل دوبرينيا وبوتيمير واليدجا باعتبارها كانت تشكل خط القتال الاول إلا أن أحداثا تتسم بالفعل بالغرابة كان يتم اكتشافها يوما بعد يوم ، وعلى سبيل المثال وفى أواخر عام ١٩٩٨ اكتشف أشخاص وبمحض الصدفة حقل ألغام كان يضم العديد منها على بعد أمتار قليلة من مبنى البرلمان البوسنى الذى كان يستخدم كمقر لاجتماعات مجلس الرئاسة ومجلس الحكومة المركزية وسط المدينة تماما . بل إن الحديقة الخلفية للمتحف الوطنى البوسنى - ويقع أيضاً وسط المدينة - والذى كان طوال ثلاث سنوات بعد انتهاء الحرب مقرا لاجتماعات المجلسين وكذلك البرلمان - حتى تلك الحديقة كانت مزروعة بالألغام - ولا زالت كذلك - وبمصادفة أخرى اكتشف بعض الأطفال لغما حيا فى حديقة تفصل بين المنزل الذى كنت أعيش فيه ومنزل آخر فى شارع تيتوفا فى حى تشنجتش فيلا .. وكان ذلك فى صيف عام ١٩٩٩ .

على الجبال المحيطة بسراييفو وفى حدائق المنازل المدمرة بل وداخل المنازل نفسها يرقد الموت ممثلا فى لغم وضعه من يعرف جيدا أن أطفالا ونساء سيعودون وسوف يستقبلهم الموت إن لم يأخذوا حذرهم قبل ذلك .

ولا شك أن عملية إزالة وتطهير الألغام هى عملية محفوفة بالمخاطر على الرغم من كل الوسائل الحديثة المستخدمة فى هذه العملية .. وأكثر من يتعرضون لمخاطرها هم خبراء إزالة الألغام ، وكثيرا ما تكون حياتهم هى الثمن الفادح الذى يدفعونه .. إلا أن الغريب فى عملية زرع الألغام وخاصة تلك

المضادة للأفراد لا تتسبب غالبا في موت من يوقعه حظه العاثر في أحدها ، فهو لا يخرج منها حيا أو ميتا بل معاقا ببطر ما .. وهذه هي غالبية الألغام في البوسنة . والمعاق أكثر ضرراً سواء في الحرب أو في السلام سواء لمجتمعه أو لأسرته .

وتقول الإحصائيات أن أربعين شخصاً يصابون شهريا في البوسنة نتيجة انفجار ألغام فيهم ، وأن عشرين في المائة منهم يلقون حتفهم نتيجة الإصابة وأن عشرين في المائة منهم من الأطفال وأن أربعين في المائة منهم يخرجون من أصابتهم باعاقة مستديمة وأن أكثر هؤلاء الضحايا من العائدين ، إن أكثر من ٨٠ انفجاراً يتم تسجيلها شهريا في البوسنة وفقا لإحصائيات UNMAC . وخمسين وفقا لإحصائيات اللجنة الدولية للصليب الأحمر .

ومنذ بدأت الحرب في البوسنة عام ١٩٩٣ راح خمسين جنديا دوليا - سواء من قوات الأمم المتحدة أو قوات الناتو - ضحية انفجار ألغام وأصيب في الفترة نفسها نحو مائتي جندي دولي ونحو مائة آخرين من الجنود من الكيانيين . أما المدنيين فليس هناك حصر كامل لهم وأن كان يعتقد أنهم يزيدون عن ثمانمائة شخص بين قتيل وجريح .

ما الذي يعوق إزالة الألغام ؟

منذ انتهاء الحرب وعلى مدى السنوات التالية لم تشارك القوات الدولية التي عملت في البوسنة خلال وبعد الحرب في عمليات إزالة الألغام إلا من المناطق التي كانت تشكل خطرا على القوات نفسها .. وعلى الرغم من تزايد النشاط في العامين الماضيين إلا أن هذا النشاط لا يزال محدودا بينما ينص اتفاق دايتون صراحة على أن " تقوم قوات IROR بتطهير وإزالة جميع الألغام

والمواد المتفجرة وغيرها في البوسنة فوراً " . ونتيجة لذلك فلم يتم حتى بدايات عام ١٩٩٩ سوى تطهير وإزالة الألغام من نحو ١٢ كيلو متراً مربعاً من المساحة المستهدفة (خمسمائة كيلو متر مربع) وتعود أسباب تأخر عمليات التطهير فضلاً عن الأسباب السياسية وتقاوس القوات الدولية إلى أسباب مالية وإدارية معقدة ففي بداية عمله في البوسنة أعلن مركز الأمم المتحدة UNMAC أنه بحاجة إلى ٣٨,٩ مليون دولار للبدء الجاد في عمليات التطهير لعام ١٩٩٧ وحده من بينها نحو سبعة ملايين دولار لإعداد الكوادر والفرق المحلية وتدريبها على عمليات إكتشاف الألغام وإزالتها على أن يتم انفاق المبلغ الباقي في عمليات التطهير نفسها ، إلا أن المركز لم يتمكن من الحصول على المبلغ كاملاً ، وما حدث في ذلك العام حدث في السنوات التالية له . وعلى الرغم من ذلك فقد بذلت حكومة كندا جهوداً منفردة من جانبها لتشجيع عمليات التطهير خاصة بعد انضمام البوسنة لمعاهدة حظر إنتاج ونشر الألغام .

وفي الوقت نفسه يجب الاعتراف بأن عملية تطهير الألغام نفسها هي عملية جديدة بالنسبة للبوسنة ، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم تشهد هذه البلاد أى تجارب على عمليات التطهير بشكل واسع وهي عمليات كان يحتكرها الجيش اليوغسلافي الاتحاد قبل الانفصال ولذلك افتقدت البوسنة إلى الخبرة اللازمة لمواجهة مثل هذه الكارثة وخاصة أنها كانت - ولا تزال - على نطاق واسع يصعب عليها التعامل معه بمفردها ودون الاستعانة بخبرات الآخرين خاصة وأن تقنيات إزالة الألغام على المستوى العالمي لا تزال تسير ببطء بالنظر إلى التقدم العلمى في المجالات العسكرية الأخرى .

وتشكل المعوقات الادارية جانباً آخر من مشكلة إزالة الألغام في البوسنة .. فالخلاف بين الكيانيين البوسنيين كان - على الأقل في المراحل

الأولى لعملية السلام - سببا في تعمد إخفاء البعض الخرائط التي تحدد مواقع الألغام بهدف تأخير عودة اللاجئين إلى المناطق المغمومة .. إلى جانب أن الموظفين - البيروقراطيين - الذين كانوا يتولون المناصب المتصلة بعملية التطهير مثل النقل والمواصلات والإسكان وغيرها بأفكارهم التقليدية لا يزالوا وبشكل واسع النطاق يسيطرون على هذه المناصب حتى الآن ، وعلى الرغم من أن هذا العامل قد يعد سياسيا في المقام الأول إلا أنه يعد عاملاً اجتماعياً أيضاً .. فهؤلاء الموظفين لا يزالوا يتعاملون مع المواقف التي تحتاج إلى قرارات سريعة بنفس العقلية البيروقراطية التي تحتاج إلى قرار من المناصب الأعلى في كل كبيرة وصغيرة لدرجة أن إحدى الأسر قضت شتاء كاملاً في العراق فوق أحد التلال المطلة على سراييفو لأن المسؤولين تكاسلوا عن الأمر بتفتيش المنزل الذي كانت تلك الأسرة تعيش فيه قبل الحرب للشك في أن الألغام كانت مزروعة بداخله ، وعندما قاموا أخيراً بالبحث عن تلك الألغام لم يعثروا على شيء .

وفي اعتقادي أن السبب الرئيسي وراء تعطيل عمليات إزالة الألغام في البوسنة ترجع بشكل أساسي إلى أن المؤسسات الدولية وجهت جانباً كبيراً من جهودها إلى عملية الإصلاح السياسي بهدف إعطاء البوسنة شرعية دولية مثل إجراء الانتخابات وتشكيل مؤسسات الدولة وغيرها .. وعلى الرغم من الأهمية القصوى لمثل هذه العملية إلا أنه من المؤكد أن توفير المناخ المناسب لعودة اللاجئين يعد عاملاً هاماً في إعادة الاستقرار في هذه البلاد ..

ومما لا شك فيه أن قضية الألغام في البوسنة ستظل قضية ساخنة لفترة طويلة قادمة باعتبارها إحدى القضايا الاقتصادية ، فالألغام تعوق عودة اللاجئين .. وتؤدي إلى زيادة عدد الضحايا يوماً بعد يوم وتتسبب في زيادة عدد

المعوقين يوماً بعد يوم وتعوق عودة مراكز صناعية وزراعية وتجارية كثيرة .. فضلاً عن أنها تمثل عنصراً هاماً من عناصر حساب المخاطرة وتزيد من نسبة مخاطر الحرب في البوسنة وهو ما يؤدي بدوره إلى إحجام الكثيرين عن الاستثمار هناك إذ أن عامل الأمن سيظل هو العنصر الحاسم في اقتصاد أى دولة .. وعندما تفتقد الدولة إلى الأمن والأمان فسيظل اقتصادها مهزوزاً .

٣ - مجتمع يبحث عن هوية

أربعة ملايين نسمة هم تعداد سكان البوسنة والهرسك .. ووفقا لآخر الإحصائيات السكانية التي أجريت قبل الحرب فإن ٤٢ فى المائة من سكانها هم من المسلمين - البوشناق - و ٣٦ فى المائة من الصرب و ١٨ فى المائة من الكروات والباقيين من قوميات أخرى من يهود ومجريين وسنق وألبان ويوغسلاف (أو الذين يرفضون الانتماء إلى إحدى القوميات السابقة) .. وعلى الرغم من محاولات الرئيس الراحل جوزيف بروس تيتو على مدى سنوات حكمه الطويلة فى محو الخلافات العرقية وتشكيل الهوية اليوغسلافية بين جميع أطراف الاتحاد الذى كان يجمع أيضا قوميات مقدونية ومجرية وسلوفينية وألبانية بل وتركية ومصرية - فى زعم يقول إن معظم الغجر فى كوسوفو هم من أصول مصرية - وغيرها .. إلا أن هذه المحاولات نجحت فقط أثناء حياته .. وبعد رحيله عادت الأمور إلى ما كانت عليه بل وازداد الخلاف العرقى عمقا .. وبعد الانفصال ورثت البوسنة أكثر هذا الخلاف العرقى .. فمسلمو البوسنة المتمسكون بانتمائهم الدينى كانوا موزعين أيضا بين هذا الانتماء وبين انتمائهم الجغرافى الاوروبى كما أن صرب البوسنة اصبحوا أكثر تمسكا بهويتهم الصربية وانتمائهم إلى الأرض الأم فى صربيا وفى الوقت نفسه كانوا يتطلعون إلى الشمال والغرب حيث أوروبا الحديثة أما كروات البوسنة فقد كان الأمر واضحا تماما لهم بهويتهم الكاثوليكية وهى عقيدة الأوربيين ومن ثم كان تطلعهم إلى أوروبا تاريخيا وجغرافيا أمراً مشروعاً ومنطقياً ..

ووفقا لهذه الخريطة المتشابكة من العرقيات والطموحات المختلفة ، كان من الصعب بل من المستحيل أن تتفق هذه الاتجاهات معا نحو تشكيل دولة موحدة دون النص صراحة على هوية كل من هذه القوميات ، وكذلك النص

على دور كل منها فى حكم هذه الدولة المختلطة .. وهنا حدث الاختلاف وتدخلت الأطماع لتفشل مشروع الدولة منذ البداية .. والواقع يقول أنه لولا إصرار البوشناق - وحدهم - على أن تكون هناك دولة مستقلة تضم جميع الأعراق لما وجدت هذه الدولة حتى الآن وكان أكثر السيناريوهات إحتمالاً هو انضمام الجانب الأكبر منها إلى صربيا على غرار ما حدث مع الجبل الاسود وانضمام جزء آخر لا يقل أهمية إلى كرواتيا . ومنح البوشناق قدر من الحكم الذاتى فى إقليم يتم تحديد حدوده مسبقا بين صربيا وكرواتيا . وهو سيناريو لم يتم بسبب إصرار البوشناق على أن تكون للبوسنة والهرسك هويتها المستقلة وكان ذلك هو سبب الحرب .. وقد كشف الكثير من أسرار محاولات التقسيم هذه فيما وصف بأنه يالطا مصغرة عدة مرات كان آخرها ما أكدته رئيس مقدونيا كليجروف من اجتماع تم بين الرئيس الصربى - وقتها - واليوغسلافى فيما بعد سلوبودان ميلوشيفيتش والرئيس الكرواى فرانيو تودجمان عام ١٩٩٣ فى منطقة على الحدود بين صربيا وكرواتيا لمناقشة خطة القضاء على حلم الدولة البوسنوية وتقسيم الأرض فيما بين البلدين .

وعلى الرغم من أن الحرب أسفرت فى النهاية عن ظهور الدولة الجديدة التى يعترف بها العالم يغطيها علم واحد وشعار واحد وحدود تؤكد سيادتها واستقلالها عن كل ماحولها إلا أن الأمر فى الواقع يختلف كثيرا ، فما زالت قضية البحث عن هوية تشغل بال الشعب والرئاسة ولا أعنى الهوية السياسية فقط بل الهوية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية أيضا ..

أطفال البوسنة .. جيل الخوف والأمل

فى أوائل عام ١٩٩٧ أجريت تحقيقا حول الحياة الاجتماعية والنفسية تحت نفس العنوان السابق ، وقد رأيت أن أنقل هنا أجزاء من هذا التحقيق كما كتبتة

وقتها وهدفى من ذلك هو التأكيد على أن ما أثير فى هذا الوقت بعد الحرب بشأن الأمراض الإجتماعية التى تهدد البوسنة لا تزال هى نفسها التى لا تزال تهددها حتى الآن على الرغم من التقدم الكبير الذى تم إحرازه نحو معالجة بعض جوانب هذه القضية التى تمثل فى رأى واحدة من أهم المشكلات التى تواجه البوسنة فى طريقها المزروع بالأشواك .

" يحدد علماء النفس والاجتماع فى البوسنة بداية الربيع القادم - ١٩٩٧ - كموعـد نهائى لإنفجار ما يطلقون عليه القنبلة الموقوتة وهو صبر الشعب وخاصة الشباب منه ، وعلى الرغم من إدراك هؤلاء العلماء بأن فترة ما بعد الحرب - أى حرب - فى أى دولة هى فترة انتقالية يشهد فيها الاقتصاد حالة ما من التحول إلا أنهم يشيرون إلى أن أبعاد ما بعد الحرب فى البوسنة تتعدى حدود الفكرة الاقتصادية فتصل إلى مرحلة المرض النفسى فى بعض الأحوال نتيجة كثير من الضغوط النفسية التى تعرض لها هذا الشعب وخاصة فى سراييفو التى تمثل أكبر عدد من السكان وقت الحصار والذى دام نحو أربعة أعوام وعلى وجه التحديد الأطفال الذين ولدوا قبل وقت قصير من الحرب أو أثناءها .

ويرى العلماء أنه يمكن تحديد عناصر المشكلة الاجتماعية فى البوسنة فى مجموعة من العناصر ، وأن جميع أفراد الشعب البوسنى بلا استثناء - فيما عدا تجار الحرب وأثرياءها - يمثلون طرفا مؤثرا على هذه العناصر وأن كل فئة شعبية لها مشكلتها الخاصة .. وعلى سبيل المثال فإن نسبة كبيرة من الأطفال - أطفال الحرب - تعاني من عقدة الخوف والظلام أو الأصوات المفاجئة والعالية - مثل انفجار أو صوت اصطدام أو غيره - وأن نسبة كبيرة من الأطفال مروا بتجارب يصعب على الكبار أحيانا تحملها وعندما تكون التجربة

مصحوبة بعدم الإدراك كما هو الأمر مع الأطفال فالنتيجة عقدة نفسية تصحبه خلال حياته إذا لم يتم علاجها في مراحلها المبكرة .

والعنصر الأول والذي يشكل أهم وأخطر عناصر المشكلة الاجتماعية في البوسنة في فترة مابعد الحرب هي مشكلة الإعاقة اليومية بمفرداتها الشهيرة من غذاء ومياه للشرب والخدمات الأخرى مثل الكهرباء والإسكان والمواصلات والاتصالات والتدفئة في مناخ دولة يطلق عليها - ثلاجة أوروبا - . أما العنصر الثانى وفقا لما طرحه علماء الاجتماع في البوسنة فيشمل الصحة والتعليم .. ثم البطالة التى تشكل كابوسا اجتماعيا وقنبلة تهدد بالانفجار .

وتذكر الإحصائيات أن ١٥ فى المائة من ضحايا الحرب فى البوسنة كانوا من الأطفال وأن عدد المصابين من الأطفال كان يشكل ٢٠ فى المائة من مجموع الذين أصيبوا خلال تلك الحرب .. وتقول هذه الإحصائيات أن بعض الإصابات ترك آثاراً لن تمحى وهى تتراوح بين الإعاقة والتشوه ، وعلى الرغم من ذلك فإن التشوهات النفسية على حد التعبير الذى أطلقه علماء النفس فى البوسنة يعد أخطر أثر تركته الحرب .. وعلى الرغم أيضا من أن الحرب لم تفرق بين أطفال البوشناق وأطفال الصرب والكروات إلا أن نصيب الأطفال المسلمين كان هو النصيب الأكبر من الخوف والألم والفقد إذ أنه من بين ٦٩ ألف طفل يتيم الأب والأم أو أحدهما أفرزتهم هذه الحرب فإن أكثر من ٧٠ فى المائة منهم من المسلمين .

ومن الآثار التى قد يرى فيها البعض قدرا من الطرافة على الرغم مما تحمله من ألم ، أن كثيرا من أطفال الحرب وخاصة الذين ولدوا قبل الحرب مباشرة أو أثناءها أصبحوا يرفضون الجلوس على المقاعد وأنهم يفضلون اقتراس الأرض فى حياتهم اليومية .. ويرجع ذلك إلى أنهم كانوا أثناء الحرب

يمارسون حياتهم فوق أرضية الغرف بعيداً عن النوافذ ، فالقذائف التى لم تكن تنقطع ليلاً أو نهاراً كانت شظاياها تتطاير فى كل مكان وتدخل من النوافذ المحطمة ولذلك ابتعد الجميع عن الجلوس على المقاعد ..

أما الظاهرة الثانية فهى أن معظم هؤلاء الاطفال لم يكونوا قد رأوا العالم خارج غرفهم لسنوات طويلة ، وعندما سكنت المدافع أخيراً كان إدراكهم لوجود عالم خارجى أمراً مفاجئاً .. لهم حتى أن أحد الاطفال - كما ذكر لى والده أنه فى بداية الحرب كان عمره عامين فقط وعندما انتهت الحرب كان عمره سبعة أعوام - وأنه بعد إنتهاء الحرب بنحو عام وبينما كانا يسيران فى الشارع راح الطفل يتساءل عن معنى تلك الألوان المضيئة فى أحد الأعمدة بالشارع وراح الوالد يشرح لأبنه معنى إشارات المرور الضوئية - بينما الاطفال فى مثل عمره فى دول أخرى كانوا يتعاملون مع الكمبيوتر كأداة شائعة .. ولعله لهذا السبب وغيره كان من الصعب على كثير من أطفال البوسنة التعايش بسرعة مع هذا الواقع أو العالم الجديد .. وفى تلك الفترة القاسية من الحصار والحرب كان على الوالدين - إن كانا على قيد الحياة - أن يصبحا المدرسة والمعلم ووسيلة الترفيه الوحيدة فى العالم .. وبعد انتهاء فترة الحرب بدأت عقدة الخوف فى الظهور على نطاق واسع .. الخوف من الآخرين والأصوات العالية ومن كل شئ .. هذا الجيل أطلقوا عليه جيل الخوف .. وفى الوقت نفسه أطلقوا عليه جيل الأمل .. فالعلماء يعتقدون أنه يجب أن يبدأ علاج جماعى لهؤلاء الأطفال على مستوى الأمة كلها ، فوفقاً لرأيهم لو تركت هذه الجراح النفسية لجاء بعد عشر سنوات أخرى جيل من الشباب الضعيف الخائف الذى تحتل الامراض النفسية عقله وجسده .. وبالتالي تفقد الأمة بمرضه ما حاولت أن تجنبه بالحرب والصمود .. وهو خلق دولة قوية ..

شباب حائر ..

أميلا وعائدة ويادرانكا وسفيتلانا وغيرهن ، فتيات لا تتجاوز أعمارهن العشرين وبعضهن يقل عمره عن السادسة عشرة . جميعهن تسيطر عليه فكرة واحدة هي الرحيل .. وهن من الجيل الذى عاش الحرب والحصار ، وهؤلاء هن اللاتى يرغبن فى الحياة بعيدا عن البوسنة .. فالعائدات اللواتى عشن فترة الحرب فى الخارج وخاصة دول أوربية بعد أن عملن وحصلن على المال والثروة والحرية لم يعد بإمكانهن البقاء فى البوسنة بكل ما تمثله من تخلف عن تلك الدول ، وما يبقين حقا هو عدم القدرة على الرحيل لأسباب كثيرة .. رغم أن الكثيرات افلحن فى ذلك .. وما ينطبق عليهن ينطبق على الشبان والرجال ، وقد كان من الطبيعى أن يحدث الصدام المتوقع بين لاجئى الخارج وأولئك الذين عاشوا الحرب والحصار . فالأخرون لم يجدوا من الحكومة ما يعينهم على العيش ، وفى الوقت نفسه زاد عدد العائدين وزادت أعداد السيارات الفارهة فى الشوارع .. وظهرت ثروات لا يملك الكثيرون مثلها وبدأت الحسرة تجتاحهم .

وعلى الرغم من أن الصدام بين لاجئى الخارج والداخل لم يكن صداما بالمعنى المعروف .. إلا أن علماء الاجتماع فى البوسنة يحذرون من أن الصدام الخفى هو الأكثر خطورة .. فهناك من فقدوا كل شئ وهناك من حصلوا على الكثير وبين هؤلاء وهؤلاء يتوقعون أن يحدث الصدام ، وهو فى هذه الحالة ليس صداما بين أفراد ولكنه صدام مع الدولة التى فى نفس الوقت لا تملك الحل .

وفى الوقت نفسه فإن البوسنة تواجه ما هو أخطر من ذلك ، فمع توقف طلقات المدافع بدأت فى الظهور بعض الظواهر التى عادة ما تصحب أى

حرب مثل انتشار الجريمة والدعارة وغيرها ، وظهرت بشكل واضح جريمة السرقة بالاكره ، فهناك سلاح كثير ولم تستطع السلطات بعد جمعه فالك لا يزال يخشى ما هو آت في المستقبل .

أما أخطر هذه الظواهر على الإطلاق فهي ظاهرة الانتحار .. ويقول الدكتور بورو ديوكانوفيتش رئيس قسم الأمراض النفسية بمستشفى كوشفو - وهو أكبر مستشفيات سرايفو - أنه يتوقع أن يزداد عدد محاولات الانتحار وخاصة في العاصمة ، كما أنه يتوقع نجاح الكثير من هذه المحاولات نظرا لطرق الغريبة والعنيفة التي يسلكها المنتحر لإنهاء حياته ، ويأتى ذلك كله كنتيجة مباشرة للحرب وكذلك لما بعد الحرب .

يقول الدكتور بورو إن حالات الانتحار بدأت فور إعلان السلام وحدثت محاولتان كل شهر في البداية في سرايفو فقط إلا أن هذا العدد أخذ في التصاعد شهرا بعد شهر .. وهى حالات لا تتوقف عند سن معينة فالبعض أقل من ١٦ عاما والبعض أكثر من ٤٠ عاماً ، والأمر لا يتوقف فقط عند حد الانتحار فهناك أيضا ارتفاع هائل في معدل الجريمة وبشكل خاص بين الشباب ، وهنا تتراوح تلك الجرائم بين نزوع الشباب إلى انتهاك القانون عمداً إلى المقاومة إلى الدعارة وإدمان الخمر والمخدرات .

أما أهم أسباب الانتحار كما يحددها الدكتور بورو ديوكانوفيتش فهي عمليات الانفصال والتشتيت التى حدثت خلال فترة الحرب بين الأبناء والوالدين أو بين الأزواج وزوجاتهم سواء بلجوء بعض أفراد الأسرة إلى دولة أخرى أو توجه الزوج - ثم غيابه أو فقده - بعد انضمامه للجيش . ولعل أهم الأسباب هو فقد عائل الأسرة أو أحد أفرادها أو الأقارب أو الأصدقاء وفقد الأبناء على وجه الخصوص . وتشير الأبحاث الدولية - والكلام للدكتور ديوكانوفيتش - التى

أجريت هنا حول حوادث الانتحار ، أو جرائم الانتحار كما يسميها ، تشير إلى أن نحو ١٧ في المائة من المحاولات كان وراءها أشخاص فقدوا أقارب - مقربين جداً - لهم وربما فقدوهم منذ فترة طويلة إذ أن معظم حالات الانتحار لم يتم بشكل مفاجئ بل أن نسبة الانتحار خلال الحرب نفسها كانت معدومة فيما بعض حالات فردية لمغتصابات ومن المؤكد إن هذه النسبة سوف ترتفع إلى ٢٧ في المائة خلال الفترة القصيرة القادمة . وهو ما دفعنا إلى إقامة مركز أطلقنا عليه اسم مركز الأزمات ويشرف عليه علماء نفس وأطباء متخصصون لتقديم يد العون ومساعدة المرضى وحل مشكلاتهم كوسيلة أساسية لمنع الانتحار .

يبقى أن أقول إن الدكتور بور ديوكانوفيتش هو نفسه صربي من مواطني سراييفو ويعترف بأنه واحد من قلائد أدركوا شرف مهنتهم وأبوا أن يتركوا سراييفو التي عاشوا وتعلموا وعملوا فيها .. ولذلك فقد كان يحظى باحترام الجميع وحبهم وليس هناك مفاجأة في أن القسم الذي يرأسه الدكتور ديوكانوفيتش في المستشفى كان يرأسه من قبله الدكتور رادوفان كارادجيتش الذي يرجع إليه الفضل الأول والأخير في كل حالات الانتحار التي جرت أثناء الحرب وبعدها " .

وبعد نشر هذا التحقيق الذي أجرته في منتصف عام ١٩٧٧ بأكثر من ثلاث سنوات وتحديدا في نهاية يوليو ٢٠٠٠ نشرت صحيفة " دنفى أفاز " التي تصدر في سراييفو دراسة علمية أشارت إلى أن ما يزيد عن نصف سكان البوسنة من الذين عاشوا سنوات الحرب والحصار يعانون من واحد أو أكثر من الأمراض العصبية أو النفسية الناجمة عن رواسب تلك المرحلة والتي تنعكس على سلوكهم اليومي وعلاقاتهم مع المحيطين بهم .

وأشارت الدراسة إلى أنه على سبيل المثال فإن حالات الانتحار بين البوسنويين المسلمين هي الأكثر قياسا بالبوسنويين من غير المسلمين وذلك لأنهم

كانوا الاكثر معاناة من الحرب ، كما أشارت إلى أنه لايمكن تقدير نسبة الانتحار بين السكان بشكل دقيق لأنها تظل الأعلى بين الشعوب الأوربية وخصوصا شعوب الدول الاسكندنافية حيث نسبة المنتحرين هي الأعلى بين الشعوب الأوربية ، كما أوضحت الدراسة أن هناك ظاهرة شاعت بين المتضررين من الحرب والشك والخوف من الغرباء كأحد الأمراض النفسية الشائعة الآن في البوسنة كما أن هناك حالة أكثر تناقضا وهي الشعور بالامبالاة بسبب الشعور بالعجز عن التغيير ، ويفسر ذلك استمرار الحصار والقصف العشوائي المركز على المدن والقرى البوسنية دون استثناء لفترات طويلة امتدت لأكثر من أربع سنوات .

وتقول الدراسة أن ظاهرة الهروب من الواقع تبرز من خلال رغبة الكثيرين ممن عاشوا أشد وأسوأ مراحل الحرب في الهجرة من البلاد رغم أنهم كانوا يستطيعون ذلك أثناء الحرب لكنهم كانوا يصرون آنذاك على البقاء والمقاومة .

واعتبرت الدراسة أن الأسباب الاقتصادية وطلب الحصول على فرص عمل ليس هو السبب الوحيد لطالبي الهجرة والذين يقدر عددهم بالآلاف والذين يحصلون في الغالب على تأشيرات سفر أو هجرة إلى استراليا وكندا أو الولايات المتحدة الأمريكية كما أشارت إلى أن هناك سببا إضافيا لتلك الموجات من الهجرة والتي تتزايد مؤخراً إلا وهو الرغبة في الابتعاد ونسيان كل ما من شأنه التذكير بالحرب المدمرة أو الابتعاد عن مواقع الأحداث المأساوية التي تحمل العديد من السكان ذكريات أليمة .

إن المتعمق في دراسة المجتمع المختلط الأعراق في البوسنة يمكنه أن يدرك منذ البداية أنه كانت هناك فترات طويلة من الاندماج القصرى أحيانا

والأختياري أحيانا .. ونتيجة لذلك الاندماج أصبح من الطبيعي في إطار دولة اشتراكية أقرب للشيوعية الروسية أن تلغى - إلى حد كبير - الحواجز الدينية .. وعلى سبيل المثال كان من السهل على رجل وامرأة أحدهما كرواتى والآخر صربى الزواج طالما أن الزواج يتم بطريقة التعاقد المدنى إلا أن هذا الأمر أيضا كان ينطبق على المسلمين .. وعلى الرغم أن الإسلام يحرم زواج المسلمة من غير المسلم بينما يتيح بالنسبة للرجل إلا أنه من المعروف أن نسبة غير قليلة من مسلمات البوسنة تزوجن من كروات أو صرب فى ظل تشجيع الدولة لمثل هذا الاندماج .. ولكن هذا الأمر الذى انتهى تماما مع الاعتراف بحقوق كل طائفة بعد الحرب أدى إلى آثار جد كثيرة بل وخطيرة على أبناء هذه الزيجات المختلطة .. ولقد شاهدت بنفسى آثار هذه الجريمة .. فالتشتت والضياع الذى كان يشعر به بعض أبناء هذه الأسر المختلفة كان يسبب آلاما تفوق آلام الآخرين ، فالأم صربية والأب مسلم أو العكس ، وعلى الأبناء الاختيار بين أحدهما لينضم إلى أحد المعسكرين .. لقد فقد الكثير من هؤلاء الأبناء هويتهم الحقيقية ومن هؤلاء نشأت الفئة الكبرى من المنحرفين والمصابين بأمراض نفسية .

وعلى الرغم من هذا الوضع الغريب فإنه من المؤكد أن الشعب البوسنوى يدرك حقيقة الهوية التى ينتمى إليها فى ظل قدرته على الحفاظ على ما اكتسبه نتيجة الحرب ومما لا شك فيه أن هذا الأمر لا ينطبق على المسلمين وحدهم بل أنه ينطبق أيضا على الكروات والصرب على الرغم أن الأمر أكثر سهولة بالنسبة لهم . وسيظل الأمل العالق فى عقول السياسيين - الحكماء - وأفراد الشعب هو أن ينتمى البوشناق وصرب البوسنة وكروات البوسنة إلى بلد واحد هو البوسنة والهرسك .. بحيث يفخر أى منهم فى النهاية بأنه بوسنوى وليس فقط لانتمائه إلى أحد هذه الأعراق .

ولا شك أن قضية الهوية والانتماء ستكون أحد الأشواك الدامية التي يتعين على الكثيرين أن يسيروا فوقها سواء رغبوا في ذلك أم لم يرغبوا ولا شك أن حل هذه المعادلة الصعبة ليس في يد مراقب للأحداث مثلي بل إنه سيكون أولاً وأخيراً خاضع لعوامل أخرى من داخل هذا المجتمع ، ففي اعتقادي أن حل هذه القضية بالتحديد لن تستطيع أية قوة سواء دولية أو إقليمية أن تفرضه على المجتمع البوسنوي ما لم يكن راغبا هو في حل متناقضاته بنفسه .

٤ - اللاجئين

لم يحدث فى تاريخ البشرية أو تاريخ الشعوب أن أدت حرب ما إلى تشريد شعب بالكامل وهروبه من دياره كما حدث فى البوسنة عام ١٩٩٢ وما بعدها .. وما حدث فى كوسوفا فى عام ١٩٩٩ وما قبلها .

عندما تم توقيع اتفاق دايتون للسلام كان عدد اللاجئين الذين غادروا البوسنة من مسلمين وكروات وصرب بنهاية عام ١٩٩٥ قد وصل إلى ٢,٢ مليون لاجئ .. وهو ما يزيد قليلا عن نصف سكان تلك الدولة . وفى الداخل بلغ عدد المهاجرين من أماكن إقامتهم الأصلية نحو مليون شخص آخرين أى نحو ربع السكان .. أما من بقى منهم فى مدن وقرى البوسنة فقد بقوا لأنهم إما لم يستطيعوا الخروج منها أثناء الحرب وإما لأنهم أعلنوا أنهم - سيموتون دون أرضهم - وقد حدث ذلك فى بيهاتش وموستار وزينيتسا وتوزلا وجوراجدة ، وحدث بالطبع مع أكثر من سبعين ألف شخص ظلوا محاصرين داخل سراييفو لأكثر من أربع سنوات وبعد مرور خمس سنوات من السلام لا يزال أكثر من نصف مليون لاجئ لا يستطيعون العودة إلى بلادهم .. ولا يستطيع أكثر من مليون آخرين أن يعودوا إلى مواطنهم الأصلية رغم أنهم يعيشون داخل حدود الدولة ، والسبب ببساطة أنه لا يوجد ما يعودون إليه .. لا منزل ولا عمل ولا خدمات .. لاشئ .. وإن وجد فإنهم لا يستطيعون الحصول عليه .

ليست تلك صورة قائمة عن الوضع فى البوسنة .. بل هى مجرد صورة واقعية فرضتها سنوات الحرب الطويلة .. وعلى الرغم من ملايين الدولارات التى تدفقت على البوسنة منذ بداية فترة السلام إلا أن هذه الملايين لم تكن كافية لإعادة مئات الآلاف من المشردين إلى منازلهم ليعيشوا من جديد حياة طبيعية كباقي البشر .

إن عودة هؤلاء اللاجئين ليست بالأمر اليسير .. ففي بلد مثل البوسنة بتركيباتها السكانية العرقية المعقدة لابد من حلول ثورية .. وقبل تقديم هذه الحلول ينبغي أن ندرك حجم هذه القضية ، فبنظرة سريعة إلى الخريطة السكانية قبل الحرب يمكن أن ندرك أن المدن الملاصقة للحدود الكرواتية وبشكل خاص في غرب البوسنة في مناطق إقليم الهرسك كانت تتمتع بأغلبية سكانية كرواتية أما المدن التي كانت ملاصقة للحدود مع صربيا فقد كانت تتمتع بأغلبية سكانية صربية .. أما المسلمين فقد تجمعوا في الوسط .. وفي سراييفو بشكل خاص ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الاستثناءات تشكل قاعدة واسعة وهامة ، فبرتشكو على سبيل المثال كانت ملاصقة للحدود الكرواتية وهي قرية في الوقت نفسه من الحدود مع صربيا إلا أن معظم سكانها كانوا من المسلمين والأمر نفسه ينطبق على مدن مثل سربرينتسا وفوتشا . كما كان الكروات يشكلون أغلبية في مدينة فيسوكو التي لا تبعد عن سراييفو سوى نحو عشرين كيلو مترا .. أما في الغرب فقد كان الصرب يشكلون أغلبية في مدينة درفار رغم أنها تقع في وسط إقليم الهرسك الذي يعد معقل الكروات .

هذه التركيبة السكانية تغيرت بشكل جذري فلم يعد في سربرينتسا مسلم واحد ، بينما يعاني الصرب العائدين إلى درفار من مشكلات لا حصر لها مع الكروات .. والغريب في الأمر أن المسلمين تقبلوا على الفور عودة الصرب والكروات إلى قراهم رغم وجود مشكلات فردية هنا وهناك ..

إن مرور خمس سنوات على انتهاء الحرب لا تعد في عمر الشعوب سوى لحظات لا يمكن معها أن ينسى شعب البوسنة تلك الكراهية التي خلقتها سنوات الحرب بل إن الأمر يحتاج إلى سنوات طويلة حتى ينسى الجميع ما حدث .. إن استطاعوا .

أشواك في جنب السلام

لاشك أن مشكلة اللاجئين هي أهم وأخطر المشكلات التي تواجه البوسنة ويتعين أن يجد لها الشعب البوسنى أو المجتمع الدولى أو كلاهما حلا سريعا ، إذ أنها أكبر شوكة فى جنب السلام .. وستظل تدمى الأقدام حتى يمكن أن تحل ..

ولعله من الواضح أن قضية المهاجرين أو اللاجئين فى البوسنة تحمل فى أعماقها عدداً آخر من التناقضات ، وفى اعتقادى أن أهم هذه التناقضات تتعلق بالقوى العاملة .. ففى الوقت الذى أصبح فيه عدد كبير من اللاجئين يعملون فى قطاعات مختلفة بدول اللجوء وبشكل خاص فى ألمانيا التى تحملت - ولا تزال - العبء الأكبر ، وهم بالتالى يحصلون على مصدر ثابت للدخل المرتفع الذى قل أن يحصلوا على مثله فى بلادهم فقد أدى ذلك إلى إنعاش الأحوال الداخلية ظاهريا بسبب تدفق الأموال من هؤلاء المهاجرين إلى الأهل فى الوطن أو مع عودة الكثيرين الذين استثمروا أموالهم بشكل أو بآخر إلا أن معظم هذه الاستثمارات تمت بنمط استهلاكى إذ أن معظم هذه الأموال أنفقت على تجديد المنزل أو الملابس أو شراء سيارة وتغيير أسلوب المعيشة وهو الأمر الذى يتناقض بشكل صارخ مع الواقع الاقتصادى لهذا البلد . وفى معظم الأحوال تم استثمار جانب كبير من الأموال العائدة فى مشروعات صغيرة غير منتجة ، وقد لوحظ أنه فى الفترة من بداية عام ١٩٩٧ إلى نهاية ١٩٩٩ فقد تحولت معظم محلات العاصمة سراييفو إلى مقاه أو متاجر لبيع الملابس التى يتم استيرادها جميعا من الخارج وبشكل خاص من تركيا .. وقد أدى التوسع فى هذا النشاط إلى توقف عدد كبير من المشروعات بعد عدة أشهر ..

والملاحظ أن معظم أصحاب الحرف الهامة والفنيين لا يزالون يرفضون العودة إلى البوسنة حتى بعد استقرار الأحوال الأمنية والاقتصادية بشكل كبير ،

وعلى الرغم من ذلك فإنهم يرفضون العودة قبل أن يضمّنوا عملا مناسباً - وهو قليل - وهو أيضا أحد أهم أسباب عدم عودة الجانب الأكبر من اللاجئين .

إن النقص الحاد الذى تواجهه البوسنة حاليا فى مجال الحرف المهنية يرجع إذن إلى رفض أصحاب الحرف الهامة العودة إلى البلاد .. وفى الوقت نفسه فإن الكثير من المصانع لا يزال متوقفا بسبب الدمار الذى لحق بها فترة الحرب . وفى اعتقادى أن عودة الحياة إلى هذه المصانع لن يتم إلا فى حالة عودة العمال وتغيير قوانين الملكية والاستثمار فى البوسنة .. وهو تناقض آخر غريب .

وفى الوقت الذى لا تزال فيه دول اللجوء تحتفظ بأعداد كبيرة من أصحاب المهن الهامة من اللاجئين البوسنيين فإن عددا كبيرا من المصانع والمناجم فى البلاد اعتمد على عمليات التشغيل الدورى للعمال نتيجة زيادة عددهم على عدد فرص العمل الحقيقية .. فبعض المصانع التى أعيد تشغيلها جزئياً لا تزال تتحمل عبء العمال الذين كانوا يعملون بها قبل الحرب وقد أصبح عددهم أكبر كثيرا مما تطلبه عمليات التشغيل والإنتاج ولذلك لجأت تلك المصانع إلى تشغيل جانب من العمال يوما أو أسبوعا ثم تشغيل الجانب الآخر لفترة مساوية حتى يحصل الجميع على فرص العمل . وبالطبع فإن الأجور تعطى مقابل أيام العمل الفعلى ، وهو ما يعنى أن عددا كبيرا من عمال البوسنة يعيش على نصف أجر الشهر أو أقل لمجرد الاستمرار .. إلا أن هذا الأسلوب يستهلك بالطبع أى أرباح يمكن أن تحققها هذه المصانع وبالتالي لا يمكنها من تطوير نفسها أو إعادة بناء ما تم تدميره أثناء الحرب .

وفى الوقت نفسه فإن دول أوروبا الغربية التى لا تزال تعتمد وبشكل كبير على العمالة الواردة من الدول الأقل نموا - ومن بينها البوسنة والهرسك - قد

ساهمت فى تعميق هذا التناقض بشكل كبير ، إذ أنه فى الوقت الذى تحاول فيه هذه الدول إعادة ما تبقى من اللاجئين إلى بلادهم بعد أن أصبحوا يشكلون عبئا يصعب عليها الاستمرار فى تحمله فإن هذه الدول نفسها قدمت كل الإغراءات الكفيلة ببقاء العمال المهرة منهم للاستفادة بمهارتهم ورخص أجورهم .. بينما يشكل الآخرون غير المهرة عبئا كبيرا مثل الأطفال والنساء والشيوخ ، وعلى الرغم من مثل هذا التفكير العملى فإن من حق اللاجئين أن يعودوا عندما تكون الظروف مهيئة لعودتهم ، وهو واجب يتعين على الدول الأوروبية تحمله إذا ما كانت بالفعل ترغب فى أن تعيش أوروبا بلا حرب جديدة تهددها تكون أكثر كثيرا من تكلفة إعاشة هؤلاء اللاجئين .

وفى الوقت نفسه تسببت عودة اللاجئين الذين عاشوا فى دول أوروبية على وجه الخصوص أثناء فترة الحرب إلى ما يشبه ضغينة اجتماعية كادت تتسبب فى انقسام المجتمع البوسنوى بشكل لا يحمد عقباه .. فالعائدين كانوا قد اعتادوا حياة مختلفة وحصلوا على أموال تكفى حياة ميسرة ظهرت فى شكل الحياة ومظاهرها ونمطها الجديد وهو ما وقع على أولئك الذين بقوا داخل البلاد أثناء الحرب وقعا أليما .. إذ لم يكن هؤلاء يجدون قوت يومهم .. فما بالك بمظاهر الحياة الأخرى .. وكان من الممكن أن تدرك الفرق الظاهرى بين اللاجئين العائدين والمواطنين المقيمين ، وقد أدى ذلك كما سبق أن ذكرت إلى ما يشبه عداء اجتماعى داخلى .. إلا أن هذه الظاهرة لم تستمر طويلا .. لحسن الحظ .

مهاجرو الداخل

كما سبق أن أوضحت فهناك أكثر من ٨٠٠ ألف لاجئ بوسنوى مشردين فى الداخل .. ففى بداية الحرب وأثناءها جرت أكبر عملية هروب متبادلة

بين أقسام البوسنة الثلاثة .. وعقب الحرب وضع المجتمع الدولي برنامجا أطلق عليه اسم المدن المفتوحة ، ويعنى عودة اللاجئين سواء من الخارج أو من الداخل إلى مواطنهم الأصلية بغض النظر عن العرقية التي ينتمون إليها في مقابل قيام المجتمع الدولي بدعم هذه المدن في جميع المجالات بما في ذلك إعادة إعمار المساكن وإيجاد فرص العمل وتوفير الخدمات على أن تحرم من هذه المعونات المدن والقرى التي ترفض عودة الأقليات إليها .. وعلى الرغم من مشروعية هذا الأسلوب وانضمام العديد من مدن البوسنة إلى هذا البرنامج إلا أنه حمل في باطنه ظلما فادحا بالجانب المسلم الكرواتى على وجه الخصوص .

فقد بدأ برنامج المدن المفتوحة بمؤتمر دولى عقد فى سراييفو فى أوائل عام ١٩٩٨ وأصدر المؤتمر بيانا عرف باسم " إعلان سراييفو " ، وفيه تم اعتبار العاصمة أول مدينة مفتوحة ، وبعدها عاد إلى المدينة نحو عشرين ألف صربى من اللاجئين . إلا أن هذه الخطوة كان لها تأثير سيئ على المواطنين المسلمين والكروات .. فالمدينة التي تضم نحو ٢٥ فى المائة من سكان البوسنة كلها وقعت تحت ظلم جائر بسبب هذا البرنامج ، فمع بداية الحرب هرب الصرب من المدينة وكذلك هرب المسلمون والكروات من مدن مثل بانيالوكا وبرتشكو وفوتشا وكلها تقع داخل الكيان الصربى حاليا ، واحتل كل منهم مساكن الآخر ، ولكن البرنامج قضى بأن يعود الصرب إلى منازلهم فى سراييفو دون أن يجبر الجانب الآخر على تطبيق نفس الإجراء وخاصة إلى بانيالوكا التي يعتبرها البعض عاصمة لصربسكا رغم أن مؤتمرا ثانيا أقر بأن تتخذ نفس الإجراءات فى تلك المدينة .. وعلى حين عاد نحو عشرين ألف صربى من بين ٤٥ ألفا غادروا سراييفو وضواحيها أثناء الحرب إلى المدينة فلم يعد إلى بانيا لوكا سوى ١٠٦ أشخاص - معظمهم يعملون فى منظمات دولية -

من بين نحو ٣٦ ألف مسلم وكرواتي طردوا منها مع الأيام الأولى للحرب لا يزال يعيش الجانب الأكبر منهم في ضاحيتي فوجشتشا وإيليدجا في سراييفو في حين لم يعد أى مسلم أو كرواتى إلى مدن مثل سربرينتسا أو برتشكو أو فوتشا حتى الآن .

لقد أدى هذا الوضع إلى حدوث مواجهات عنيفة .. وقد شهدت ضاحية فوجشتشا مواجهة بين اللاجئين المسلمين الهاربين من سربرينتسا وبين الصرب العائدين إلى الضاحية ولم يمنع حدوث كارثة إلا تدخل جنود القوة المصرية في سراييفو في أواخر عام ١٩٩٨ .

والأمر نفسه ينطبق على مدن مثل موستار .. فالمدينة التي لا تزال عمليا مقسمة بين المسلمين والكروات تعيش في تناقض كبير رغم أنها تمثل قلب الاتحاد المسلم الكرواتى ، فالكروات يعودون إلى موستار الشرقية - فى الجانب المسلم - بينما المسلمين لا يستطيعون العودة إلى الجانب الغربى - الذى يسيطر عليه الكروات - الذين يرفعون فوق كل بناية فيه علم جمهورية الهرسك بوسنة المنحلة ..

ولا تزال المشكلة قائمة فى موستار ورغم إعلانها مدينة مفتوحة وإعادة بناء الجسور ما بين الشطرين الشرقى والغربى - فيما عدا ستارى موست أو الكوبرى الاثرى القديم الذى ترعى اليونسكو إعادة بناءه حاليا - فالجرح لا يزال غائرا ومن الصعب مداواته .. وما ينطبق على موستار نفسها ينطبق على عشرات من القرى والمدن المحيطة بها ومنها ما لا يزال مهدما لا يعيش فيها إنسان واحد تنتظر يد الإعمار ..

وسوف تظل مشكلة اللاجئين شوكة حادة فى جنب السلام ما لم يتم إيجاد حل جذرى وثورى لها ، ولكن مثل هذا الحل لا يمكن أن يتم وحده بل أنه ينبغى أن يأتى فى إطار حل شامل للمشكلات الأخرى .. ولن يتأتى هذا الحل ما

لم يتم وقف عمليات الإرهاب ضد العائدين وتدمير منازلهم . . فمدينة واحدة مثل ستولاتس والقرى التابعة لها في منطقة الهرسك شهدت تفجير نحو عشرين منزلا أو أكثر خلال عام واحد كلها تمت عندما حاول مسلمون لاجئون العودة إلى تلك المنازل بعد إعادة إعمارها ، وقد فشلوا في ذلك الأمر الذي أبقى الكثيرين بعيدا دون تكرار المحاولة .. لقد نجحت سياسية التفجير والتلغيم التي طالت في كثير من الأحيان حتى المقابر نفسها في إحباط جانب كبير من محاولة عودة لاجئي الداخل أو الخارج إلى موطنهم . وهذا الأمر ينطبق على جميع القوميات دون استثناء .

إن محاولة بسيطة لزيارة مقابر إحدى القوميات في مدينة أو قرية تقع تحت سيطرة أغلبية قومية أخرى يستدعى حراسة من شرطة الأمم المتحدة ومراقبة من المفوضية العليا للاجئين وربما حماية من قوات حفظ السلام وقوات الشرطة المحلية . وعلى الرغم من ذلك فإن الزائرين غالبا ما تعرضوا للأذى ، والتاريخ القريب يذكر عشرات من هذه الحوادث وقعت في كافة أرجاء البوسنة دون استثناء ..

وتشكل بعض الحالات مفارقة أكبر .. ففي مدينة مثل سربرينيتسا التي لا يقطنها مسلم واحد في الوقت الحالي وكان سكانها من المسلمين يشكلون ٨٠ في المائة من تركيبها السكانية قبل الحرب ، فاز المسلمون في الانتخابات المحلية عام ١٩٩٨ بأغلبية ساحقة في مجلس إدارة المدينة - وقد صوتوا في أماكن اللجوء بالطبع - وعندما حاول النواب الفائزين دخول المدينة حدثت مصادمات رهيبة مع الشرطة الدولية وممثلي منظمة الأمن والتعاون في أوروبا وتخلت قوات - اسفور - وسقطت إحدى طائرات الهليكوبتر الدولية وفشل المجلس في الاجتماع .. ولا يزال هذا الوضع مستمرا .

فى أعقاب انتهاء العمليات العسكرية فى إقليم كوسوفا فى يوليو ١٩٩٩ كانت القوات الدولية تحمى العائدين إلى ديارهم ، ولم يستغرق الأمر سوى شهرين أو ثلاثة حتى عاد أكثر من مليونى لاجئ ألبانى إلى منازلهم وعاد فى الوقت نفسه معظم الصرب اللاجئين ، وظلت تلك هى المهمة الأولى للقوات الدولية فى الإقليم لفترة طويلة .. حتى أن تلك القوات اضطرت لاستدعاء مزيد من القوات لحماية عودة اللاجئين بعدما وقع من صدمات فى مدينة مثل متروفييتشا . وقد ألهم هذا الإجراء الذى قام به المجتمع الدولى دون حتى طلب من الألبان إلى مطالبة بعض القيادات البوسنية وعلى رأسها حارث سيليدجيتش بتشكيل قوة مماثلة تكون مختصة بحماية عودة اللاجئين البوسنيين إلى ديارهم .. وفى اعتقادى أن هذه القوة لا تزال هى الحل الجذرى الوحيد لإعادة الاستقرار إلى البوسنة .. ففرض عودة اللاجئين على جميع الأطراف وحمايتهم سيظل هو المهمة الأولى للمجتمع الدولى إذا ما أراد أن تعود البوسنة إلى سابق عهدها .. ولن يفوق تلك المهمة إلا القبض على مجرمى الحرب .

إن البوسنة تعيش تناقضات ساخرة أحيانا بسبب مشكلة اللاجئين ، وقد كنت شاهدا على تلك التناقضات الصارخة ، ولعل أكثرها طرافة - إن صح التعبير فى هذا الموضع - أو ربما أكثر مأساوية ما حدث فى عام ١٩٩٩ عندما شهدت البوسنة أكبر مفارقة يمكن أن تشهدها دولة فى العالم .. فمع الهروب الكبير الذى جرى فى إقليم كوسوفو فى مارس وما بعده من عام ١٩٩٩ بدا لكثيرين من الألبان أنه لا ملاذ أمانا لهم غير البوسنة ، وهكذا توجهت فى البداية أعداد قليلة منهم - وعلى استحياء شديد - إلى مناطق متفرقة من البوسنة .. وبعد عدة أشهر كان هناك ما يزيد عن ثلاثين ألف لاجئ ألبانى يحتلون معسكرات كبيرة فى توزلا وسراييفو وزينيتسا ، وما يزيد عن عشرة آلاف صربى من سكان

الإقليم نفسه تفرقوا فى عدد من مدن صربسكا ، فقد وجد كثير من الصرب أنفسهم مضطرون للتوجه إلى مواطنهم الأصلية التى كانوا يعيشون فيها مثل درفار - على الرغم من أنها تقع داخل الاتحاد المسلم الكرواتى - وعلى الأرجح فإن معظم الصرب الهاربين ، وكان معظمهم من الشباب الذى كان قد رفض الحرب فى البوسنة ، قد رفض أيضا الحرب فى كوسوفو وهربوا من نظام ميلوشيفيتش حتى لا يقوم بتجنيدهم للحرب هناك ..

لقد استغاث المسئولون فى البوسنة وناشدوا المجتمع الدولى المعاونة فى رفع هذا التناقض الصارخ . ففى الوقت الذى لم يكن يستطيع فيه مئات الآلاف من اللاجئين البوسنويين العودة إلى بلادهم فإذا بالبوسنة تستقبل عشرات الآلاف من اللاجئين الألبان والصرب فضلا عن نحو ١٣ ألفا من مسلمى السنجق - وهم بالأساس من مسلمى البوسنة - هربوا من إقليمهم الواقع فى غرب صربيا خشية أن يبطش بهم مليوشيفيتش كما بطش بالألبان .

ولقد عشت هذا التناقض لستة أشهر كاملة أو يزيد .. ولعلى أشير هنا إلى الدور الذى قامت به وحدة مصرية صغيرة لا يزيد عدد أفرادها على ثلاثمائة فرد من أجل مساعدة آلاف من لاجئى كوسوفو بتقديم الغذاء والأغطية لهم ، وما فعله السفير المصرى أحمد أبو طالب من أجل أن يرسم ابتسامة صغيرة على شفاههم فى وقت كانت مدنهم تحترق على أيدي الصرب .

٥ - أزمة الحكم

فى سبتمبر من عام ١٩٩٦ أجريت فى البوسنة أول انتخابات عامة لاختيار نواب الشعب فى الدولة الجديدة فى ظل السلام .. وفى أكتوبر عام ٢٠٠٠ أى بعد ما يقرب من أربعة أعوام على إجراء الانتخابات الأولى لم يتغير الوضع كثيراً فى البوسنة .. وفى كل الانتخابات التى جرت بين التاريخين كانت آمال الأوربيين بل والمجتمع الدولى كله تنصب فى هدف واحد هو تغيير الرؤية القومية للحياة السياسية ونظام الحكم فى البوسنة . فهل تم ذلك فعلاً .. ؟ والإجابة منذ البداية بالنفى فماذا يعنى ذلك ؟ .

على الرغم من ظهور العديد من الأحزاب المستقلة والجماعات السياسية التى تضم فى عضويتها أعضاء من القوميات الثلاث مثل الحزب الاجتماعى الديمقراطى أو مجموعة التسعة والتسعين المعروفة باسم الدائرة ٩٩ - وهى جماعة تضم مثقفى البوسنة من جميع الاتجاهات والقوميات - .. وعلى الرغم من أن هذه الأحزاب على اختلاف أسماءها وتوجهاتها السياسية أصبحت راسخة الأقدام نوعاً ما فى الحياة السياسية فى البوسنة والهرسك إلا أن نظرة عميقة إلى داخل المجتمع البوسنى تؤكد أن الأحزاب الثلاثة الرئيسية وهى حزب العمل الديمقراطى بزعامة الرئيس على عزت بيجوفيتش وحزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى والحزب الديمقراطى الصربى ظلت هى الممثل الرئيسى للقوميات البوسنية من بوشناق وكروات وصرب .. وفيما بين هذه الأحزاب القومية الثلاث وجدت أحزاب أخرى تخدم هى الأخرى فكرة القومية .. بما فى ذلك الحزب من أجل البوسنة وحزب الديمقراطية الكرواتية الجديد وحزب الشعب الصربى أو تحالف الشعب الصربى وغيرها وذلك على الرغم من أن هذه الأحزاب الأخيرة أبدت عند ظهورها قدراً كبيراً من المرونة إزاء فكرة الاندماج - التدريجى - بين فئات الشعب البوسنى وقومياته .

والواقع أن تفتت القوى السياسية فى البوسنة فى شكل أحزاب - معظمها هامشى - بلغ عددها أكثر من سبعين حزبا فى دولة لا يزيد عدد سكانها - بكيانيها - عن أربعة ملايين نسمة أدى إلى استمرار إن لم يكن تعميق الفكر القومى ، فقد انهارت فى كل مرة أجريت فيها الانتخابات سواء برلمانية أو رئاسية أحلام المجتمع الدولى بأن يسيطر على مقاليد الأمور سياسيون لا يؤمنون بالفكر القومى .

ولعل السبب الرئيسى كما سبق أن أشرت هو الخوف السياسى .. فالمسلمون والكروات والصرب على اختلاف عقائدهم الدينية اجتمعوا على أن المستقبل لا يزال مظلماً ، وأنهم لن يفرطوا بسهولة فى تمسكهم بالقومية باعتبارها العامل الذى يحفظ لكل منهم حتى الآن وجوده وهذه القومية يمثلها حزب من الأحزاب الثلاثة ..

والخوف السياسى تشكله أيضا عوامل اقتصادية واجتماعية وسكانية وعسكرية فى المقام الأول . وهو خوف تغلغل على مدى أعوام طويلة من القتال فى نفوس الصغار قبل الكبار ، وعلى الرغم من دعاوى السلام ومحاولات الاندماج فإن البوسنوى - كما أثبتت الانتخابات الأخيرة - سواء كان بوشناقيا أو كرواتيا أو صربيا - عندما يقف أمام صندوق الاقتراع فإن صورة الماضى وأشباهه تنبعث أمام عينيه .. وتصبح أفكاره القومية وانتماءه العرقى هى التى تقرر ماذا يفعل بورقته الانتخابية ..

وسوف تمر سنوات طويلة قبل أن يفوز حزب مستقل مثل الحزب الاجتماعى الديمقراطى بأغلبية تمكنه من تشكيل حكومة أو أن يتولى رئيسته - زلاتكو لاجومديجا - عضوية مجلس الرئاسة الجماعى أو حتى الحصول على منصب رئيس أحد الكيانين .

ولعل نظرة سريعة على التركيبة السياسية فى البوسنة والهرسك تؤدى إلى فهم الواقع السياسى هناك بشكل أكبر وبالتالى فهم ما يحدث وما يمكن أن يحدث فى غضون السنوات القليلة القادمة .. بل ويمكننا من خلال ذلك وضع أصابعنا على مواطن الداء من أجل علاجه .

فمثلما هو الحال فى أى دولة ناشئة أو مستقلة حديثا دخلت البوسنة والهرسك فى عالم التعددية الحزبية على النمط الغربى دون تجربة طويلة .. فمعظم القيادات السياسية فى الأحزاب الحاكمة فى البوسنة حالياً هى نفسها الأحزاب التى كانت تمثل السلطة الأولى قبل الاستقلال فيما عدا بعض الاستثناءات على الجانب البوشناقى .. وهذه القيادات سوف تستمر لفترة طويلة فى الحكم .. فالأحزاب الناشئة غالباً ما كانت هى التى قامت بالنضال أو قيادة الدولة إلى التغيير .. وبالتالى فإن السلطة التى حازتها بعد الاستقلال أصبحت سلطة تاريخية وأصبح الولاء لها أمراً حتمياً من قبل الجماهير .. وفى حالة البلقان بشكل عام أصبحت كرواتيا الآن وبعد رحيل زعيمها فرانيو تودجمان تمثل خروجاً على المألوف .. فكان تودجمان زعيماً لحزب الاتحاد الديمقراطى الكرواتى ، وهو الحزب الذى قاد كرواتيا إلى الاستقلال عن يوغسلافيا وهو الحزب الذى قاد البلاد فى حرب خرج منها منتصراً ، وبحدود بلاده التاريخية مضافاً إليها أجزاء من هنا وهناك ، وخرج بها بعد أن أعطى الصرب درساً مضاداً فى القومية والعنصرية .. وفى أول انتخابات جرت بعد وفاته فى أواخر عام ١٩٩٩ فشل حزبه فى الاستمرار فى الحفاظ على ولاء الشعب له وفقد مكانته وسيطرته على الحكم بل والحكم نفسه .. إلا أن الحالة الكرواتية الفريدة كان وراءها ديكتاتور انفرادى حزبه بحكم البلاد بنفس الأسلوب الشيوعى القديم ، فحاول الإطاحة بكل معارضة أو رأى مستقل يخالفه ، وعندما أطاح به الموت

أخيراً ، ذهب حزبه أدراج الرياح لأن الجماهير لم تعد تؤمن بأن نظامه يمكن أن يستمر .

ولعل التجربة الكرواتية تكون مقياساً لما سيحدث في كل البلقان مستقبلاً باختفاء زعاماتها القديمة وهو ما حدث وبشكل محدد مع الاتحاد اليوغسلافي وزعيمه الأوحـد سلوبودان ميلوشيفيتش .. على أن التجربة الكرواتية نفسها تختلف كثيراً عن الأمر في البوسنة رغم وجود فكرة الولاء .

فالجماهير البوسنوية لا تزال مؤمنة بأن هناك واجبا عليها أن تلتزم به إزاء الأحزاب التي خاضت الحرب من أجلها .. ورغم كذب هذا الزعم وفساد هذه المقولة .. إلا أنها واقع لا يمكن تغافله .. فمن ناحية خاض البوشناق جميعاً الحرب ضد العدوان الصربي والكرواتي دون حاجة لانتماء حزبي .. فقد كان الانتماء عرقياً في المقام الأول .. وواقع الأمر أن الرجل الذي قاد البوسنة خلال الحرب كان في الوقت نفسه زعيماً لكل البوشناق في تلك الأيام الأليمة .. ومن هنا أصبح يتعين على معظم البوشناق احترام هذا التاريخ وأن يدين بالولاء لعلـى عزت بيجوفيتش وحزبه .. وعلى الرغم من انشقاق حارث سيلاديتش عن هذا الحزب - بعد الحرب - وهو ما أعتبر وقتها خروجاً على المألوف إلا أن سيلاديتش نفسه - في اعتقادي - لا يزال يدين بالولاء للرئيس الذي يعتبره ابنه بالتبني وخليفته في حكم البوسنة . بل أن خلافتات قيادات حزب العمل الديمقراطي لسلايديتش التي تصل أحياناً إلى الكراهية كانت مبنية في الواقع على حقيقة أن الأخير لم يعد يدين بالولاء لمن حققوا الاستقلال .. على الرغم من أنه كان أحد المقاتلين من أجل النصر والاستقلال .

ليس الولاء وحده هو العنصر الحاسم في استمرار قوة النزعة القومية واستمرارها بين المواطنين في البوسنة على اختلاف أعراقهم ، فالبوشناق بشكل

خاص لا يزال لديهم مخاوف - لها أساس - من عودة محاولات نزع جذورهم الوطنية والإطاحة بهم وبعثرتهم إلى أنحاء أوربا .. وهو وضع لا يزال جزئيا - قائما حتى الآن أو إلى تركيا أو إلى البلاد الإسلامية التي ينتمون إليها دينيا ، وهى المقولة التي كان يطلقها زعماء الصرب والكروات أثناء الحرب ، خاصة وأن الصحف والزعامات الصربية لا تزال حتى هذه اللحظة تتحدث عن - الأتراك - عندما يكون المقصود هم البوشناق .

وفي الواقع فإن هذا الشعور بالخوف هو شعور عام لا يختص بالبوشناق وحدهم ، فليس الولاء وحده هو الدافع لتمسك صرب البوسنة وكروات البوسنة باستمرار الأحزاب السياسية القومية القديمة فى السيطرة على مقاليد الأمور . فمخاوف صرب وكروات البوسنة إزاء احتمالات تجدد آلام الماضى لا تزال قوية ولا يزالون يشعرون بأن هذه الأحزاب هى الوحيدة التى يمكنها أن تقف بصلابة ضد أى محاولة لإحياء آمال المسلمين فى تشكيل دولة - إسلامية - تكون لهم اليد العليا فيها .

ومن الصحيح أن حزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي فى البوسنة - وهو بالأساس فرع للحزب الأصل فى كرواتيا - هو الذى قاد عملية بقاء الكروات داخل البوسنة ودخلهم إلى الاتحاد المسلم الكرواتي منذ عام ١٩٩٤ باتفاق واشنطن بعد فشله فى إعلان دولة مستقلة يعترف بها العالم فى البوسنة وهى الهرسك بوسنة - على الرغم من نجاحه حتى الآن فى احتفاظه بمكونات هذه الدولة التى لا تزال تعيش عمليا داخل الاتحاد بما فى ذلك علمها القديم - وهو نفسه علم كرواتيا دون علاماته الخمس المعروفة - وبما فى ذلك قوات جيش الدفاع الكرواتي التى لا يزال جانب كبير منها يتركز فى مناطق الهرسك بوسنة - وعلى الرغم من انشقاق عدد من قيادات الحزب فى أواخر عام ١٩٩٨

وقيامهم بتشكيل حزب جديد على نحو مافعله حارث سيلايديجتش الا أن ولاء قادة الحزب الأخير لأفكار الحزب القديم لا يزال قائما ، فالكروات لم يتخلوا عن فكرة استقلالهم بكيان ثالث داخل الدولة البوسنية طالما أن الصرب استقلوا بجمهوريتهم .. وطالما أن المسلمين - وهنا يكمن الخطر - هم الذين يسيطرون على مقاليد الأمور في الاتحاد المسلم الكرواتى وهو أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة . لقد أراد الكروات أن تصبح البوسنة مقسمة إلى كانتونات على نمط الكانتونات السويسرية وهو تصور رفضه المسلمون والمجتمع الدولى إذ أنه أعاد للأذهان شبح الحرب من جديد ، فالحرب كلها بدأت من أجل الوحدة وليس الانقسام ، وما ينطبق على كروات البوسنة ينطبق أيضا على صرب البوسنة الأكثر تشدداً والأكثر تمسكاً بالأفكار القومية ، فهم الأكثر ميلاً إلى الانضمام إلى صربيا والأكثر إيمانا بدولة كبرى تضم كل الصرب معا ، وهى الأفكار التى تبنتها الأحزاب القومية فى الكيان الصربى إن لم يكن جميعها وعلى رأسها الحزب الديمقراطى الصربى .

وكما سبق أن أشرت فإن المسألة القومية فى البوسنة - كما هو الأمر فى باقى دول البلقان - ستظل عاملا حاسما فى بقاء الأمور على ما هو عليه لفترة طويلة قادمة ، وأن ذوبان أو اندماج القوميات الثلاث بشكل نهائى داخل الدولة هو من الأحلام الممكنة المستحيلة فى الوقت نفسه ، ولن يبلغ البوشناق والصرب والكروات هذا الحد حتى يحصل الجميع على الأمان الكافى . وقبل ذلك كله انتهاء عصر الحرس القديم وأعنى القيادات القديمة التى لا تزال تحتل السلطة ، تلك القيادات التى عاشت فترة الحكم الشمولى ، وحتى يظهر صف جديد من القيادات التى تؤمن بأن مستقبل البوسنة وآمالها فى الاندماج مع المجتمع الأوروبى والانطلاق نحو العالم بمفهوم جديد لن يتم إلا بإبداء قدر أكبر

من الثقة بين جميع الأطراف ونسيان الماضي . ولكن تلك الخطوة تحتاج إلى كثير من الجهد ولا شك أن نظام الحكم الحالي في البوسنة والهرسك ليس إلا صورة مكررة من نظام الحكم في يوغسلافيا بعد وفاة الماريشال تيتو ، فعلى الرغم من الشكل الديمقراطي الذي يتخذه هذا النظام - رغم الاعتراف بأن الظروف قد أملت - إلا أنه وفي الوقت نفسه يعد تكريسا لعملية الانقسام وتعميق الفكر القومي وهو الفكر الذي أطاح بيوغسلافيا كلها عندما رفض سلوبودان ميلوشيفيتش وهو رئيس لصربيا أن يتولى كرواتي رئاسة الاتحاد في الوقت الذي يتولى فيه كرواتى رئاسة حكومته بناء على نظام الدور الذي كان متبعا بعد تيتو وهو النظام المتبع الآن في البوسنة .. إن وجود مجلس رئاسى ثلاثى لدولة البوسنة -مكون من بوشناقى وصربى وكرواتى - ومجلس وزراء مركزى يرأسه - مناوبان - أحدهما بوشناقى والآخر صربى يتولى كل منهما رئاسة الحكومة أسبوعا واحدا وعدد من الوزراء - لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة- ونوابهم المقسمين بالتساوى بين القوميات الثلاث هو أحد الأمور التى عطلت وسوف تعطل مسيرة الإصلاحات فى البوسنة لفترة طويلة وهو أحد الأمور الشائكة التى إذا كانت تضمن استمرار الدولة فى الوقت الحالى فهى لا تضمن بقائها فى المستقبل ، ولذلك فمن المتعين أن يتم التخلص من هذا النظام فى أقرب وقت ممكن بعد أن أصبح عمل هاتين المؤسستين هامشيا أمام قوة نظام الحكم فى الكيانين المستقلين ولكل منها رئيس وحكومة تتحكم فى كل الأمور .. أما التعاون بينهما فليس إلا قشور وشكليات يفرضها المجتمع الدولى ولا يمكنها أن تنفذ إلى أعماق القضية وحلها ..

إن البوسنة والهرسك تحتاج إلى حل سياسى جذرى لنظام الحكم ولنظام الانتخابات من أجل تغيير ما يحدث فيها إذا ما أريد لهذه الدولة أن تصبح دولة

متقدمة على النحو الأوربي .. والمثال الصارخ على فشل المؤسسات المشتركة حتى الآن هو مسألة اختيار أعضاء مجلس الرئاسة .. فقد ظل مومنتشلو كرايشنك عضواً لمجلس الرئاسة لنحو عامين .. والمجتمع الدولي يدرك تماماً أنه أحد المتهمين بارتكاب جرائم حرب والشعب البوسنى يدرك ذلك وجميع المسؤولين فى البوسنة يدركون تشدده وخلال فترة توليه عضوية مجلس الرئاسة لم تخرج البوسنة بقرار واحد مشترك يؤدي إلى التقدم خطوة إلى الأمام .. وبعد خروجه من عضوية المجلس الرئاسى الثلاثى بأكثر من عامين تم اعتقاله لمحاكمته أمام المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة .

والمثال الثانى هو سير العمل بأهم مؤسسة تنفيذية فى البلاد إلا وهى الحكومة المركزية .. فقد ظل حارث سيلادجيتش ممثلاً للمسلمين والكروات كرئيس منابو للمجلس منذ إنشائه وتتابعت أسماء أخرى تمثل الجانب الصربى كان آخرها سفيتوزار ميهاييلوفيتش الذى وصف عند تعيينه بأنه أحد المعتدلين الصرب .. والواقع العملى أن ما يحدث خلال اجتماعات مجلس الوزراء المركزى إنما يمثل حقيقة ما يحدث فى البوسنة كله ، فنادراً ما يتم الاتفاق على أى قرار يمس شئون الدولة .. أما الأساس فهو الاختلاف نظراً لأن كلا من رئيسى الوزراء يدافع عن مصالح القومية التى يمثلها وهى مصالح متضاربة بحكم ما جرى .. وبذلك تسير الحكومة فى خطين متوازيين لا يلتقيان .

إن الديمقراطية تعنى الانتخاب .. وإن نظاماً انتخابياً برلمانياً يتيح الفرصة للأغلبية البوسنوية التى أصابها الإحباط مما يحدث فى البلاد لإنتخاب رئيس للبلاد ولانتخاب حزب أو ائتلاف يقوم بتشكيل الحكومة المركزية سيكون هو أفضل الحلول لاختيار المؤسسات المشتركة التى تعمل لصالح الجميع . فهذا

الاختيار سوف يتيح الفرصة لتوحيد القرارات وخدمة المجتمع بما لا يعطل مصالحها بين تنافر الآراء وتضارب المصالح بسبب النعرات القومية على نحو ما يحدث الآن .. فسوف تكون الانتخابات هي الفصل النهائي لإقرار الديمقراطية الحقيقية في هذا البلد الملىء بالمتناقضات .. ولعل هذين العاملين ليسا إلا مجرد آمال .. لكنها كما سبق أن أوضحت آمال ممكنة رغم أنها تبدو مستحيلة .. ولست في موضع يسمح لى بأن أكتب - وصفة - للإصلاح السياسى وجهاز الحكم فى البوسنة إلا أن من يعيش فى هذا البلد يدرك على الفور مدى التخبط الذى يعانيه النظام بسبب تعددية الجهات الحاكمة .. إن دولة يرأسها خمسة رؤساء للجمهورية وأربعة رؤساء للوزارة وعشرات من رؤساء الوزارات والوزراء فى الكانتونات المحلية إنما سيحول نظامها إلى فراغ وفوضى سياسية لن تثمر على المدى الطويل دولة التعددية بل سيحولها إلى دولة تبحث طوال الوقت عن حل لمتناقضاتها وخلافاتها الداخلية مما سيجعلها تتخلف كثيرا عن الركب الذى يمضى أمامها مسرعا ..

عندما سئل رئيس الاتحاد الأوروبى فى زيارة له إلى البوسنة عن الموعد الذى يمكن للبوسنة فيه أن تنضم إلى الاتحاد الأوروبى قال ببساطة وبحزم .. "ستتمكن البوسنة من أن تصبح عضوا فى الاتحاد الأوروبى إذا تمكنت من الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى لكرة القدم بفريق واحد يضم المسلمين والكروات والصرب" .. وقد فشلت البوسنة فى أن يمثلها فريق واحد حتى الآن .

يعتقد الكثيرون أن أياً من قيادات الجيل الحالى فى البوسنة والهرسك لن يشهد انضمام البلاد إلى الاتحاد الأوروبى الأمر الذى لن يحدث قبل أعوام طويلة .. عشرون عاما على الأقل ..

٦ - مجرمو الحرب

كان أدولف هتلر زعيم المانيا النازى هو آخر مجرمى الحرب فى أوربا ، وقد شاء ألا يعطى الفرصة لأعدائه فى محاكمته على ما ارتكب فنفذ حكم الإعدام بنفسه وانتحر .. كانت محكمة نورمبرج هى آخر المحاكم التى تولت محاكمة مجرمى الحرب الألمان على ما ارتكبه من جرائم ضد البشرية .. وخاصة فى القارة البيضاء .. ولم يكن الأوروبيون يدركون أن مجزرة جديدة ربما هى واحدة من أبشع ما ارتكب فى حق الإنسانية سوف تجرى فى البوسنة بعد نصف قرن من انتحار هتلر وقبل أن تغيب شمس القرن العشرين على عالم يتفكك .. وأبى هذا القرن إلا أن ينتهى بحرب بدأ بحرب أشعلها صربى أيضا عندما اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى من سراييفو عقب مقتل ولى عهد النمسا .

فى عام ١٩٩٢ أعلنت الأمم المتحدة بدافع من الولايات المتحدة عن تشكيل محكمة جديدة لمحاكمة مجرمى الحرب فى يوغسلافيا السابقة ، ولم تتمكن هذه المحكمة من أن تقوم بدورها الحقيقى إلا بعد سنوات من هذا التاريخ عندما أصبح لها قوة تنفذ ما تريد .. وفى أكتوبر من عام ١٩٩٥ أعلنت هذه المحكمة من مقرها فى لاهى توجيه الاتهام الرسمى - الذى جاء متأخرا كثيرا - إلى كل من رادوفان كارادجيتش وقائد قواته الجنرال راتكو ميلاديتش ومنذ تلك اللحظة تم اعتبار الاثنين مجرمى حرب .. ولا يزال الاثنان طليقي السراح حتى هذه اللحظة .

وعلى الرغم من أن قائمة معلنه من قبل محكمة لاهى تضم ٩٣ متهما بارتكاب جرائم حرب فى البوسنة - معظمهم من الصرب والكروات - فلم يتم اعتقال ومحاكمة سوى ٣٨ منهم .. وفى الوقت نفسه بدأ تساقط متهمين آخرين ممن أدرجوا على ما يعرف باسم القائمة السرية ، ومع بدايات عام ١٩٩٩

شهدت البوسنة للمرة الأولى اعتقال من أطلق عليهم أهل البوسنة - السمك الكبير - وكان آخر هذه الأسماك مومتشلو كرايشنك .

إن قضايا جرائم الحرب لا تسقط بالتقادم .. ولا يزال البعض حتى الآن يطارد ما تبقى من أشباح الحرب العالمية الثانية حتى بعد مرور أكثر من نصف قرن على انتهائها .. لكن الأمر يختلف كثيرا في البوسنة .. فالسمك الكبير مثل كارادجيتش وميلاديتش يعيش بحرية دون أن تمسه يد ، على الرغم من أن مكان هذا السمك معروف والوصول إليه سهل ولكن هناك زعم بأن محاولة اعتقاله ستثير مخاوف اشتعال الحرب من جديد .. وعلى الرغم من هذا الزعم .. فقد تم اعتقال كرايشنك وتم اعتقال مومير تاليتش رئيس أركان جيش صرب البوسنة في فيينا في أواخر أغسطس عام ١٩٩٩ وكان أول من اعتقل من السمك الكبير .. وعلى الرغم من التهديدات التي انطلقت من بالي ومن غيرها من مدن الكيان الصربي إلا أن الدنيا لم تتهد ولم تقع الحرب .. وأدرك الجميع أن المتطرفين وحدهم يطلقون التهديدات .. وقد انتزعت أسنانهم .. وعاد الهدوء من جديد بعد أن تقبل الجميع الأمر ..

من هو كرايشنك ؟. كان هو الساعد الأيمن لكارادجيتش وهو أحد الشخصيات المسؤولة عن المذابح الجماعية التي ارتكبت ضد المسلمين والكروات .. وقد شغل منصب رئيس برلمان صرب البوسنة منذ إعلان كارادجيتش عن تأسيس الحزب الديمقراطي الصربي عام ١٩٩٠ حتى عام ١٩٩٥ وهو ما يعنى أنه شغل هذا المنصب طوال فترة أزمة ما قبل الحرب وفترة الحرب نفسها .. وكان أحد أعضاء الفريق المفاوض في اتفاق دايتون للسلام .. وفي أعقاب الحرب شغل منصب عضو مجلس الرئاسة الجماعي الثلاثي للبوسنة والهرسك .. وكان يحظى وهو يحتل هذا المنصب بأكبر قدر من الكراهية بين زملائه من مسؤولي الرئاسة والحكومة المركزية فقد كان أحد

المتشددین وأحد مجرمی الحرب وكان الجميع یعرفون ذلك والمجتمع الدولي أيضا ..

وقد وضعت محكمة لاهای اسم كرايشنك على رأس قائمتها السرية التي یعتقد أنها تضم أكثر من عشرين اسما بهدف الحفاظ على وجودهم وعدم اعطائهم الفرصة لتوخی الحذر أو الهرب ولحماية حياتهم من الانتقام أو التصفية حتى یمكن الوصول إلى المستندات الهامة التي تحت أيديهم .. فكما هو معروف تعرض بعض من أدرجت أسماؤهم فی القوائم المعلنة للمتهمين بارتكاب جرائم حرب للاغتيال وكان على رأس هؤلاء الجنرال أركان قائد ميليشیات التطهير العرقی فی البوسنة والمعروفة باسم الفهود السوداء .. كان هو الآخر أحد مساعدي كارادجيتش .. واغتيل فی أحد فنادق بلجراد .. على يد أنصار ميلوشيفيتش الذين كانوا يريدون إخفاء ما ارتكبه أركان فی البوسنة ثم فی كوسوفو بعد ذلك .

والمهم أن عملية اعتقال كرايشنك أثارت موجة من الارتياح بین مواطنی البوسنة وأحيت الآمال فی إمكانية اعتقال كارادجيتش .. فما الذي یمثله اعتقال هذا المجرم ومحاكمته ؟

من المؤكد أن توقيع العقوبة على المسؤولين عن المجازر التي ارتكبت فی البوسنة هو أحد العوامل الرئيسية فی إنهاء حالة الانفصام التي تعيشها البلاد .. ولا أغالی فی القول بأنه أحد العوامل فی إنهاء الحرب غیر المعلنة فی البوسنة .. إذ أن الخوف من عودة أشباح الماضي كرادوفان كارادجيتش وراتكو ميلاديتش إلى السلطة بشكل أو بآخر - رغم إستحالة ذلك - لا یزال قائما .. ولا یزال هناك إعتقاد بأن كارادجيتش لا یزال له تأثير سیاسی كبير على مجریات الأمور فی صربسكا إن لم یكن الحاكم الفعلى لها .

إن فكرة بقاء المجرمين أحرارا هي أهم عوامل عدم الاستقرار في البوسنة ولذلك ستظل عملية اعتقالهم هي أولى المهام التي يتعين على المجتمع الدولي تحقيقها ، إذا ما أراد أن تستقر الأحوال في هذا البلد ، وستظل صور المذابح البشعة التي كانوا مسؤولين عنها حية في الأذهان تثير أحقاد الماضي لتؤثر على الحاضر والمستقبل .

وإذا ما أدرنا أن الكثير من أفراد الشعب البوسني وبشكل خاص المسلمون والكروات لا يزال لديهم الاعتقاد - وقد يكونوا على حق - بأن المجتمع الدولي وبشكل خاص دول أوروبا الغربية - وبتحديد أكبر فرنسا لا ترغب في أن يظهر كارادجيتش أمام محكمة دولية لمحاكمته عما ارتكب .. فسوف ندرك على الفور مدى الكراهية الدفينة التي يكنها أفراد هذا الشعب إلى من يحاولون منعه من تحقيق العدالة باعتقال هذا المجرم ومساعدته .. فما الذي يخشاه الأوروبيون إذا ما أعقل كارادجيتش ؟

في كتاب يحمل عنوان " لاهاي ضد تحقيق العدالة .. قضية الدكتور رادوفان كارادجيتش " كتبه البروفسور الصربي كوستا تشافوشكي عام ١٩٩٧ أورد المؤلف العديد من الوثائق التي حاول فيها إثبات أن كارادجيتش كان يعمل على إنهاء الحرب وأنه لم يكن مسئولا بصفة شخصية عن كل ما ارتكب في معسكرات الاعتقال وفي القرى وفي المدن .. ويلمح الكاتب إلى أن كارادجيتش لا يزال لديه الكثير ليقوله عن المؤامرات التي دبرها الأوروبيون من أجل تقسيم البوسنة واستمرار الحرب ، ويلمح أيضا إلى أن هناك كثير من الأسرار التي تكشف عما حدث إذا ما اعتقل وقدم للمحاكمة .. فهل هذا سبب كاف لإبقائه حرا ؟ .

في الرابع والعشرين من يوليو ١٩٩٥ أصدرت محكمة لاهاي بيانا أوردت فيه أن كارادجيتش - بالتضامن مع ميلاديتش - متهم بستة وعشرين جريمة

هى أخطر جرائم الحرب التى يمكن ارتكابها ومنها ممارسة التطهير العرقى وارتكاب جرائم ضد الإنسانية وانتهاك القواعد الدولية للحروب وإساءة معاملة المدنيين خلال الحرب وقصف تجمعات سكانية مدنية وتدمير دور العبادة وتدمير الممتلكات الخاصة واستخدام القناصة ضد أهداف مدنية واستخدام المدنيين كسواتر بشرية لحماية القوات الصربية والاغتصاب والضرب والقتل بغير حق والتعذيب والسرقة والتمييز بين المدنيين المسلمين والكروات على أساس دينى ..

لقد أرتكبت هذه الجرائم فى مدن وقرى البوسنة وفى معسكرات الاعتقال الجماعى فى أومارسكا وكراثيرم وترنوبولى ولوكا ومانياتشا وسوشيتسا وفى فوتشا وفى فلاسينتسا وبريدور وبوسانسكى شاماتس وبرتشكو .. لقد جرت تلك الأعمال أيضا فى حصار سرايفو على مدى أربع سنوات وفى أكبر مذبحه شهدتها أوربا فى تاريخها كله فى سربرينتسا فى يوليو ١٩٩٥ .

تلك هى الجرائم التى مهما بلغت قدرة أى كاتب على تصوير تفاصيلها فإن واقع ماحدث بالفعل سيكون أبعد كثيرا عن التصوير بالكلمات .. وهذه هى الجرائم التى لا يستطيع شعب مثل البوشناق أن ينسى للحظة أنها وقعت ما لم يتم تقديم مرتكبها إلى العدالة .. مرة أخرى .. ما الذى يخشاه الغرب ؟ .. وما الذى يخشاه ميلوشيفيتش إذا ما قدم كارادجيتش للمحاكمة ؟ .

فى أحد الأفلام الأمريكية الشهيرة يكون البطل عضوا فى المخابرات الأمريكية .. وعندما ينتهى من مهمته بالحصول على معلومات خطيرة عن العدو تسعى وكالته إلى تصفيته جسديا .. فيهرب ويلاحقه زملاؤه ويفاجأ بأنه أصبح هدفا أيضا من جانب العدو .. لقد أصبح مكروها من جانب كان يعمل له وآخر كان يعمل ضده .. والاثنان يخشيان اقتضاح أمرهما .. بل أنهما يتعاونان

للمرة الأولى من أجل القضاء عليه .. لكنه يتمكن من الهرب .. يلاحقه أصدقاء
وأعداء الأمس .. وطالما يحتفظ بصمته فهو حر ..

هذا هو البطل رادوفان كارادجيتش .. فالغرب يلاحقه أويطالبه
بالصمت .. ومليوشفيتش يلاحقه أو يطالبه بالصمت . والثمن هو حياته وحرية
التي أصبح يمارسها في أقل نطاق ممكن .

كثير من التقارير أشارت إلى أن المخابرات الأمريكية والفرنسية
والبريطانية تعرف مكان كارادجيتش ، وأن السبب المعلن عن عدم اعتقاله هو
الخوف من إراقة الدماء .. وإعادة شبح الحرب إلى البوسنة .. فماذا لو فعلها
الغرب حقيقة ؟ .. وما هي إذن قيمة وجود آلاف من جنود القوات الدولية
ومعظمهم من دول حلف الناتو مهمتهم الأولى هي حفظ السلام في البوسنة ؟ ..
وما هو السبب في أن جميع من اعتقلوا من المتهمين بارتكاب جرائم حرب في
البوسنة تم اعتقالهم بواسطة هذه القوات التي لم تلتزم رسميا حتى الآن بأن
يكون اعتقال هؤلاء المتهمين هو أحد مهامها الرسمية ؟ ..

الفصل الثالث

الوجود العسكرى الدولى فى البوسنة

سلام أم وقف لإطلاق النار؟

بعد أكثر من خمس سنوات على توقيع الاتفاق العام للسلام - اتفاق دايتون - فلا تزال العديد من الأسئلة مطروحة .. هل انتهت الحرب حقا ؟ .. هل كان اتفاق دايتون يهدف إلى التوصل لسلام دائم أم إلى فترة من السلام لالتقاط الأنفاس طالت أو قصرت تلك المدة مما يعنى أنه كان اتفاقا لوقف إطلاق النار ؟ .. هل كان الاتفاق تنفيذا لسياسة المخرج التى ابتدعتها الولايات المتحدة للخروج من العديد من الازمات الدولية ؟ أم هل كان الاتفاق مجرد ذريعة لوجود قوات أمريكية أو حتى قوات للناتو فى المنطقة إلى الأبد بدعوى حماية السلام ؟

منذ نوفمبر ١٩٩٥ وحتى الآن يردد الكثيرون فى البوسنة سؤالا أكثر خطورة .. ما هى احتمالات تجدد القتال ؟ .. ومنهم من يعتقد أن السلام سوف ينتهى مع انسحاب آخر جندى من جنود القوات الدولية فى البوسنة ورغم التخفيضات الهائلة التى جرت على مر تلك السنوات على الأسلحة التى يملكها الأطراف الثلاثة فإن السؤال يفرض نفسه بقوة .. هل تقع الكارثة بانتهاء الوجود العسكرى الدولى والذى أدى حتى الآن إلى إقرار السلام واستمراره ؟

ومما لاشك فيه أن سلاما يبدو حقيقيا قد حل فى البوسنة منذ نهاية عام ١٩٩٧ بالتحديد .. ففى هذا الموعد تم تخفيض الأسلحة وقطع برنامج التدريب والتسلح لجيش الاتحاد المسلم الكرواى الذى يحمل اسم " درب وسلح " خطوات واسعة نحو استعادة التوازن الذى ظل مفقودا طوال الحرب فى القوى العسكرية فى البوسنة .. وطبقا للمثل الشائع بأن السلام يحتاج إلى قوة تحميه فإن الواقع يؤكد أن الجيش الاتحادى وعلى الرغم من كل المشكلات الداخلية التى يعانى

منها - وهو ما سنتعرض له بتفصيل أكثر - إنما أصبحت له القدرة على حفظ حدود الاتحاد ومنع أى غزو محتمل من جانب الصرب أو على الأقل سيجعل الصرب يفكرون مرات عديدة قبل أن يحاولوا إشعال الحرب من جديد ..

ولقد اتخذ المجتمع الدولي حتى الآن العديد من الخطوات الكفيلة بضمان استمرار السلام ، ومن المفترض أن هذه الخطوات تكفل هذه المهمة حتى بعد انسحاب القوات الدولية من البوسنة .. وبعيدا عما نص عليه اتفاق دايتون ففى اعتقادى أن ما اتخذه مؤتمر فيينا عام ١٩٩٦ بشأن وضع برنامج لتخفيض التسلح فى دول يوغسلافيا السابقة كان أهم تلك الخطوات ، فقد شمل البرنامج كلاً من الاتحاد اليوغسلافى " صربيا والجبل الأسود " وكرواتيا والبوسنة بطبيعة الحال .. فعلى الرغم من أن التهديدات الداخلية هى أكبر شوكة تعوق السلام فى البوسنة فإن التهديد الذى تتعرض له من الخارج وأقصد من قبل جارتها الطامعتين فيها - صربيا وكرواتيا - هو خطر لابد من وضعه فى الاعتبار بشكل دائم وهو ما حرص عليه المجتمع الدولي .

ومما لا شك فيه أيضاً أن أقصى أمنيات المجتمع الدولي هو تحقيق الوحدة بين شطرى البوسنة بشكل نهائى ، الأمر الذى يضمن فى الواقع ألا يصبح فيه اتفاق دايتون مجرد وقف لإطلاق النار .. على أن تحقيق هذا الهدف الطموح لتحقيق الوحدة بين الاتحاد المسلم الكرواتي الهش والذى يفتقر فى الواقع إلى الثقة بين أطرافه وبينه وجمهورية صربسكا غير المستقرة والتي تتميز طوال الوقت بمقاومتها لتحقيق بنود الاتفاق كلما تعارض أحد هذه البنود مع مصالحها الاستراتيجية هو أمر غاية فى الصعوبة - على الرغم من وجود مؤيدين كثيرين له من الجانبين فى البوسنة - ذلك لأن هناك اعتقاداً راسخاً بأن اتفاق السلام لم يكن يعبر إلا عن استراتيجية المخرج .. ولا شك أن الحكم على النجاح فى تحقيق هذا الهدف سيعتمد بشكل كبير فى المستقبل على استمرار قوة

السلام .. ولكن مع وجود احتمال مستمر لخروج القوات الدولية من البوسنة والهرسك فلا يزال الحفاظ على السلام بشكل ذاتي ودون معاونة من قوة دولية وبالتالي تحقيق هدف الوحدة أمر بعيد المنال .

على أى الأحوال فسوف تظل المسألة العسكرية فى البوسنة واحدة من أهم عناصر الحرب والسلام ليس فى البوسنة وحدها بل فى البلقان ككل ، وفى اعتقادى أن هذه المسألة تعتمد بدورها على ثلاث أسس رئيسية سوف تحدد بشكل كبير مستقبل السلام فى المنطقة .

أولا : التوازن العسكرى فى البوسنة والبلقان

كما سبق أن أشرت فقد قطعت المنطقة شوطا كبيرا فى هذا الاتجاه .. ولعللى أقتطف من حديث للرئيس على عزت بيجوفيتش ما قاله عقب انتهاء الحملة الجوية على يوغسلافيا " إن صربيا ولعشرين سنة قادمة لن تجرؤ على تهديد البوسنة مرة أخرى " ويعكس هذا التصريح قيمة الخفض الهائل فى التسليح الذى تعرضت له يوغسلافيا بسبب حرب كوسوفو .. بل ويعكس ما يشعر به البوسنيون من احتمالات التدخل المستمرة من قبل جيرانها بسبب التوازن غير العادل فى التسليح فى المنطقة .. ورغمما عن ذلك فقد أدت حملة الناتو إلى تنفيذ جزء - بشكل مقصود أو غير مقصود - من خطة خفض التسليح فى المنطقة .

فى فيينا نص اتفاق خفض التسليح على الحد الأقصى لعدد القوات التى تتشكل منها جيوش المنطقة بحيث يصبح جيش البوسنة والهرسك مكونا من ٦٠ ألف جندي بينما يتكون جيش الاتحاد المسلم الكرواتى من ٥٥ ألفا وجمهورية صربسكا من ٥٦ ألف وهو ما يجعل المجموع ١١١ ألفا الأمر الذى يتناقض مع السقف المسموح به لجيش الدولة (٦٠ ألفا) إلا أن هذا التناقض يزول لسبب بسيط أن دولة البوسنة ليس لها جيش بالمعنى المعروف وإنما جيش لكل كيان

من كياني الدولة .. وكرواتيا ٦٥ ألف جندي ويوغسلافيا - صربيا والجبل الأسود - نحو ١٢٤ ألف جندي . وعلى الرغم من ذلك وبشكل طوعى واختيارى أعلن الجيش الاتحادى فى البوسنة ان التخفيض سيصل إلى ٤٥ ألف جندي . وعلى الرغم من ذلك فلو جاء ذلك اليوم الذى يعلن فيه الاتحاد بين جيشى الكيانين البوسنيين فسوف يتم تخفيض مجموع قوات الجيشين مرة أخرى إلى الحد المتفق عليه فى اتفاق فيينا وهو ٦٠ ألف جندي .

وربما كان قيام كرواتيا وصربيا بالانصياع بشكل كبير لبرنامج خفض التسلح قبل انفجار أزمة كوسوفا قد أدى إلى دفع المهتمين بالمنطقة إلى القول بأنه تم نزع فتيل حرب جديدة فى البوسنة .

على أن إعادة التوازن إلى ميزان التسلح فى داخل البوسنة هو فى اعتقادى العامل الحاسم فى نزع ذلك الفتيل من عدمه .. وفى هذا وعلى الرغم من تحايل - جميع الأطراف - فى البوسنة على قرار خفض التسلح وتدمير الفائض منه عن طريق إخفاء كميات من الأسلحة والذخائر هنا أو هناك أو عدم الإبلاغ عنها وبشكل خاص من قبل المدنيين إلا أن عمليات التفتيش المفاجئة والحاسمة وبشكل خاص من قبل قوات الاستقرار والشرطة الدولية والى طالت جميع معسكرات الجيشين قد أدت بالفعل إلى نتائج فعالة كان لها أثرها البعيد فى خفض درجة احتمال تجدد الحرب . فقد قامت هذه القوات بالتعاون مع منظمة الامن والتعاون فى أوروبا - وهى المعنية بشكل أساسى بتنفيذ اتفاق فيينا - فى مصادرة وتدمير مئات من قطع المدفعية والدبابات وقاذفات الصواريخ وآلاف من قطع الأسلحة متوسطة وصغيرة العيار وملايين من قطع الذخيرة التى كان الجميع يخفونها .

وقد شهد عام ١٩٩٨ أكبر عمليات لنزع الأسلحة الزائدة عن اتفاق فيينا وهى عمليات شهدت مقاومة فى بعض الأحيان من قبل الحائزين لها .. وينبغى

القول هنا أن ما تم مصادرتة من أسلحة وذخائر وتدميره من الجانب الصربي وحده كان كفيلا بإشعال حرب يمكن أن تستمر لعدة سنوات أخرى .

لقد تم العثور على هذه الأسلحة والذخائر .. ومن بينها أسلحة كيمياوية .. وقيل أحيانا وعلى سبيل المبالغة ، مكونات نووية ، فى مساكن مدنية وأنفاق مهجورة وفى مخابئ تحت الأرض .. وما أكثرها فى كل دول يوغسلافيا السابقة وفى مغارات بالجمال .. كان العثور على كل واحدة منها كفيلا بنزع جزء من فتيل الحرب المحتملة .. وفى الوقت نفسه كان العثور على أى منها يؤكد أن الجميع بلا استثناء كان يستعد لهذه الحرب .. أو على الأقل أنه لا يثق فى الطرف الآخر .. وفى النهاية وبحلول شهر نوفمبر ١٩٩٧ أنهت المرحلة الحاسمة لخفض الأسلحة ، أما المرحلة الثانية غير المعلنة فكانت التخلص من رصيد ضخ من الاسلحة التى تزال مخبأة فى أماكن هنا وهناك وتلك هى التى يخفيها أشخاص مدنيون فى منازلهم ..

وقد مررت شخصا بتجربة لم أر أو أسمع بمثل لها فى أى من دول العالم .. ففى احتفالات رأس السنة الميلادية عام ١٩٩٦ كنت أسكن فى حى جربافيتسا وهو الحى الذى ينقسم وتنقسم عنده سرايفو كلها إلى شطرين ، أحدهما وهو الأكبر يتبع المسلمين والكروات والآخر يتبع الصرب ، وعندما دقت الساعة الثانية عشرة إعلانا بميلاد عام ١٩٩٧ انطلقت فى سماء المدينة ومن الجانبين مئات الآلاف من الطلقات النارية .. وكانت تلك الطلقات تزداد كثافة عندما يشعر أحد الجانبين بأن الجانب الآخر قد تفوق عليه .. كانت منافسة بينهما على إطلاق النار فى الهواء .. كان الأمر يبدو لى أنه حرب حقيقية - إذ لم أدرك معنى إطلاق النار إلا بعد أكثر من ساعة عندما اتصل بى أفراد من السفارة المصرية للاطمئنان على - لقد إستغرق إطلاق النار نحو ١٠ دقائق أو أكثر قبل أن تهدأ الأمور وتعود إلى ماكانت عليه .. ولكنى خلال تلك

الدقائق استطعت - من خبرات سابقة كجندى - أن أميز حجم هذه الطلقات الذى كان يتراوح بين ٧ مم و ١٢ بوصة ، والأخير عيار يستخدم فى مقاومة الطائرات المنخفضة .. كان الجميع يملكون أسلحة كثيرة ومن عيارت مختلفة وذخائر لا يعلم إلا الله كميتها . وفى اعتقادى كان ذلك أول إنذار حقيقى للمجتمع الدولى فيما بعد السلام عن احتمالات تجدد الحرب .. لكن الأمر مع الأسف تكرر كثيراً فى مناسبات مختلفة فيما بعد .. ولكن بصورة أقل ..

وعلى الرغم من البرنامج الذى وضعه ممثلو المجتمع الدولى فى البوسنة اعتباراً من أواخر عام ١٩٩٨ بشأن تسليم الأسلحة التى يمتلكها المدنيون طواعية وعلى الرغم من أن عدد من تقدموا بما لديهم وفق هذا البرنامج كان كبيراً - وهو برنامج يسمح بتقديم هذه الأسلحة دون عقاب أو تجريم لفترة محددة وأطلق عليه برنامج العفو - إلا أنه فى اعتقادى لا يزال هناك الكثيرون الذين يحتفظون بأسلحتهم .. ولا أبالغ إن قلت أن معظمهم موجودون فى الجانب الصربى .. وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العدد الكبير من الأسلحة المخبأة سوف يتناقص تلقائياً إن أجلاً أو عاجلاً ، إما مع استمرار عمليات التفتيش المفاجئة التى تقوم بها قوات الاستقرار والشرطة الدولية على منازل من يشتبه فى حيازتهم لها أو أن هذه الأسلحة والذخائر سيتم تصفيتهم ذاتياً بمرور الوقت .. إذ أن هذه الأسلحة تحتاج إلى صيانة باستمرار وإلا فسدت بعد فترة وفى كل مرة تخرج فيها للصيانة ستكون هناك مخاطرة باكتشافها .. والأمر نفسه ينطبق على الذخائر .

ثانياً : إعادة بناء جيش البوسنة والهرسك :

مرة أخرى لست أبالغ إذا كنت أقصد فى هذا العنوان جيش البوسنة والهرسك .. الدولة .. أى الاتحاد المسلم الكرواتى وجمهورية وصربسكا معا !!

فمن المؤكد أننا ونحن نستطلع آفاق المستقبل في هذا البلد عن طريق وضع أصابعنا على الداء في الماضي والحاضر لا يمكن أن نغفل أن دولة يمكن أن تدافع عن نفسها ضد أى تهديد خارجي بثلاثة جيوش .. هي جيش المسلمين وجيش ميليشيات الدفاع الكرواتية وجيش جمهورية صربسكا - كما أن وجود هذه الجيوش بوضعها الحالي هو أمر لا يسهم بحال في إقرار سلام دائم حتى لو وضعت تلك الجيوش تحت سيطرة قوات أكبر وأقوى مثل قوات الناتو كما هو الوضع حالياً .. فشرارة صغيرة لا تزال كفيلة بإشعال الحرب .

وعلى الرغم من أن هذا الهدف لا يزال بعيد المنال كما سبق أن أوضحت، فإن خطوات قد اتخذت بالفعل في هذا الاتجاه .. وكانت الخطوة الأولى هي توحيد جيشي المسلمين والكروات في البوسنة .. وعلى الرغم من أن تلك الخطوة تمثل للجانبين شوكة أخرى من أشواك السلام إلا أنه ليس لأى منهم خيار آخر .. ولكن السؤال الذى يفرض نفسه فوراً وقبل الحديث عن وحدة بين جيشي الكيانين هو : هل تحققت بالفعل وحدة الجيشين المسلم والكرواتي ؟ .

كان برنامج التدريب والتسلح الذى شاركت فيه دول كثيرة - قاداته الولايات المتحدة - هو أهم خطوة فى إعادة بناء الجيش الاتحادى .. فليس خافياً أن المسلمين لم يكن لديهم طوال فترة الحرب جيش بالمعنى المعروف للكلمة .. فقد نشأ هذا الجيش فى احتفال تم فوق أحد الجبال القريبة من مدينة زينيتسا فى أغسطس عام ١٩٩٢ ، ومنذ هذا التاريخ بدأ الجيش فى تكوين خبرته من الحرب نفسها ، وربما ساعده على ذلك أنه كان من بين قواده جنرالات أكفاء كانوا يخدمون قبلاً فى الجيش اليوغسلافى الاتحادى ، إلا أن هذا الجيش كان يفتقر إلى السلاح وكان قوام هذا السلاح ما تمكن المسلمون من الحصول عليه من معارك هزم فيها الجانب الصربى أو حصلوا عليها من مصادر خارجية خاصة مع فرض حظر على تصدير السلاح للمنطقة طوال فترة الحرب ..

ولعل أهم عناصر ذلك الجيش تلك الوحدة التي كان يطلق عليها اسم " البيريهات الخضر " وهى وحدة اتسمت بالتدريب الجيد والقيام بعمليات أشبه بعمليات القوات الخاصة فى الجيوش النظامية المعتادة .. وبالطبع استعان هذا الجيش الوليد بخبرات من الخارج وبشكل خاص من دول إسلامية . . إلا أنه من المؤكد أن تلك الخبرات - الأجنبية - كانت محدودة للغاية .

أما على الجانب الكرواتى فإن جيش مايعرف بقوات مجلس الدفاع الكرواتى للبوسنة والهرسك لم يكن سوى ميليشيات انضم إليها أثناء الحرب مجندون وضباط كانوا يعملون أصلا فى جيش الاتحاد اليوغسلافى ثم انضموا للجيش الكرواتى ثم توجهوا بعد ذلك إلى البوسنة بعد توقف الحرب بين كرواتيا وصربيا لنحو ثلاث سنوات .. وكان هذا الجيش يملك سلاحا أكثر وتخطيطا وتنظيما أكبر بسبب الإمدادات الدائمة التى كان يحصل عليها من - الوطن الأم - كرواتيا .. وفى الواقع فإن الرئيس الكرواتى الراحل فرانيو تودجمان لم يتخل عن هذا الجيش فى أحلك الظروف وظل حتى آخر أيامه يزوده بما يحتاجه من مال وعتاد وخبرة ضباط الجيش الكرواتى .

حتى هذه اللحظة لا تزال بعض وسائل الإعلام البوسنوية تشير إلى مناطق يسيطر عليها الجيش البوشناقى وأخرى تسيطر عليها قوات مجلس الدفاع الكرواتى فى البوسنة .. والمناطق الأولى هى تلك الواقعة فى وسط البوسنة حول مدن سراييفو والجانب المسلم من موستار وزينيتسا وتوزلا وغيرها من المدن التى تتمتع بأغلبية سكانية مسلمة ، أما مناطق الجيش الكرواتى فتقع فى كل إقليم الهرسك وخاصة فى موستار الغربية والمدن القريبة من الحدود مع كرواتيا وخاصة مدينة ليفنو التى لا يستطيع أى إنسان حتى الآن أن يفرق فيها بين قوات جيش الدفاع الكرواتى فى البوسنة وبين قوات كرواتيا نفسها ..

ونتيجة لإعلان الاتحاد بين الجانبين وفقا لاتفاق واشنطن ١٩٩٤ كان على أعداء الأمس الذين حاربوا وجهها لوجه في أكثر المعارك التي وقعت في البوسنة شراسة في وادي نهر لاشفا - في وسط البوسنة - قبل توقيع الاتفاق والتي قيل وقتها أن نهر لاشفا اصطبغ بلون دماء المسلمين الذين قتلوا هناك على يد الكروات .. كان عليهم أن يصبحوا حلفاء اليوم .. فهل نجح التحالف وهل نجحت عملية توحيد الجيش ؟

حتى قبل وفاة تودجمان في أواخر عام ١٩٩٩ كان شريكا التحالف يتبادلان الاتهامات حول عملية تمويل الجيش الاتحادي .. فعلى الجانب الكرواتي كان الرئيس تودجمان يتهم الجانب المسلم في الاتحاد بتلقي دعم مالى من دول إسلامية وعربية بينما الجانب المسلم يتهمه بتمويل قوات جيش مجلس الدفاع الكرواتي في البوسنة وهو أمر لم ينفه الرئيس الكرواتي أبدا .. وإحقاقا للحق فإنه يتعين القول بأن ماكان يزعمه تودجمان لم يكن سوى محض خيال وتشويه للحقائق وتبرير لقيامه بتمويل جيش كروات البوسنة الذى كان يصفه باستمرار بأنه خط الدفاع الأول عن أوروبا ضد المسلمين !!! فضلا عن أن الدول العربية والإسلامية ومن بينها مصر ودولة الامارات العربية والسعودية وتركيا وإيران وباكستان قدمت لجيش البوسنة الاتحادي - بمسلميه وكرواته - أسلحة اندرجت جميعا تحت برنامج " درب وسلح " وكانت قوائمها معروفة ومعلنة وفقا لاتفاق فيينا .. ولا أعتقد أن الولايات المتحدة التي كانت ولا تزال تقود هذا البرنامج يمكن أن تسمح لأى دولة عربية أو إسلامية أن تقدم أموالا من تحت المائدة للجيش المسلم بينما تعلم أن كرواتيا تقدم سنويا إلى جيش كروات البوسنة نحو ١٥ ألف جندي ونحو ٤٠٠ مليون مارك المانى لدفع مرتبات الجنود والضباط فيما يدفع المسلمون رواتب جنودهم وضباطهم - نحو ٣٠ ألفا - من ميزانية الاتحاد .. ونتيجة لضعف ميزانية الاتحاد فإن مرتبات الجنود والضباط

المسلمين هي أقل كثيرا من مرتبات الكروات وهو تناقض لم يتم حله حتى الآن .

أما التناقض الثانى وهو الأغرب فقد جاء نتيجة لعدم الثقة بين الجانبين .. فمعظم الأسلحة التى حصل عليها الجيش الاتحادى تتعرض لعملية تقسيم غريبة .. فحينما يحصل الجيش على أسلحة يحتفظ المسلمون بالمدافع - على سبيل المثال - فى معسكراتهم بينما يحتفظ الكروات بذخيرتها فى معسكراتهم أو العكس .. وبالطبع فإن ذلك لا يشمل الأسلحة التى يتم تجميعها فى معسكرات التدريب المشتركة التى تشرف عليها القوات الدولية .. وربما تجيب هذه التناقضات كلها عن السؤال .. فحتى هذه اللحظة لا يمكن القول بأن هناك جيش اتحادى بالمعنى الكامل للكلمة .

وعلى الجانب الآخر .. فى جمهورية صربسكا .. فمما لا شك فيه أن عمليات تخفيض الأسلحة أدت إلى تقليل قدرات جيش صرب البوسنة بشكل كبير كما أدت طول فترة الحرب إلى استهلاك معظم سلاحه إلا أنه على الرغم من ذلك فإن ما يملكه هذا الجيش بالفعل من أسلحة وذخائر إلى جانب خبرات عسكرية يتمتع بها ودعم معنوى ومادى غير محدود من صربيا .. لا تزال تشكل خطرا بالغيا فى حالة اندلاع حرب ولو عن طريق الخطأ أو سوء التقدير .. أو حتى سوء نية بعض القادة ، فضباط وجنود جيش صربسكا من جانبهم يشعرون أنهم تعرضوا للخيانة من الصديق قبل أن يتعرضوا إليها من قبل المجتمع الدولى ، ومن وجهة نظرهم فقد أرغموا على التنازل عن الارض التى استولوا عليها اما بقوتهم العسكرية وإما بالخداع إلا أنهم أرغموا على ترك معظم هذه الأرض دون قتال .. وعلى الرغم من أن الحقيقة المؤكدة هي أنه لو أستمر أمد الحرب لعدة أشهر فقط فربما فقدوا أكثر كثيرا مما فقدوه فى السلام إذ أنه من المعروف أن قوات الاتحاد الفيدرالى كانت قد بدأت فى تحقيق

انتصارات عديدة فى الأيام الأخيرة للقتال .. وربما تشهد المعارك التى دارت فوق جبل ايجمان فى تلك الأيام على هذه الانتصارات وفى غيرها سواء فى بيهاتش والمناطق المحيطة بها أو حتى فى بعض مناطق شرق البوسنة .. على أية حال لقد أصبح توقيت بدء عملية السلام يمثل علامة استفهام كبيرة خاصة وأن قوات الاتحاد كانت تسيطر فى بعض الأحيان على نحو ستين فى المائة من أراضى البوسنة فيما كانت القوات الصربية تسيطر على هذه النسبة قبل أشهر قليلة من بدء عملية السلام .. وما يعنينا هنا أن ضباط جيش صرب البوسنة لم يكونوا راضين عن اتفاق السلام وقت توقيعه ، ولم يرضوا عنه أبداً ، ولم يرغبهم عليه - من وجهة نظرهم - إلا الرئيس الصربى سلوبودان ميلوشيفيتش وليس الغارات الجوية التى كان حلف الناتو قد بدأ فى شنّها خلال عام ١٩٩٥ على مواقعهم الهامة ومنها على سبيل المثال قاعدة هادجيتش القريبة من سراييفو ، وليس الانتصارات التى بدأ المسلمون والكروات تحقيقها ، الأمر الذى أدى بقيادتهم السياسية - كارادجيتش - إلى الإذعان للضغوط وتكليف ميلوشيفيتش بتوقيع اتفاق السلام نيابة عنهم .

وإذا كان هذا هو الحال فى جيش الاتحاد المسلم الكرواتى وحال قيادات جيش صرب البوسنة فإنه يصبح من المنطقى ألا يكون هناك أى احتمال على المدى القريب أو المتوسط لتوحيد جيش البوسنة بفئاته الثلاث فى وحدة واحدة إلا أنه فى إطار حل سياسى بعيد المدى وربما بعد جيلين من الآن يمكن لهذا الهدف البعيد المنال أن يتحقق .. إذا ما بدأنا منذ الآن إجراءات بناء الثقة ، ذلك هو أهم ما يمكن قوله إذا ما كنا نحاول استطلاع آفاق المستقبل .

وكما قلت فإن أى هدف بعيد المنال - و يحتاج الوقت لتحقيقه ، يحتاج أيضاً إلى البدء فوراً فى وضع خطوات لتنفيذه منذ الآن حتى لو كانت تلك الخطوات قصيرة وصعبة وتمر بحقل كثيف من الأشواك .

فى عام ١٩٩٨ تم تشكيل هيئة عسكرية مشتركة من الجيش الاتحادى والصربى فى البوسنة على أساس أن تكون هيئة اتصال تهدف من بين عدة أهداف إلى منع أى اشتباك يمكن أن يقع نتيجة لسوء فهم أو بشكل عرضى أو نتيجة لاستفزازات فردية بحيث يقوم كل من الجانبين بإبلاغ الجانب الآخر عن تحركاته ومناوراتِه واتصالاته بأى أطراف أخرى .. وكانت هذه الهيئة تهدف فى البداية إلى نزع فتيل أى نزاع محتمل نتيجة الخطأ .. ولكن فى العام التالى تطورت فكرة هذه الهيئة حتى أصبحت هيئة عليا يرأسها مجلس رئاسة البوسنة ورئيسى الكيانين .. وفى الواقع أن هذه الرئاسة تتم فى إطار شكلى بحت - إلا أن قوات الاستقرار استفادت من النجاح النسبى الذى حققته هذه الهيئة نفسيا لتبدء أول عملية تدريب مشتركة بين الجيشين ، وكان هدف هذه العملية التدريب على نزع ألغام من إحدى المناطق الواقعة على الحدود المشتركة للكيانين باعتباره عمل يندرج أولاً وأخيراً تحت العمليات الإنسانية .. إلا أنه لا يمكن لأى شخص فى البوسنة مهما بلغت درجة تفاوله أن يعتقد - على الأقل فى الوقت الحالى - أن يذهب فيما يتعلق بالجيش إلى أبعد من ذلك على الرغم من أن شرطة الجانبين على سبيل المثال قامت بعملیات مشتركة ربما كانت مثالا أكبر للتعاون ..

إن التناقض الرئيس الذى تشهده البوسنة والهرسك فى هذا المجال هو أن مجلس الرئاسة الجماعى - الذى يتناوب أعضاؤه رئاسته بدورهم كل ثمانية أشهر - لا يعد فى حقيقة الأمر القائد الأعلى للجيش البوسنى الاتحادى والصربى - مثلما هو الحال فى جميع دول العالم - الموحدة - إذ أن هذا الجيش ليس موجودا بالأساس ، وليس من الغريب القول بأن البوسنة لا تزال بعيدة للغاية عن الاندماج فى الأسرة الأوربية والإنضمام إلى مؤسساتها الهامة مثل الاتحاد الأوربى طالما أنها تعيش فى مثل هذا الانقسام البالغ التعقيد ..

ولعل هذا هو السبب الذى دعا بعض الاوربيين إلى التفكير فى مد برنامج التدريب والتسلح - الذى تسهم فى تمويله بشكل كبير الدول الأوروبية - إلى جيش صرب البوسنة ، وكان هذ التفكير يهدف إلى تقليل التوتر وإجبار الجميع على التعاون معا حين يضطرون إلى العمل معا والحصول على نفس التدريب وربما نفس التسليح والخبرات بما يعنى أن طرفا لن يتفوق على الآخر .. وفى النهاية يقتنع الجميع بأنه لا بديل لهم عن الاتحاد ..

وعلى الرغم من غرابة الفكرة التى يرى بعض المسلمين والكروات أنها ستكون بمثابة مكافأة للمعتدى .. إلا أنه فى اعتقادى أن فكرة الهيئة العسكرية المشتركة ومسألة ضم الجيش الصربى إلى برنامج التدريب والتسلح ماهى إلا محاولات قد حان وقتها حيث يتعين على جميع الاطراف فى البوسنة أن تقترب شيئا فشيئا من المستقبل .. وهو فى جميع الاحوال مستقبل مشترك سواء رضيت بذلك هذه الاطراف أم أبيت خاصة إذا ما وضعنا فى الاعتبار أن ما حدث فى البوسنة بين عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٥ لن يتكرر بأى حال .

ثالثا : الوجود العسكرى الدولى :

منذ بداية الأزمة الكارثة فى البوسنة عام ١٩٩٢ سعى المجتمع الدولى إلى إنهاء هذه الحرب الوحشية عن طريق تدخل عسكرى ما .. وكما هو معروف منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان الغطاء المفضل لمثل هذا التدخل العسكرى هو غطاء الأمم المتحدة ... وعلى الرغم من نجاح هذا الغطاء فى العديد من النزاعات الدولية والمحلية إلا أنه فشل فى عدد منها أيضا ، فقد فشل فى الصومال كما فشل فى البوسنة .. بينما لم يكن هذا الغطاء كافيا فى صراع أكبر مثلما حدث فى حرب الخليج الثانية بعد احتلال العراق للكويت .. كما لم يكن

كافيا في صراع أخطر كاد يؤدي إلى حرب عالمية جديدة تتورط فيها روسيا
مثمًا حدث في أزمة كوسوفو في نهاية القرن العشرين ..

فعلى مدى السنوات الأربع التى استمرت فيها الحرب فى البوسنة والنرى
لا شك أنها لم تكن حرب أهلية كما يحاول البعض أن يصفها - إذ تدخلت فيها
قوات دول أخرى مثل صربيا وكرواتيا - لم تتمكن قوات محدودة من الأمم
المتحدة ليس من بينها جندى أمريكى واحد - نحو ١١ ألف جندى - فى إنهاء
هذه الحرب أو حتى الحد من عنفها أو من المذابح التى جرت تحت عينها ، بل
إن هذه القوات اتخذت كذريعة لارتكاب العديد من الجرائم فى بعض الأحيان
كما حدث فى سربرينيتسا حيث لم تستطع قوات الأمم المتحدة من حماية أهل
المدينة فذبحتهم قوات صرب البوسنة عن آخرهم تحت سمع وبصر جنود
البيريهات الزرقاء .. على أنه يمكن القول أنه كان لهذه القوات فضل توفير
الحماية فى كثير من الأحيان لمنظمات الاغاثة وبشكل خاص المفوضية العليا
لللاجئين فى توصيل المواد الغذائية لبعض المناطق المحاصرة والمساعدة فى
عدم سقوط سرايفو بفضل القوة المصرية التى كانت تتمركز هناك إلى جانب
صمود أهل المدينة الذى لا يمكن وصفه ..

ومع حلول عام ١٩٩٦ كانت قوات تنفيذ السلام implementation
force (IFOR) قد تسلمت المهمة من قوات الأمم المتحدة .. وعلى الرغم من
اختلاف الظروف التى مرت بكلا القوتين - قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة
UNPROFOR وقوات الناتو التى تدعمها قوات دول أخرى وهى قوات تنفيذ
السلام IFOR - إلا أنه من المؤكد أن قوات تنفيذ السلام التى شاركت فيها ٣٧
دولة وبلغ عدد جنودها ٦٢ ألف جندى ، كانت أقوى بعشرة أضعاف من قوة
الأمم المتحدة مما كان له أثره السريع فى إقرار خطوط الفصل ومنع اشتعال
الحرب من جديد خاصة فى الأشهر الأولى من تطبيق اتفاق السلام .. ولو أن

هذه القوات دخلت البوسنة في منتصف عام ١٩٩٢ لما كانت الحرب قد استمرت طويلا ..

لقد جاء العالم بهراوة ضخمة في يده يفرض بها السلام على المتحاربين ، وكان حجم هذه الهراوة كفيلا بإسكات كل صوت معارض للسلام إلى حين ، وقد استمر عمل هذه القوة لمدة عام كامل ثم تم تغيير اسمها - وليس مهمتها في اعتقادي - إلى قوات الاستقرار (SFOR) staplization force) وهى القوة التى لا تزال تعمل فى البوسنة حتى الآن بعد أن تم تخفيض عددها إلى نحو ٢٣ ألف جندى من ثلاثين دولة .. وقبل نهاية عام ١٩٩٧ أعلنت القوات الدولية أنها ستسحب من البوسنة بحلول يوليو ١٩٩٨ وفى الأشهر التالية بدأت بعض الدول سحب قواتها أو تخفيضها على الأقل وبشكل خاص ماليزيا وأندونيسيا بسبب الأزمة الاقتصادية التى تعرضت لها منطقة جنوب شرق آسيا فى ذلك الوقت ، وبدأ للجميع بعد أن أشيع قرار الانسحاب أن البوسنة على شفا حرب جديدة .. حرب ستكون أعنف من الأولى لأن الوضع كما سبق أن أوضحنا كان قد اختلف كثيرا وأصبح المسلمون والكروات يملكون سلاحا حقيقيا وجيشا منظما - موحدا - بينما أصاب الضعف الجانب الصربى .. لقد بدأت فى تلك الفترة ضغوطا داخلية ظهرت فى ارتفاع عدد حوادث العنف المسلح والهجوم على اللاجئين العائدين .. وظهر أن كارثة أخرى قادمة فى الطريق ..

ولم يكن غريبا أن أعداء السلام كانوا ينتظرون ذلك القرار وأصبحوا أكثر تحفزا من قبل .. وبدأ الاضطراب الداخلى بين المواطنين على الجانبين يتصاعد .. وبدأ زعماء الجانبين - الراغبين منهم فى السلام - يناشدون الناتو الاستمرار والبقاء فى البوسنة .. وفى ذلك الوقت كان معظم مجرمى الحرب لا يزالوا مطلقى السراح .. وفراغ الساحة العسكرية سوف يعطى لهم فرصة العمر فى العودة والقفز على السلطة التى لا تزال ضعيفة وخاصة فى الكيان

الصربى .. وفى الوقت نفسه وقبل أن ينتهى العام ١٩٩٧ كانت بوادر أزمة كوسوفو تلوح فى الأفق ، وبدا لحلف الناتو أنه ينبغى عليه البقاء لسببين .. الأول هو الحفاظ على السلام الذى لا يزال هشاً فى البوسنة .. والثانى هو العمل على منع الرئيس ميلوشيفيتش - فى حالة قيام حرب فى كوسوفو وحدوث مواجهة مع المجتمع الدولى - من تحقيق أطماعه القديمة .

لقد أدى الإعلان عن انسحاب قوات الاستقرار بحلول منتصف عام ١٩٩٨ إلى كشف حقيقة السلام الهشة وأدرك الجميع أنه يتعين على المجتمع الدولى وعلى وجوده العسكرى فى البوسنة أن يستمر لسنوات طويلة قادمة .. وإلا اندلعت الحرب مع رحيل آخر جندي دولى .

كيف يمكن للحرب أن تندلع فى البوسنة ؟ :

فى تقرير أعدته جماعة الأزمات الدولية (ICG) تحت عنوان " سلام أم مجرد وقف لإطلاق النار " وشارك فى إعداده مجموعة من المحللين السياسيين والخبراء فى شئون البلقان ، أشار التقرير إلى أهم الأسباب التى قد تؤدى إلى اشعال صراع جديد فى البوسنة إلا أنه التقرير حذر من أن رسوخ الأفكار القومية يمكن أن تكون أول أسباب إشتعال هذه الحرب " إن السبب الرئيسى وراء احتمال تجدد القتال سيكون هو اختلاف التوجهات بين القوميين من صرب البوسنة والقوميين من كروات البوسنة من جانب ، واستمرار محاولة القوميين من البوشناق انشاء دولة مركزية من جانب آخر " .. " وطالما أن هناك متشددون فى جميع الأرجاء أصابهم الإحباط نتيجة توقيع اتفاق السلام وما حققه من نتائج فإن المرء لا يمكن أن يستبعد احتمال أن البعض يرغب فى جولة جديدة من القتال من أجل إعادة تعديل هذه النتائج مرة أخرى باعتبار القتال هو الأمر الوحيد الممكن لتحقيق ذلك " .

وهناك ما يعزز هذا الاعتقاد .. فمن جانب شهد ربيع عام ١٩٩٧ ثم على فترات متقطعة من بعده مناقشات فى وسائل الإعلام البوسنوية بشأن عدم انصياح جمهورية صربسكا الكامل لتطبيق اتفاق دايتون وخاصة ما يتعلق منها بحرية الانتقال وعودة اللاجئين والمشردين .. وقد رأى البعض أنه فى الوقت الذى يتمكن فيه الاتحاد المسلم الكرواتى من إعادة التوازن لقدراته العسكرية وزيادتها فسوف يكون قادرا بالتالى على تعديل - الأمر الواقع - فيما يختص بعملية التقسيم الإقليمى - الظالم - للبوسنة بالقوة .

وقد حاولت عدة دول أوربية وصحف غربية أن ترسخ فكرة أن المسلمين وحدهم لهم مصلحة فى تجدد القتال .. فمن وجهة نظرهم أن الصرب لا يمثلون سوى ثلث سكان البوسنة إلا أنهم حصلوا على ٤٩ فى المائة من الأراضى وفقا لاتفاق دايتون بينما حصل كروات البوسنة الذين لا يمثلون سوى ١٨ فى المائة من السكان على ٥١ فى المائة الباقية من الأراضى - بالمشاركة مع المسلمين - فضلا عن أن واقع الأمر يشير إلى أنهم لا يزالون يحتفظون بسيطرتهم على كل إقليم الهرسك وهو جزء من الاتحاد المسلم الكرواتى ، الأمر الذى يعنى أنهم يحتفظون باستقلال نسبي عن الاتحاد الذين يشاركون فيه ، وهو إقليم يسيطر على معظم طرق التجارة من وإلى باقى أنحاء البوسنة .. وعلى الرغم من ذلك فلإن المتشددى من كروات البوسنة لا يزالون يشيرون أن هذا الإقليم عرضة للخطر فى حالة قيام حرب ، ولذلك فهم يطالبون دائماً بالاستعداد لرد مثل هذا الخطر ، والغريب أنهم يعتقدون أن هذا الخطر لن يأتى إلا من جانب المسلمين الذين يعرفون جيدا الأهمية الاقتصادية لمنطقة ليس لهم موضع قدم فيها إلا منطقة بيهاتش فى الشمال الغربى للبوسنة .

ولعل الأمر وفقا لسير هذه الأحداث من شأنه أن يشعر المسلمين بالغبن طوال الوقت ويضعهم أيضا موضع الشبهات .. باعتبار أنهم سيكونون على

الأرجح سببا في إشعال الحرب من جديد - إن حدث - وباعتبارهم الخاسر الأكبر من اتفاق السلام .. وعلى أية الأحوال فإن احتمال تجدد الحرب لأى من هذه الأسباب كان مبنيا في الأساس على انسحاب مفاجئ لقوات الناتو دون التوصل إلى إقرار سلام حقيقى ونهائى في البوسنة .

والواقع أنه نتج عن تقسيم البوسنة وفقا لاتفاق السلام ما يشبه الحصار للمسلمين وسط البوسنة .. فهل كان ذلك هو هدف من وضعوا خطة التقسيم وأقصد بهم الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية .. وهو تقسيم لا يختلف في الواقع عن الخطة التي اقترحتها الأمم المتحدة خلال فترة الحرب بتقسيم البوسنة إلى ثلاث كانتونات - أو مناطق عرقية ١ - وفي ظل هذا الوضع الذى خلقه اتفاق دايتون فسوف يتعين على المسلمين باستمرار أن يعلنوا عن حسن نواياهم وبأنهم لن يكونوا البادئين بإشعال حرب جديدة على الرغم من أنهم الطائفة الوحيدة التى ليس لها أطماع فيما يسمى بدولة كبرى للمسلمين على غرار أطماع الآخرين - صربيا الكبرى وكرواتيا الكبرى - كما أنه لا شأن لهم بمزاعم البعض من أن الألبان - وهم مسلمون أيضا - يطمعون في ألبانيا كبرى ، فالعوامل الجغرافية التى جعلت المسلمين يعيشون في جزيرة منعزلة وسط بحر من الطائفية الطامعة تمنع مثل هذه الفكرة .. وسيظل سيف الشك مسلطا على رقاب البوشناق لفترة طويلة قادمة رغم ذلك ليس لسبب إلا لأنهم يريدون - وهو أمر مشروع - أن تصبح البوسنة من جديد وحدة واحدة .. أى دولة نمطية ذات حكومة مركزية موحدة متعددة الطوائف والقوميات والأديان بل والاتجاهات السياسية .. وسوف يكون المحك الرئيسى دائما لصدق نوايا البوشناق وفقا لمعتقدات الغرب هو اللحظة التى يعلن فيها حلف شمال الأطلسي الموعد النهائى لانسحاب قواته من البوسنة .. وهى لحظة يحاول قادة دول الحلف تأجيلها لأقصى مدى ممكن لأنهم يعرفون جيدا أن أطماع المسلمين المزعومة في إعادة التوازن الجغرافى والتاريخى إلى البوسنة لا ترقى بأى حال

إلى أطماع الآخرين فى ضم البوسنة كلها إلى امبراطورياتهم الوهمية .. وخاصة من قبل الصرب مع الوضع فى الحساب أن أطماع الكروات قد انتهت ولفترة طويلة قادمة برحيل صاحب نظرية كرواتيا الكبرى فرانيو تودجمان .

الولايات المتحدة وروسيا

بعيدا عن احتمالات تجدد الحرب فى البوسنة وضرورة بقاء القوات الدولية هناك فإنه باستقراء تاريخ استراتيجيات الدول المعنية بهذه المنطقة يمكن أن نخرج بنتيجة شبه مؤكدة وهى أن خروج قوات مثل قوات الولايات المتحدة أو روسيا على المدى القريب أو حتى المتوسط هو أمر مستبعد نظرا لتوازنات عسكرية ودولية لا علاقة لها بمشكلات الطوائف البوسنية الثلاث أو باحتمالات تجدد الحرب فيما بينها ..

فعندما بدأ عمل قوات تنفيذ السلام فى البوسنة IFOR كانت القوة الضاربة الرئيسية لهذا القوات هى قوة أمريكية ، فمن بين أكثر من ستين ألف جندي كان هناك نحو عشرين ألف جندي أمريكي وعندما تم تخفيض هذه القوة إلى أقل من النصف قليلا اعتبارا من منتصف عام ١٩٩٨ ظل الجنود الأمريكيون يشكلون أيضا نحو ثلث القوة .. وعلى الرغم من أن عدد القوات الروسية كان يقل كثيرا فى الحالتين عن القوات الأمريكية إلا أنهما تركزتا فى أكثر مناطق البوسنة أهمية وهى المنطقة الشمالية الشرقية حيث اختارت القوات الأمريكية مطار مدينة توزلا ليصبح قاعدتها الرئيسية بينما تركز الروس فى نفس المنطقة وعلى مسافة غير بعيدة من القوات الأمريكية ولا يزال هذا الوضع قائما حتى الآن .

ووفقا للتقسيم الذى وضعته قيادة الناتو فقد تم توزيع القوات الدولية على ثلاثة قطاعات رئيسية وهى : المنطقة الشمالية والشرقية وتتولاها القوات الأمريكية ، والمنطقة الوسطى وتتولاها القوات الفرنسية وتضم أيضا القوات

الإيطالية والمصرية - قبل انتهاء فترة عملها فى أواخر عام ١٩٩٨ - والتركىة ، والمناطق الجنوبية والغربية ويتولى قيادتها القوات البريطانية وتضم أيضا القوات الإسبانية والأوكرانية والمغربية - قبل أن تتجه الأخيرة إلى كرواتيا بشكل أساسى - وما يهمنى هنا هو الأمريكيين والروس ، فمن المعروف استراتيجيا أن منطقة وادى توزلا والمناطق الجبلية المحيطة به يعد أكثر المناطق أهمية فى كل منطقة جنوب شرق أوربا .. فتكفى قاعدة عسكرية واحدة تلحق بها قاعدة جوية للسيطرة على أجواء منطقة تمتد من شمال سلوفينيا على الحدود مع النمسا إلى غرب المجر وكل كرواتيا ويوغسلافيا فى الشرق والجنوب وكل سواحل بحر الادرياتيک الشرقية - فى غرب البوسنة وكرواتيا - فضلا عن كل أراضى البوسنة التى لا تزيد مساحتها عن ٥٦ ألف كيلو متر مربع .. ومما لا شك فيه أن اختيار الأمريكيين لهذه المنطقة لتصبح قاعدتهم لم يكن محض صدفة بل أنه كان يمثل حلما أمريكيا طالما كان يداعب قادة قواتها فى أوربا .. وإذا كان القول بأن القواعد الأمريكية فى إيطاليا - أفيانو مثلا - تكفى للسيطرة على كل المناطق المذكورة فإنه من المؤكد أن قاعدة فى البوسنة وفى توزلا على وجه التحديد تعنى خطوة كبيرة نحو الشرق وتعنى فرصة وضع مكان لقدم ثابتة أخيرا داخل البلقان .. وقد جاءت تلك الفرصة مع حرب البوسنة .

وليس غريبا فى الوقت نفسه أن القوات الروسية والتى لم تكن تعمل تحت قيادة القوات المشتركة فى البوسنة وإنما تحت قيادة مباشرة من رئاسة الأركان الروسية رغم أنها كانت تحمل نفس الشارة الدولية IFOR ثم من بعدها SFOR قد تمركزت فى نفس المنطقة بسبب إعلان هو طلب صرب البوسنة ويوغسلافيا نظرا لقربها الشديد من الحدود اليوغسلافية ولسيطرتها على المناطق الهامة فى جمهورية صربسكا .. ولسبب غير إعلان هو نفس سبب بقاء الأمريكيين فيها .

ولقد ظهرت الأهمية الاستراتيجية لتلك المنطقة فى الأيام الأولى لدخول قوات تنفيذ السلام إلى البوسنة فقد أجرت القوات الأمريكية أكبر عملية تدريب يمكن أن تقوم بها وسط ظروف تشبه ظروف الحرب عندما بدأت فى إنشاء الكبارى البديلة للكبارى المدمرة من أجل عبور القوات الدولية عليها إلى داخل البوسنة .. وكان بناء أحد الكبارى على نهر صافا فى تلك المنطقة يمثل تحديا للجيش الأمريكى ، وقد نجح فيه على الرغم من أن العدو الرئيسى لم يكن سوى الظروف المناخية السيئة التى سادت المنطقة فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٩٥ . وعبر هذا التدريب العملى تمكن الأمريكيون من تقدير إمكانيات تدخلهم بقوات أكبر فى ظروف مماثلة إلى قلب البلقان فى المستقبل .

وعلى الجانب الروسى فقد ظهرت جليا خلال حرب كوسوفو فى صيف عام ١٩٩٩ الأهمية الاستراتيجية - التى كان الروس يدركونها - لهذه المنطقة. فعندما قررت الأمم المتحدة دخول قوات دولية إلى كوسوفو لحفظ السلام فى بدايات يوليو من نفس العام انطلقت فى المساء دبابات وعربات روسية تحمل نحو ثلاثمائة جندي كانوا يتمركزون فى المنطقة الشمالية الشرقية من البوسنة فى اتجاه الحدود مع صربيا وعبروها قبل أن يتمكن أى إنسان من أن يفهم مغزى هذا التحرك الغريب .. وعند الصباح فوجئ العالم كله بالقوة الروسية الصغيرة وقد احتلت مطار برشتينا - عاصمة إقليم كوسوفو - وقطعت الطرق المؤدية إليه ومنعت القوات الأوروبية والأمريكية من استغلال المطار كمنطقة إنزال - وقيل وقتها أن المطار كان مخزنا هائلا لأسلحة روسية فتاكة - وكان على الروس أن يصلوا إليها قبل أن يصل إليها الآخرون .. وربما يعزز هذا الاعتقاد ما لاحظته الكثيرون أثناء الأزمة من أن الغارات التى شنتها طائرات الناتو على مطار برشتينا لم تكن بالقوة التى تتناسب مع أهميته أو مع ما شهدته مطارات ومواقع أخرى فى كوسوفا أو حتى داخل صربيا نفسها .. وقد سنحت

لى الفرصة قبل أيام قليلة من بدء الحملة الجوية أن أشاهد مطار برشتينا .. وهناك همس لى صديق من ألبان كوسوفا بأن تحت أرض هذا المطار توجد منشآت ومخازن ربما تحتوى على أسلحة دمار شامل .. وحدد الرجل طبيعة تلك الأسلحة بأنها نووية .. ولم آخذ ذلك على محمل الصدق لعدة أسباب أولها أن الرجل ألبانى وقد اعتبرت أنه ربما كان يبالغ أو ينقل لى معلومات غير أكيدة لتضخيم القوة التى يواجهها ألبان كوسوفو رغم أنه لم يكن بحاجة إلى ذلك ، وثانيها أنه لم يكن معروفا فى أى وقت أن يوغسلافيا كانت تمتلك أسلحة نووية - إلا إذا كان الروس قد وضعوها هناك بالتعاون مع النظام اليوغسلافى لأهداف خاصة - رغم استبعاد ذلك أيضا على أساس أن يوغسلافيا إحدى الدول المؤسسة لحركة عدم الانحياز - وثالثها أن الناتو لم يكن يسمح بأن يتم تخزين أسلحة نووية فى منطقة لا تبعد سوى مرمى حجر عن اليونان وإيطاليا ووسط أوروبا كله .

وما يهمنى هنا هو أن القوات الروسية تمكنت وببراعة تحسد عليها الانطلاق نحو كوسوفا - كما فعلت فى الحرب العالمية الثانية عندما وصلت إلى برلين قبل قوات الحلفاء - لتسبق كل قوات الناتو لتؤكد أمرا واقعا بوجودها وحتى لا تترك الميدان مرتعا للآخرين وذلك انطلاقا من تلك المنطقة الاستراتيجية فى البوسنة التى كان مخططا لدورها قبل سنوات طويلة .

الأمر الثانى وهو الأهم .. أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان الأمريكيون يخططون لوضع أقدامهم فى أهم المناطق الاستراتيجية فى العالم ليس لحصار الصين والاتحاد السوفيتى - السابق - أو روسيا حاليا فقط - وليس لحماية مصالحهم الاقتصادية والسياسية وحدها بل لحصار أى أيديولوجيا يمكن أن تصبح - فيما بعد - خطراً يهدد الغرب بشكل أو بآخر ، وهكذا جرت حروب كثيرة منذ ذلك الحين كان كل الهدف منها هو وضع - قدم ثابتة - فى

نقطة ارتكاز هامة فى منطقة ما من العالم ، وهناك أمثلة واضحة فى قاعدة اوكيناوا فى اليابان والقواعد الامريكية فى ألمانيا وإيطاليا وتركيا بل وبريطانيا نفسها وفى بنما وغيرها وكانت هذه الإستراتيجية وراء حروب مثل كوريا وفيتنام وأفغانستان ولا تزال القوات الأمريكية باقية فى منطقة الخليج العربى رغم انتهاء حرب الخليج منذ عشر سنوات وستظل لفترة طويلة أخرى .. وأخيراً فى البوسنة وكوسوفو .

ووفقا لنظرية القدم الامريكية الثابتة فقد أصبح من غير المقبول عمليا أن توافق الولايات المتحدة على انسحاب قواتها من البوسنة بعد أن وضعت قدمها هناك ، وهو ما يعنى أنها وضعت فى قلب البلقان عصا أخرى غليظة .. ومن غير المعقول أن تنسحب هذه القوات من تلك المنطقة الاستراتيجية قبل أن تدخل باقى دول المنطقة فى عضوية حلف الناتو مثلما فعلت المجر قبل الحملة الجوية ضد يوغسلافيا بأيام قليلة .

إن ما يعنينا هنا هو أن بقاء هذه القوات - بناء على رغبة الاطراف الثلاثة فى البوسنة - سيطيل أمد السلام إلى فترة قادمة وهو أمر سينفى - أو على الأقل سيؤجل - مزاعم الكثيرين فى الوقت نفسه بأن المسلمين وحدهم يريدون خروج القوات الدولية من المنطقة حتى يتمكنوا من إشعال الحرب من جديد لإعادة توزيع الأرض بطريقة عادلة ..



الفصل الرابع

الأمم المتحدة والبوسنة الانحياز

١- ازرع شوكا لا تحصد غير الشوك ..

على مدى أكثر من ثلاث سنوات أمضيته في البوسنة كان يتعين على - وكذلك على كل مصري كان يعمل في البوسنة أو يقوم بزيارتها - أن أنصب من نفسي محاميا عن الدكتور بطرس غالي الذي صادفه حظه العثر ، وربما حظ مصر ، أن يكون أمينا عاما للأمم المتحدة طوال فترة الحرب أو فلنقل طوال فترة الكارثة في البوسنة والهرسك .

كان هناك خلط واضح في أذهان البوشناق - المسلمين - على وجه التحديد بشأن هوية الدكتور غالي .. فهو مصري عربي لكنه - وهنا تكمن المشكلة التي لم يصنعها أحد - مسيحي أرثوذكسي - وهي الطائفة التي ينتمي إليها الصرب على الرغم من اختلاف الكنيسة الصربية عن الكنيسة المصرية - إلا أن الاعتقاد السائد بين كثيرين من مسلمي البوسنة - أنه ولهذا السبب وحده - كان متعاطفا مع الصرب أكثر من تعاطفه مع الكروات - الكاثوليك - بسبب الكثير من القرارات التي اتخذها وأدت في رأيهم إلى تطويل أمد الحرب على حسابهم ، وهو أمر قد يكون مجافيا للحقيقة ويحتاج إلى كثير من البحث .. ولهذا السبب كان دفاعنا عن الدكتور غالي .. ففي مصر حيث ولد وعاش وتربى ليس هناك من ينشأ على عدااء شخص آخر بسبب ديانته أو طائفته أو لونه ، ففي مصر مسلمون ومسيحيون وفي الناس من هو أبيض ومن هو أسود وتجمعهم صفة واحدة هي الانتماء لمصر .. لكن الأمر لا ينطبق وبكل المقاييس في البلقان .. وبشكل خاص على الصرب ولذلك جذوره التاريخية التي لا يمكن أن ينكرها أحد ..

ولعل الخلط الذي لا يزال قائما حتى هذه اللحظة يحتاج إلى توضيح خاصة وأنه أنتج كراهية لا حدود لها للرجل أدت في كثير من الأحيان إلى

النظر على أنه لكونه مصرياً فهو يمثل السياسية المصرية .. وهو خطأ فاحش آخر وقع فيه الكثيرون على الرغم من أنه كان هناك بالطبع من يتفهم الأوضاع على شكلها الصحيح .. وعلى الرغم من أن القرارات التي اتخذها الدكتور غالى كان يمكن أن يتخذها أى أمين عام آخر للأمم المتحدة بغض النظر عن عقيدته أو البلد الذى ينتمى إليه لا سيما وأنه لم يحدث - ولا أعتقد أنه سيحدث قبل أكثر من خمسين عاماً ربما - أن تولى مسلم الأمانة العامة للأمم المتحدة .

ولكن وطبقاً للمثل العامى الذى نطلقه فى مصر فى مثل هذه الأحوال " أنا وابن عمى على الغريب " فقد كان على وعلى كل مصرى فى البوسنة أن يدافع عن موقف الدكتور غالى ، ورغم أنه كانت هناك - بطبيعة الحال - استثناءات من قبل مصريين وعرب كانوا يلعبون على حبل المسيحية والإسلام وفكرة التآمر .. ولم يكن دفاعى الذى لم يطالبنى به أحد عن غالى دفاعاً عنه كشخص وإنما عن فكرة انتمائه لمصر وكأستاذ مسيحي تخرج آلاف من الطلبة المسلمين فى الجامعات المصرية على يديه ، ولا أعتقد أن واحداً منهم شكاً يوماً من أنه كان يسعى إلى إزكاء الطائفية فى مصر أو غيرها ، كما كان دفاعى مصدره هذا الخلط بين كونه مصرياً وكونه مسئولاً أجبرته الظروف على أن يكون - ممثلاً لأفريقيا - على رأس أكبر منظمة دولية على وجه الأرض حتى يمكن أن نقول إنه ولمدة خمس سنوات كان رئيساً للعالم .

لقد كان حزنى بالغاً عندما رأيت الفرحة والسعادة ، بل والشماتة الصريحة التى لم يدارها أحد فى البوسنة عندما فشل الدكتور بطرس غالى فى الحصول على فترة ثانية لتولى أمانة الأمم المتحدة - بما فى ذلك الموقف الرسمى - وعندما اطمأن الجميع هناك إلى أن غالى قد غادر مكتبه فى الدور الثامن والثلاثين من المبنى الدولى فى نيويورك ، تنفسوا الصعداء ، وكانت الفكرة العامة التى دارت فى رؤوس الناس يومها - وخاصة بين المسلمين - أن عدم

فوزه كان عقاب من الله أو ربما انتقام منه لما فعله بالبوسنة وبأهلها ، وهكذا وبدون أن تكون لديه تلك النية فقد حصد الدكتور بطرس غالى الشوك الذى زرعه فى قلوب أهل البوسنة يوم أن قال لهم وهم تحت الحصار والنار " أنتم أفضل حالا من شعوب أخرى مثل الصومال " وبين عشيه وصحائها بعد هذا التصريح قام الصرب بذبح أكثر من عشرة آلاف مسلم فى سربرينتسا وحمل المسلمون غالى مسئولية ذبحهم .. أما الأمر الأكثر غرابة فهو أن الصرب أنفسهم كانوا سعداء لرحيل غالى عن المنظمة فقد اعتقدوا - وهو أمر خاطئ أيضا - أن الأمين العام للأمم المتحدة قد تنازل للمسلمين والكروات عن كل شئ اكتسبوه حتى ينفى عن نفسه تهمة الانحياز . ولعل مشكلة الرجل أنه لم يدرك أن الغريق لا يرى الآخرين ويعتقد أن حالته مهما كان هناك من هو أسوأ منه هي الأسوأ . ولقد حان الوقت أن نحلل ما أدى بأهل البوسنة وفى مقدمتهم الصرب الذين اتهموا غالى بأنه كان يأتى بقرارات تمنحهم الصرب - مزيدا من الأرض والانتصارات والوقت لذبح المسلمين والكروات إلى اتخاذ هذا الموقف وإلى هذا الخلط بينه كمصرى مسيحي وبينه كمسئول دولى كانت وراءه عوامل دولية أخرى أدت إلى ذلك الوضع المأساوى فى البوسنة ، وهو لم يعد الآن سوى شخصية عامة كانت له فى الماضى مواقف وضعت شئ أم أبى فى محكمة التاريخ . وبنفس القدر لم يعد هناك من يمكنه أن ينصب من نفسه محاميا عن غالى فقد دافع الرجل عن نفسه ، وعندما فعل فقد اعترف صراحة فى كتابه " خمس سنوات فى بيت من زجاج " عن فتره عمله بالأمم المتحدة بأنه كان يحمل الجميع - المسلمون والكروات والصرب - مسئولية متساوية فيما حدث - وهو اعتراف يسوى بين الشاه وذابحها .. كما أنه يعنى صراحة أن الجميع كانوا أشرارا بمن فى ذلك الالاف العشرة من المسلمين الذى قدموا رقابهم لجزار الصربى طواعية - من بين مائتين وخمسين ألف ضحية أخرى - لا لشيء الا ليثبتوا للعالم أن الصرب قوم أشرار .

٢ - غالى فى الأمم المتحدة .. كيف ؟

على منذ البداية أن أعترف بأننى شخصيا كنت من أحد المعجبين بالدكتور بطرس بطرس غالى - كسياسى - كان له دخل كبير فى إعلاء اسم مصر وأفريقيا ، وبتعريف المواطنين ليس فى مصر وحدها بل فى أنحاء كثيرة من العالم بمشكلات القارة السوداء - خلال فترة عمله كوزير دولة للشئون الخارجية وقبلها ، وكان اهتمامه بأفريقيا - التى رشحته وساندته فى معركته لتولى منصب الأمين العام للأمم المتحدة - سببا فى الكثير من المشكلات التى صادفها خلال توليه المنصب .

ورغم اختلافى مع الكثير من اراء هذا المعلم الكبير وخاصة فيما يتعلق بإسرائيل فإننى أحترم فكره وتاريخه . وبالرغم من ذلك كله فإنه ليس هناك ما يمنعنى من القول بأنه أخطأ خطأ كبيراً عندما تولى هذا المنصب أو عندما سعى إليه رغم أنه أهم منصب دولى ، وأعتقد أنه تعرض بسبب هذا المنصب إلى الانحياز رغما عنه . ووقع فى دوامة الكبار ولأنه لم يدرك جيداً ومنذ البداية قواعد اللعبة الدولية - رغم حنكته - لغطرسته - كما يقول هو عن نفسه - أو لرغبته فى الاستقلال برأيه وبمنظمته ، فقد اضطر أخيرا إلى أن يترك منصبه مرغما بعد معركة كان من المؤكد أنه الطرف الخاسر فيها .

فى أغسطس عام ١٩٩٢ كنت فى نيويورك مع عدد من الصحفيين المصريين بعد أن أنهينا لتونا دورة دراسية فى كلية الإعلام بجامعة بوسطن ولم يكن قد مضى وقت طويل على تولى الدكتور غالى منصبه كأمين عام للأمم المتحدة .. وكنا خلال تلك الدورة قد التقينا بعدد كبير من السياسيين والإعلاميين الأمريكيين .. وكان من بين ما ناقشناه دور الدكتور غالى فى إصلاح المنظمة الدولية وإدارتها . وللحق فإن معظمهم - وخاصة الذين عملوا منهم فى مصر

لسبب أو آخر - أشادوا بكفاءته وبرغبته الطموحة في إصلاح المنظمة ..
 إلا أنهم وبدون أى استثناء أكدوا أن غالى سينجح إذا ما تمكن من الانضمام إلى
 هيئة موظفى البيت الأبيض ليدبر أعمال الولايات المتحدة من خلال مكتبه فى
 مبنى الأمم المتحدة فى نيويورك .. وهو أمر لم ينجح فيه - أو ربما رفضه
 غالى - فرغم أنه حاول بطبيعة الحال أن يحظى فى البداية برضاء البيت
 البيض عنه سواء عندما كان يحتله جورج بوش أو بعدها مع بيل كلينتون ،
 إلا أن غالى لم يتمكن وبسبب شخصيته الاستقلالية أن يصبح عضوا عاملا فى
 البيت الأبيض الذى منحه - تحت ضغوط دولية - هبة الامتناع عن التصويت ،
 وهى الهبة التى جاءت بغالى إلى الأمم المتحدة وهى أيضا الهبة التى تم سحبها
 منه بعد خمس سنوات ففشل فى الاحتفاظ بمنصبه .

خلال تلك الفترة كان لى حوار طويل مع أحد الصحفيين الأمريكيين والذى
 قال لى ببساطة ووضوح " رغم أن غالى يجمع كل الصفات المطلوبة فى أى
 أمين عام للأمم المتحدة فإنه سوف يفشل فى النهاية لأنه - وبمزيد من
 الصراحة - صنيعة فرنسا ، وربما لا تدركون فى الشرق الأوسط أن هناك
 صراعا خفيا أحيانا وعلنيا فى أحيان أخرى بين الولايات المتحدة وفرنسا ليس
 على زعامة العالم وإنما - وهو الأهم - على زعامة أوروبا .. ففرنسا ومنذ
 سنوات طويلة ، ربما مع بداية حكم الرئيس ديغول تريد أن تكون لأوروبا
 شخصيتها المستقلة فى العالم وهو ما تريده الولايات المتحدة ولذلك فقد وقع
 غالى سواء بعلمه أو بدون علمه بين شقى الرحى ، خاصة وأن فرنسا كانت
 وراء ترشيحه ودعمه بما لها من تأثير على منظمة الدول الناطقة بالفرنسية -
 الفرانكوفون - ولا شك أن صراعا من هذا النوع غالبا ما ينتهى لصالح
 الولايات المتحدة ولا يبقى لفرنسا حين ذاك إلا بعض ردود الفعل غير المؤثرة
 فى أكثر الأحيان " .

ولم يكن غريبا على بعد هذا الحوار بعدة سنوات وبعد أن قادت الولايات المتحدة حملة إخراج غالى من الأمم المتحدة وكرد فعل فرنسى غير مؤثر أن تطلب فرنسا من غالى تولى رئاسة إحدى أهم المنظمات التى ترعاها وهى الفرانكوفون .. ولا يزال الدكتور غالى رئيسا لهذه المنظمة حتى الآن .

وفى أغسطس من ذلك العام - ١٩٩٢ - دعينا للقاء بطرس غالى فى مكتبه بمبنى المنظمة الدولية فى نيويورك .. وكان فى ذهنى سؤال واحد أردت توجيهه إليه .. وكان سؤالى عما يحدث فى البوسنة وعما هو فاعل هناك بقوة لا تكفى لحفظ السلام فى مدينة واحدة ؟ .. ولكن الإجابة جاءتتى ضمنا عندما أكد غالى أنه ليس لديه القدرة على اتخاذ قرار بنفسه فى هذا الشأن ، وعليه أن ينفذ ما يقرره مجلس الأمن . وهو مجلس تحكمه مصالح الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة .. وبالطبع فإن غالى لم يشر إلى فرنسا التى كانت - فى وقت سابق على توليه المنصب - وراء قرار كان له أكبر الأثر على الحرب فى البوسنة وهو قرار حظر تصدير السلاح إلى المنطقة .. على أية الأحوال لقد أدركت فى ذلك الوقت أن أزمة البوسنة والهرسك - التى بدأت تتحول إلى كارثة - سوف تكون فرصة لصراع أوروبى - بقيادة فرنسا - مع الولايات المتحدة ، وأن الصراع الجديد سوف يكون طويل الأمد وأن الولايات المتحدة سوف تحاول الفوز به حتى لو كان الثمن على حساب دماء أهل البوسنة ومستقبلهم .

٣- الشك .. والمؤامرة

إن أكثر القضايا التي أرقّت ولا تزال حتى هذه اللحظة تؤرق المسلمين سواء في البوسنة والهرسك أو في باقي الدول الإسلامية حتى في فترة السلام هي أنه كانت هناك خلال فترة الحرب وما بعدها مؤامرة ضد المسلمين ، وأن ما حدث في البوسنة ليس إلا جزء من خطة أكبر ضد الإسلام .. وقد عزز هذا الاعتقاد ما جرى لمسلمي كوسوفا ورفض الغرب حصولهم على دولة مستقلة عن يوغسلافيا ، كما عززه ما حدث في الشيشان وصمت العالم - بما فيه العالم الإسلامي هذه المرة - عما حدث ويحدث حتى الآن هناك .. وكان الشعور السائد ولا زال هو أن العالم الغربى أو حتى في روسيا أو الصين أو الفلبين أو غيرها من المناطق التي تشهد قدرا من الصحوة الإسلامية لا يريد مزيدا من تلك الدول التي تتعت نفسها " بالإسلامية " فما هو الحال لو كانت تلك الدولة داخل الحدود الاوربية ؟ .. ولعل ألبانيا خير إجابة على هذه التساؤلات وهذه الأهداف .

وما يعنينا هنا هو أنه لسوء حظ الدكتور بطرس غالى وبسبب فلتات لسانه أحيانا - اعتبره الكثيرون اليد التي نفذت الجزء الأكبر من هذه المؤامرة الغربية في البوسنة والهرسك ، وسواء اعتبروه قد نجح في ذلك أو فشل فقد كان يبذل لى أن الدكتور غالى أصبح كبش الفداء .. ولم ينجح هو أبدا في أن يزيل تلك الفكرة من رؤوس مسلمي البوسنة .. فهو كما قلت قد زرع الشك فيهم ، وقد ظل هذا الشك ينمو حتى أصبح يرقى إلى درجة اليقين بوجود مؤامرة ومتمآمرون هو أحدهم .

وينبغي القول أن قضية الشك والمؤامرة لم تكن وفقا على المسلمين وحدهم ، بل شاركهم فيها الكروات وكروات البوسنة وكان - ولا يزال - لديهم انطباع بأنه كانت هناك مؤامرة تحاك ضدهم كجزء من خطة أشمل لتحجيم

فكرة كرواتيا الكبرى التي كان يعلنها على الملأ أحيانا وسرا أحيانا أخرى الرئيس الكرواتي الراحل فرانيو تودجمان .

وحتى أكون منصفاً فإنني سمعت من عدد من القيادات الصربية - سواء في البوسنة أو يوغسلافيا - أن الصرب تعرضوا لمؤامرة شارك فيها بحكم منصبه ورغمما عنه السكرتير العام للأمم المتحدة وقت الأزمة في البوسنة على الرغم من أن ما تعرض له المسلمون الألبان بعد ذلك في كوسوفا - ولم يكن الدكتور غالي حينئذ على رأس المنظمة الدولية بل كوفي أنان - وهو إفريقي أيضاً - لم يكن بأقل مما حدث أثناء الحرب في البوسنة . ولكن يظل الكثير من المثقفين الصرب يدركون زيف فكرة تأمر الدكتور غالي ضدهم على الرغم من أن بعض الشك لا يزال حتى الآن ينبش صدورهم .

بحلول عام ١٩٩٠ وما بعده شهد العالم انتهاء الحرب الباردة بين الشرق والغرب وانهارت إمبراطوريات الشر الحمراء .. وتفتت الاتحاد السوفيتي وانهار سور برلين وتوحدت ألمانيا - ولعلها الوحدة الوحيدة التي شهدتها العالم منذ ذلك الحين - وأثبتت الولايات المتحدة أنها القوى الكبرى الوحيدة في العالم .. وقبل أن ينتهي عقد التسعينيات وينتهي القرن العشرون معه ، انضمت بعض الدول الحمراء السابقة .. وبترتيب زمني محدد إلى حلف شمال الأطلسي - الناتو - وانضمت معظم هذه الدول إلى ما يسمى بالمبادرة من أجل السلام .. وفي بدايات العقد كانت يوغسلافيا الاتحادية بجمهورياتها الست لا تزال أقوى وأكبر الدول - شبه الحمراء - وكان سلوبودان ميلوشيفيتش يزحف بقوة نحو السيطرة على الاتحاد .. وتمكن من ذلك بالفعل في سنوات قليلة .. فقد كانت طموحاته كثيرة وكبيرة مثله مثل أي دكتاتور في التاريخ الإنساني .. فقد كانت طموحاته شخصية أدت في النهاية وقبل أن ينتهي القرن العشرون إلى أن يركع طالبا وقف تدمير ما تبقى من صربيا التي أرادها منذ البداية صربيا

الكبرى وأن يتولى شعبه القيام بثورة بيضاء للإطاحة به إلى الأبد بعد ذلك بعام واحد .

كان لابد وقد بدأت رياح الحرية والاستقلال تهب على أوروبا الشرقية أن تتحطم الدولة الأكبر والأقوى في كل شبه جزيرة البلقان .. وفي إطار خطة كانت قد وضعت بدقة شديدة كان ينبغي تفتيت يوغسلافيا الأقرب إلى وسط أوروبا والمفتاح الاستراتيجي إلى الشرق .. وكانت الخطة تقضى بأن يتم انفصال مقدونيا حتى تضمن اليونان من ناحية الجنوب فاصلا استراتيجيا بينها وبين صربيا - على الرغم من اعتراض اليونان على إطلاق اسم مقدونيا على الجمهورية الجديدة ، وهو السبب الذي من أجله تحمل مقدونيا حتى الآن اسم - جمهورية مقدونيا اليوغسلافية سابقا - وأن تتفصل سلوفينيا وكرواتيا حتى تكون فاصلا بين النمسا وألمانيا وإيطاليا من الشمال والغرب وبين هذه الإمبراطورية الشريرة بحيث يكمل البحر الأدرياتي الفاصل الطبيعي القائم بينها وبين إيطاليا حيث ستكون يوغسلافيا بعد اقتطاع أكثر من نصفها ضعيفة لا يمكنها تشكيل تهديد ما لجيرانها ، أما ما تبقى منها فسوف يتم تدميره بشكل أو بآخر في النهاية ولذلك تم تأجيل البت في قضية كوسوفا إلى آخر هذه الخطة .

وهكذا أوعزت الجماعة الأوروبية إلى سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا بأنها ستضمن مساندتها إذا ما أعلنت استقلالها عن الاتحاد اليوغسلافى مشترطة أن يتم ذلك كله في إطار من الشرعية الديمقراطية أى عن طريق الاستفتاء الشعبى .. وهكذا ، ووفقا للسياريو الذى سبق أن أشرت إليه ، بدأت عملية تفتيت الاتحاد اليوغسلافى .. وهكذا أصبحت سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة .. والواقع أن اعتراف الولايات المتحدة بالبوسنة أيضا قاد إلى اعتراف العالم بها أيضا - وهو حق لشعبها - إلا أنه ووفقا لفكرة المؤامرة التى لا تزال تستولى على أذهان هذا الشعب - وربما

يكون ذلك عن حق أيضا - فإنه من المؤكد أن البوسنة والهرسك لم تكن في حسابان من قاموا بالتخطيط لتفتيت الاتحاد اليوغسلافي .

لم يكن أكثر السياسيين الأوروبيين حنكة ليفكر ولو للحظة واحدة في إمكان قيام دولة إسلامية على حدود أوروبا الغربية .. فأوروبا التي لا تزال متشككة في قدرة تركيا على الاندماج في الاتحاد الأوروبي - رغم أنها دولة علمانية - ليس إلا لأنها دولة إسلامية ، لم تكن لتسمح بوجود دولة يشكل المسلمون أغلبية فيها بإقامة دولة مستقلة يكون للمسلمين فيها القيادة وحدهم .

وعلى الرغم من أن أحدا في البوسنة - غير كبار السن الحاليين - لم يكن يفكر في تلك الدولة الإسلامية ولا وردت على خاطر زعيمها على عزت بيجوفيتش وقت أن قرر إجراء استفتاء الاستقلال .. إلا أن الرعب الذي اجتاحت أوروبا والولايات المتحدة وقبلهم جميعا سلوبودان ميلوشيفيتش كان قد تسرب إلى القلوب .. فمع انتهاء الحرب الباردة واستئناس روسيا كانت قد ظهرت فكرة العدو الاستراتيجي الجديد للغرب ، وكان الإسلام - من وجهة نظر الغربيين - هو ذلك العدو .. ولسوء حظ مسلمي البوسنة أن رغبتهم في الاستقلال وإقامة دولة له جاءت في نفس الوقت .. ورغم استحالة تنفيذ هذه الرغبة عمليا للطبيعة العرقية التي تتميز بها البوسنة ، إلا أنها كانت سببا في اشتعال حرب لم تهدأ في ظني حتى الآن .

على هذا الأساس اشتعلت الحرب الأكثر ضرواة في يوغسلافيا السابقة فقد كان هناك خطا أحمر واضحا لا يمكن تجاوزه .. لا دولة للمسلمين في البوسنة والهرسك .. أى لا دولة للمسلمين في أوروبا .. وإذا كان يحلو للبعض الإشارة لألبانيا على أنها دولة إسلامية - رغم أنها كذلك بالفعل - إلا أنه من الواجب أن نقول إن مثل هذه الإشارة ليست صحيحة من جانبها السياسي .. فخلال حكم أنور خوجة أصبحت ألبانيا واحدة من دول العصور الوسطى تحتاج إلى عشرات

السنين قبل أن تصبح مصدر تهديد من أى نوع لأوروبا .. وهو أمر يختلف بشكل جذرى مع البوسنة التى تمتلك كل مقومات الدولة الحديثة .. فقد كانت سراييفو دائما منارا ثقافيا وحضاريا . ونتيجة احتكاكها المستمر مع دول الجوار الأوروبى من ناحية ومع دول العالم الإسلامى من ناحية أخرى - وحتى أثناء الحكم الشيوعى - فقد كانت معملا لتفريخ العلماء والمنقذين .. وهى كذلك تملك من المقومات الاقتصادية - كما سبق أن ذكرت ما يؤهلها لأن تدخل وعلى الفور فى قائمة الدول الأكثر نموا ويساعدها فى ذلك موقعها .. وباختصار فقد كان من الخطر البالغ أن تترك مثل هذه الدولة فى أيدي المسلمين وحدهم .. وعندما اشتعلت الحرب بدأت عملية منظمة لتدمير كل هذه المقومات حتى وصلت إلى حد الصفر .. وعندما وافق الغرب فى البداية على أن يشارك المسلمون فى حكم أنفسهم فى البوسنة كان هناك الكروات - كروات البوسنة - وكانت هناك وبكل معنى الكلمة دولة صربية ثانية .. وعندما انتهى اتفاق دايتون أخيرا إلى تحديد التولية المقبولة من الغرب جاءت دولة البوسنة - المتعددة الأعراق - دولة ليس لأحد فيها اليد العليا ، لا المسلمين ولا الكروات ولا الصرب الذين أصبح لهم دولة داخل الدولة .

وعمليا فقد انقسمت البوسنة إلى ثلاثة كيانات تكاد تكون منفصلة : أحدهم هو الكيان الصربى - الذى أصبح الآن أسمه جمهورية صربسكا - أو ريوبوبليكا صربسكا - وعاصمته بانيا لوكا وهو كيان لا يزال الكروات والمسلمون يخشون المخاطرة بدخوله - إلا فى حالات الضرورة - وهو ما يفسر عدم عودة مئات الآلاف من اللاجئين منه وإليه .. وكيان كرواتى هو ما تبقى مما كان يطلق عليه اسم جمهورية الهرسك بوسنة التى تم حلها ولا تزال أعلامها - وهى أعلام كرواتيا الأم ولكن بدون رموز المقاطعات الخمس - مرفوعة فى كل مكان منها حتى الآن دون أن يجرؤ أحد على رفع علم الدولة الجديد أو حتى علم الاتحاد المسلم الكرواتى فيه ، ويعتبر الكروات أن

مؤستار عاصمته وهو كيان يدخله المسلمون بحذر - رغم أنه جزء من الاتحاد المسلم الكرواتى - ويخرجون منه بأسرع ما يمكنهم .. أما الكيان الثالث فهو مسلم .. وهو - وبلا أى مبالغة - متاح ومفتوح للجميع .. ولعل ما يحدث فى سراييفو هو أبلغ شهادة على ذلك .

وخلاصة القول أن طول أمد الحرب كان وبلا شك - وفقا لنفس النظرية - كان جزء من الخطة الأوربية لإضعاف البوسنة - وخاصة جانبها المسلم - بعد أن اضطرت الجماعة الأوربية بالإعتراف باستقلالها حتى تصبح فى النهاية كيانا طيعا يمكن تشكيله وقياده بسهولة .. وتصبح ألبانيا ثانية .. معتمدة على الغرب فى كل أمورها .. وهذا أمر واقع لا يزال ساريا حتى الآن ولسنوات طويلة قادمة .

ما هو دور فرنسا ؟

منذ أن وضعت القوات التى تحمل علم الأمم المتحدة أو ما يطلق عليه اسم الخوذات الزرقاء أقدامها فى البوسنة فقد كانت قيادة هذه القوات لفرنسا ، فهى صاحبة أكبر عدد من الجنود المشاركين فى القوة التى أطلق عليها اسم قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة UNPROFOR هو وللأسف الشديد كان أسم هذه القوة مثار سخط العالم كله طوال سنوات الحرب ، فقد كان الهدف المعلن لهذه القوة تأمين عمليات الإغاثة الإنسانية .. ثم تحول هدفها فيما بعد إلى حماية نفسها .. وهو هدف فشلت فيه القوة بعد ما تعرضت له من مهانة على يد قوات رادوفان كارديتش زعيم صرب البوسنة .. وعلى أية حال فقد أصبح قائد قوات الحماية الدولية فرنسا وفى المرة الأولى التى تم فيها فتح مطار سراييفو فى أواخر عام ١٩٩٢ كان الرئيس فرانسوا ميتران - وفى إشارة واضحة إلى

أن فرنسا وليس الولايات المتحدة أو حتى الأمم المتحدة هي التي تقود الأمور في البوسنة - هو الضيف الرئيسى فى حفل إعادة افتتاح المطار - أو ما تبقى منه - وفيما بعد ومع كل مرة يتم فيها تغيير مهمة القوات الدولية فى البوسنة من قوات الحماية ثم قوات تنفيذ السلام IFOR ثم فى النهاية قوات الاستقرار SFOR كانت سراييفو ، ومطارها ، تخضع للقيادة الفرنسية .. ولا تزال أعلام القوات الفرنسية حتى هذه اللحظة ترفرف فوق مباني الجزء العسكرى من مطار سراييفو .

كان شعار فرنسا فى إطار صراعها مع الولايات المتحدة على زعامة أوربا هو أوربا للأوروبيين وأنه لا يحل مشاكل القارة سوى شعوبها .. أما الحليف القادم عبر الأطلسى فعليه أن يحل مشكلات العالم الأخرى ، وكانت رغبة الولايات المتحدة هي أن تؤكد للعالم كله وليس لفرنسا وحدها أنه حتى مشكلات أوربا لن يستطع حلها إلا الولايات المتحدة . وكان لفرنسا مصالحها الخاصة فى المنطقة ، وفى العالم . وعلى الرغم من علاقاتها الجيدة مع كل الدول الإسلامية بما فى ذلك إيران والعراق إلا أنها كانت صاحبة فكرة أن الإسلام هو العدو الاستراتيجى الجديد .. وعندما لاحت فى الأفق احتمالات انفصال المسلمين فى يوغسلافيا بدولتهم كان لابد من إفشال خططهم وردعهم إن أمكن وتحجيمهم فى أسوأ الأحوال .. وفى الوقت نفسه كان مطلوبا وبإلحاح وقف زحف نيران الحرب من البوسنة بحيث لا تشمل أطرافا أخرى والعمل على سرعة إنهاء هذه الحرب حتى لا تكتوى أوربا مرة أخرى بحرب واسعة النطاق ، وفى الوقت نفسه لا تعطى لا لمسلمى البوسنة أو الكروات أو حتى الصرب أكثر من حظيرة واحدة يعيشون فيها معا وكان لابد من تواجدها هناك ولكن بشرعية ما ، ولم تكن هناك أفضل من شرعية الأمم المتحدة وهو غطاء قانونى ودولى يحمل موافقة العالم عليه بما فى ذلك الولايات المتحدة .. وهكذا

نفذت فرنسا ما كانت قد خططت له طويلا ، فقد جاءت إلى البوسنة بغطاء شرعى وبمباركة الولايات المتحدة التى كانت تعمل سرا على إثبات فشل فرنسا التى كانت قد سعت من قبل وفى تزامن محسوب على أن يكون هناك فوق قمة المنظمة الدولية حليف لها ، يستطيع أن يكون أقرب إلى تفكيرها وأهدافها منه إلى الولايات المتحدة .

يمكن لأى مراقب محايد أن يتوجه إلى البوسنة اليوم ليسأل المسلمين هناك عن دور فرنسا أثناء الحرب ، وسيعرف الرد فورا من أى مواطن عاش فترة الحصار . أما السياسيون فسينتابهم الحرج وسوف تكون إجاباتهم مزيجاً من الدبلوماسية والغموض عندما يقولون إن فرنسا بلد عظيم .. لقد كانت هنا طوال الحرب بل وخلال السلام . ولا يزال أهل البوسنة يتساءلون لماذا لم تشارك قوات فرنسية أبداً فى عمليات إعتقال مجرمى الحرب ؟ ولماذا يقوم بهذا العمل قوات بريطانية أو أمريكية أو من دول أوربية أخرى .. رغم أن مدينة بالى التى كان يقيم بها كاردجيتش لا تبعد سوى كيلومترات قليلة من قيادة القوات الفرنسية فى سراييفو ؟

وربما كان من المناسب هنا وقبل أن نخوض فى دور الدكتور بطرس غالى فى البوسنة أن ننوه إلى أن أحد العوامل الحاسمة والهامة فى قضية الشك والمؤامرة التى تعرضت لها البوسنة - ولا تزال - هى الأفكار التى أشيعت عقب صدور " البيان الإسلامى " الذى كتبه فى السبعينيات الرئيس على عزت بيجوفيتش وسجن بسببه عدة سنوات وهو اثنا عشر آخرين من الشخصيات المسلمة من بينهم سيدة هى الدكتورة صالحة .

كان البيان الإسلامى هو الشوكة التى غرزاها على عزت بيجوفيتش فى قلب القادة الشيوعيين فى يوغسلافيا .. إلا أن هذه الشوكة نمت واستفحلت بشكل أكبر فى قلوب الأوربيين الذين ، وإن دافعوا عن حرية التعبير والآمال فى ذلك

الوقت الذى كانوا يخوضون فيه معركة مع الشيوعية ، إلا أنهم لم ينسوه عندما حان وقت تحقيق هذه الآمال ، ففي الوقت الذى اعتبر فيه قادة يوغسلافيا وبشكل خاص فى صربيا أن البيان يدعو إلى إقامة دولة إسلامية تحكمها الشريعة الإسلامية داخل يوغسلافيا فقد اعتبر الأوروبيون - على الرغم من حياد يوغسلافيا - أن البيان هو أحد العوامل الأساسية التى يمكن أن تضرب أساس الفكر الاشتراكى والشيوعى فى شرق القارة وجنوبها وبالتالي يتعين تشجيعه ، لكنهم وعندما بدأ المسلمون يتحدثون عن دولتهم رفضوها فى البداية خوفا من أن يكون البيان الإسلامى هو دستور عمل الدولة المرتقبة وخاصة أن على عزت بيجوفيتش كان قد أصبح حرا بل وأصبح زعيما للبوسنة ورئيسا لجمهوريتها وتعلقت آمال البوشناق عليه فى إنشاء الدولة الجديدة .. وكان من المستحيل عمليا إقامة دولة بهذا المعنى فى البوسنة ولا فى غيرها من دول أوربا ولذلك كان كل ما قيل وقتها لم يكن يعبر سوى عن مخاوف من احتمال - مجرد احتمال - نشوء دولة إسلامية فى المنطقة ، وفيما بعد وافقت أوربا على أن تستقل البوسنة ولكن بشرط - كما سبق أن أوضحنا - ألا تكون هناك يد عليا فيها لا للمسلمين ولا لغيرهم .

وحقيقة الأمر أن الغرب قرأ البيان الإسلامى قراءة خاطئة أو مغرضة على أقل تقدير ، فالبيان فى مجمله كان دعوة لإيقاظ المشاعر الإسلامية لا فى البوسنة وحدها بل فى العالم الإسلامى كله ، ولم يكن دعوة لإقامة الدولة الدينية بقدر ما كان دعوة للوحدة الشعبية والعقائدية والأخوية بين مسلمى العالم .. وباختصار فقد كان البيان الإسلامى مجرد نداء من مسلمى البوسنة للوقوف معهم عندما يحين الوقت - الذى كان قد اقترب كثيرا - لإعلان دولة للمسلمين - وليس دولة إسلامية - فى البوسنة . وكان البيان تأكيدا على وجود "قومية" ثالثة فى يوغسلافيا يتعين على الجميع أن يدرجوها فى حساباتهم القادمة .. ورغم رفض البيان لفكرة القومية بل وانتقادها إلا أنها فى النهاية

كانت الهدف الرئيسى من البيان .. فعلى عزت بيجوفيتش لم يكن مصلحا دينيا أو زعيما يقود جماعة إسلامية على النحو الذى ظهرت عليه جماعات إسلامية متعددة الاتجاهات فيما بعد فى الشرق الأوسط تلك التى وجدت فى العنف وسيلة وحيدة لتحقيق أهدافها سواء المعلن منها أم الخفى ، بل كان سياسيا يطالب لشعبه بحقوق سياسية وعقائدية تضعهم على أولى درجات الاعتراف بهوية هذا الشعب ومن ثم تضعه على أولى درجات سلم الاستقلال .

لقد كان الرجل بعيد النظر إلى أبعد الحدود وقد نجح فيما أراد إلى حد كبير رغم ما تكبده من جراء ذلك من تضحيات .. فبدلا من أن يحصل المسلمون على دولة مستقلة فقد حصلوا على دولة يشاركون بنصيب فى حكمها .. حتى يظهر من جديد من يحاول إعادتهم سيرتهم الأولى .. مجرد طائفة تشكل جزيرة فى بحر من القوميات الأخرى .

وفى حديث للرئيس على عزت بيجوفيتش أثناء الحرب قال " إن البوسنة والهرسك ليست جمهورية إسلامية وإنما دولة يشكل المسلمون فيها ٥٠ فى المائة من السكان ، ونحن ندرك أن جيراننا لا يريدون أن يعيشوا فى دولة إسلامية كما لا نريد نحن أن نعيش فى دول تسيطر عليها المسيحية ، لذا نبحث عن صيغة تكون فيها البوسنة الدولة التى يمكن أن نتعايش فيها كل الأديان وأن يكون للجميع نفس الحقوق والحريات وعليهم نفس الواجبات . نحن المسلمون نستطيع أكثر من غيرنا أن نحقق ذلك " .. ثم توصل إلى الحل الذى كان ينبغى أن تبطل معه كل الاتهامات فقال " إن أفضل وضع للبوسنة إذن هو أن تصبح دولة لكل القوميات " .. وفى النهاية تم الأخذ بهذا الحل فى اتفاقية دايتون للسلام على الرغم من الظلم الفادح الذى لحق بالمسلمين نتيجة هذا الاتفاق وفسر الرئيس البوسنى قبوله لهذا الاتفاق قائلا " إننا لا نملك إلا أن نقبله رغم التضحيات ورغم الخسائر .. ولكن البديل أسوأ كثيراً " .

٤ - صنيعة فرنسية أم صاحب قرار؟

فى العاشر من نوفمبر ١٩٩٤ كان البوشناق قد انتهوا من صراعهم الدامى مع كروات البوسنة ومع كرواتيا وتم إعلان الاتحاد المسلم الكرواتى وفقا لاتفاق واشنطن ، وبدأوا فى تلقى المساعدات العسكرية عن طريق كرواتيا التى اشترطت الحصول على نصيبها من كل ما يدخل البوسنة عن طريق أراضيها سواء كان ذلك سلاح أم معونات غذائية ، وتمكنوا - مسلمو وكروات البوسنة - من أن يحولوا هزائهم إلى انتصارات ، وبدأوا فى استرداد مساحات من الأرض كان الصرب قد استولوا عليها مستغلين النزاع المسلم الكرواتى ومستغلين صمت العالم على ما يحدث .. وعندما بدا أن الكفة بدأت تميل من جديد ضد الصرب ظهر أن هناك من يرفض الوضع الجديد .. وفى هذا اليوم أعلن على عزت بيجوفيتش صراحة " أن الأمم المتحدة تعمل على منع انتصارنا .. أو حتى إنقاذ أنفسنا من الإبادة " .

ولست أريد هنا أن أثبت تواطؤ طرف بعينه فى البوسنة ، كما لا أريد - وهو الأهم - أن أقدم أية أدلة على إدانة الدكتور بطرس غالى وتحميله مسؤولية كل ما حدث ، فعندما أشار بيجوفيتش إلى أن الأمم المتحدة تعمل على منع انتصارنا ، لم يكن يقصده شخصا ، فلم يكن سوى الأمين العام للمنظمة وقتها ، وإنما كان يقصد - فى اعتقادى - دول أوروبا والولايات المتحدة التى استخدمته لتنفيذ إرادتها وبشكل خاص فرنسا . وكان من الممكن أن يتفادى غالى الكثير من الانتقادات بل ويكفى نفسه شر الاشواك التى زرعها - عامدا أو مجبرا - فى قلوب مسلمى البوسنة خاصة وأنه لم يكن له مصالح شخصية هناك مثلما اتهم بأنه كانت له مصالحه الشخصية فى الصومال .

فى كتابه " خمس سنوات فى بيت من زجاج " يتضح أن غالى لم يكن فى كثير من الحالات على إدراك تام بما يحدث فى البوسنة .. فقد شغلته أفريقيا

فيما يبدو فاكتفى بأن أعطى أوامره لقيادة قواته هناك بالتصرف .. وحدد قبلها هدف هذه القوات الأول - والأخير - على أنه حماية القوات لنفسها .

يعتبر غالى - فى كتابه - أن مسألة اعتراف الدول الأوروبية باستقلال سلوفينيا وكرواتيا عن الاتحاد اليوغسلافى كانت " حماقة دبلوماسية ، على الرغم من أن هذا الاعتراف - لم يكن وحده - محرك الانفجار فى البوسنة .. التى رغبت فى الاستقلال أيضا " . كما يعتبر أن الأمم المتحدة كانت ضحية هذا الاعتراف الأحمق الذى أدى إلى الحرب ، فيقول " كانت أخطار الوقوع فى الفخ ظاهرة .. وكانت السوابق التاريخية والثقافية والقانونية - يصعب التعرف عليها .. وفى مواجهة هذه الحرب المحيرة والمنقلبة .. أثرت الولايات المتحدة عدم القيام بدور قيادى وكذلك فعل الأوروبيون .. وبدلا من ذلك دفعت الأمم المتحدة إلى الخطوط الأمامية " .

كان ذلك هو الهاجس الذى كان يعتمل فى صدر الدكتور بطرس غالى وتم استخدامه فى جميع المراحل القادمة حتى نهاية عام ١٩٩٥ ، كان الهاجس هو أن الدول الأوروبية كانت ترغب فى التضحية بجنود الأمم المتحدة فى حرب البوسنة بدلا من جنودها ، وأعتقد أن القراءة الصحيحة لهاجس غالى هو أن الولايات المتحدة كانت ترغب فى التضحية بجنود دول أوروبا وباقي دول الأمم المتحدة بدلا من جنودها . ولكن هذا الهاجس نفسه هو الذى أدى فى النهاية إلى أن تصبح قوات الأمم المتحدة مجرد (ديكور) بحيث لم تعد تستطيع حتى حماية أفرادها من أن يقيدوا بواسطة قوات كارادجيتش إلى الأشجار دون أن يتمكن أحدا من إنقاذهم ، ولعل الحسنة الوحيدة التى قامت بها هذه القوات هى عمليات الإغاثة التى قامت بها وهى الحسنة التى يمكن أن نذكر بها أى دور للأمم المتحدة فى أزمة البوسنة .

وفى اعتقادى أن الدكتور غالى الذى كان يميل بشكل كبير تجاه الحل التفاوضى للأزمة فى البوسنة باعتباره رئيس منظمة دولية تعمل على حفظ السلام فى العالم - على الرغم من أن اتجاهه هذا لم يكن قويا تجاه الصومال - رغم إدراكه باستحالة هذا الحل مع صرب البوسنة - كان يبحث فى الوقت نفسه عن مبرر للابتعاد عن إرسال قوات عسكرية - بمعنى الكلمة - لتعمل على فرض الحل بالقوة أو على الأقل فرض السلام بالقوة وهو ما فعله فى كمبوديا عندما بعث بأكبر قوة عسكرية فى تاريخ الأمم المتحدة لفرض السلام هناك . فالسلام - كما كان يقول غالى نفسه فى مفاوضات السلام بين مصر وإسرائيل - تلزمه قوة تحميه وتنفعه بل وتقود إليه . وكان موقفه لذلك واضحا منذ البداية فقد اعتبر قضية استقلال البوسنة قضية خاسرة ، وعلى الأقل بالنسبة للمسلمين ، وذلك لإدراكه بخلفية الرفض الأوروبى لوجود دولة لهم ، ولذلك فقد أكد من البداية أنه يتفق مع المبدأ القائل " أننا لا نعتبر ما تقوم به الأمم المتحدة من حفظ السلام وسيلة لإنقاذ القضايا الخاسرة .. نستخدمها فى خضم الأزمة طوعا أو كرها عندما تفشل كل المحاولات الأخرى " (*) وهو المبدأ الذى صاغه جون بولتون مساعد وزير الخارجية الأمريكية أمام الكونجرس فى ٢٥ مارس ١٩٩٢ .

كان الأمين العام للأمم المتحدة يرغب منذ بدء القتال فى البوسنة ومع بدء حصار سراييفو فى مايو ١٩٩٢ ألا تكون قوات الأمم المتحدة هى الشرعية الوحيدة لوقف حمام الدم الذى تأكد أنه سيستمر طويلا .. كان يريد للآخرين وبشكل خاص الولايات المتحدة إنهاء الصراع ، وهو ما كانت ترفضه فرنسا ومعها دول أوروبية أخرى . وما كانت ترفضه الولايات المتحدة - على الأقل فى بداية الأحداث - حتى تخسر أبنائها فى معركة لم تتضح معالمها بعد .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٢ .

ويعترف غالى بأنه تلقى من مبعوثه إلى البوسنة مارك جولدنج تقريراً عن الأوضاع في سراييفو وبدوره نقل غالى إلى مجلس الأمن في الثاني عشر من مايو ١٩٩٢ التقرير الذى يقول " يتفق جميع المراقبين الدوليين على أن ما جرى هو جهد متضافر من جانب صرب البوسنة والهرسك بتواطؤ من الجيش اليوغسلافى ويقدر من المساندة على الأمل من إيجاد مناطق (نقية عرقياً) .. وأن الأسلوب المستخدم هو الاستيلاء على الأراضى بالقوة العسكرية وإرهاب السكان من غير الصرب ، وقد أثار إبرام اتفاق جزئى لوقف إطلاق النار بين الزعماء الكروات والصرب فى ٦ مايو ١٩٩٢ الشكوك مجدداً بشأن اقتسام الكروات والصرب للبوسنة والهرسك .. مع ترك مساحة ضئيلة ، للطائفة الإسلامية - كذا - التى تمثل نسبة كبيرة من السكان (٤٤ فى المائة) . وأن الموقف فى البوسنة والهرسك مأساوى وخطير ومضطرب ويموج بالفتنة " (*) .

ولا شك أن مثل هذه التقارير لا يمكن تأويلها بمعان أخرى حتى لو مرت سنوات على صدورهما ، وبمعنى آخر فإن هذا التقرير على وجه التحديد يمكن أن يربك أى شخص بعيد عما حدث فى البوسنة وفى نيويورك فى ذلك الوقت ، فمعنى ذلك أن الأمين العام كان يدرك حجم المأساة وحجم ما يواجهه المسلمون من مؤامرات ومخاطر كان أبعدها وبلا أدنى مبالغة خطر الإبادة ، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك اتهم جميع الأطراف - بما فى ذلك الطائفة الإسلامية - بأنها لا تحترم الأمم المتحدة وموظفيها .

وفى محاولة لتبرير هذا السلوك الغريب من جانبه أورد غالى فى كتابه دليلاً هاماً - فى اعتقاده - على أن المسلمين وحدهم كانوا وراء مطالبته مجلس

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٣ .

الأمن بعدم إرسال قوات لحفظ السلام في البوسنة ، فقد استشهد بما كتبه مجلة الايكونوميست في ٢٣ مايو ١٩٩٢ قائلة " أن الميليشيات الإسلامية قد هاجمت بوحشية قافلة تحت قيادة الأمم المتحدة بعد أن أوقعتها في كمين ، ولكن المجلس - مجلس الأمن - تجاهل تحذير الأمين العام واتخذ قراره بإرسال قوات مسلحة لحماية القوافل بون مناقشة احتياجاتها العسكرية" (*) .

ويعتذر الدكتور غالي كثيرا بما أوردته مجلة الاوكونوميست في نفس اليوم من أنه أي غالي الذي ظل لسنوات طويلة مهندس السياسة الخارجية المصرية ليس من النوع الذي يبصم على قرارات يتخذها غيره .. ولذلك فسوف نعتبر أن غالي كان دائما صاحب قرار ، وليس صنعة فرنسية أو أوروبية كما حاول البعض أن يقول .. وإذا ما اعتبرنا أن رأى الشخص هو قرار خاص به فإنه يتعين علينا أن ننظر وبدقة إلى رأى الدكتور غالي في أطراف النزاع .. فعندما التقى اللورد بيبتر كارينجتون - مبعوث الجماعة الأوروبية إلى البوسنة وقتها - عقب عودته من البوسنة في يوليو ١٩٩٢ مع الأمين العام قال له " إذا أردت أن أقدم صورة حديثة عن الوضع الحالي في البوسنة والهرسك فإن معظم الناس يرونها تتمثل في ضغط على المسلمين المساكين وتصرفات شريرة من جانب الصرب .. ووقوف على الحياد من جانب الكروات .. والواقع أن الصرب أشرار ولكن هذا ينطبق أيضا على كل الآخرين .." ويعقب غالي على ذلك بقوله " كنت أميل إلى الاتفاق معه على هذا الرأى فقد بدا أن الدول الغربية ترى أن الصرب وحدهم هم المخطئون ، في حين كنت أشعر بأنه ليس هناك طرف في البوسنة لا يتحمل جزءا على الأقل من اللوم على هذا الصراع الشرس" (*) .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالي .. خمس سنوات في بيت من زجاج . ص ٥٤ .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالي .. خمس سنوات في بيت من زجاج . ص ٥٥ .

لقد فهم مسلمو البوسنة كثير من الإشارات التى حاول الأمين العام للسكرتير العام للأمم المتحدة إرسالها للعالم على أنها محاولة منه لكسر شوكتهم ، خاصة وأنه كان يدرك جيدا طبيعة الوضع العرقى فى البلقان ، كما فهموا هذه الإشارات على أنها محاولة من جانبه للتآمر الضمنى مع الصرب - الأرثوذكس - والكروات - الكاثوليك - ضد الإسلام . وسواء كان ذلك صحيحا أم غير صحيح وهو على الأرجح بل أستطيع أن أؤكد أنه غير صحيح ، إلا أننا يتعين أن ندرك أن هذا هو الاعتقاد الذى يؤمن به مسلمو البوسنة حتى الآن .. ولقد كان لموقف مسلمى البوسنة ما يسائده من وجهة نظرهم .. فقد عملت الأمم المتحدة منذ البداية على حظر توريد السلاح إلى المنطقة وعندما أرادت بعض الدول الإسلامية تزويد المسلمين بالسلاح للدفاع عن أنفسهم ، واجهتهم قرارات المنظمة الدولية ، وعندما طالبوا غالى بالتدخل لمنع إبادة مسلمى البوسنة .. رفض .. وهو يعلل ذلك بقوله " إن العالم الإسلامى كان يريد أن تخوض الأمم المتحدة الحرب ضد الصرب بالنيابة عن مسلمى البوسنة " (*) فهل يمكن إقناع مسلمى البوسنة بأن رفض هذا المطلب المشروع - حمايتهم من الإبادة - خاصة مع رفض تسليحهم - لم يكن قرارا بالسماح للصرب بأن يذبحهم .. كما حدث ؟ .

كان غالى يبحث عن يؤيد آراءه إزاء الوضع فى البوسنة بعد أن فقد تأييد كارينجتون فى مؤتمر لندن عام ١٩٩٢ ووجد ضالته فى اللورد ديفيد أوين وزير الخارجية البريطانى الأسبق الذى عينته المجموعة الأوروبية مفوضا لها بشأن يوغسلافيا وكان كلاهما يرى أن اللوم يجب أن تتحمله كل الأطراف فى يوغسلافيا السابقة . وقام أوين بجهد مشترك مع سايروس فانس - وزير

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٥٧ .

الخارجية الأمريكى الأسبق - ممثلا للأمين العام فى وضع خطة للسلام كانت تقضى بتقسيم البوسنة إلى ثلاث (كانتونات) لكل طائفة من الطوائف الثلاث على أن تكون سراييفو كيانا مستقلا يشارك الجميع فى حكمها ، وحازت الخطة قبول الأمين العام لأنها كانت تعكس فى أرض الواقع حقائق أوضاع المجموعات السكانية المختلفة على حد تعبيره .. لكن تلك الخطة نفسها كانت بمثابة حكم بالإعدام على جمهورية البوسنة والهرسك الموحدة .. ولم يكن يستفيد منها فى الواقع غير الكروات الذين لا يشكلون سوى أقل من ١٨ فى المائة من عدد سكان البوسنة ثم الصرب - نحو ٣٤ فى المائة - ولذلك رفضها المسلمون .

لماذا رفض غالى الحرب ضد الصرب ؟

فى غضون عشرة أسابيع فقط ما بين أوائل سبتمبر وأوائل نوفمبر من عام ١٩٩٥ كان ريتشارد هولبروك المبعوث الأمريكى الجديد إلى البوسنة قد ظهر على الساحة وتمكن فى تلك الفترة القصيرة أن يتولى زمام الأمور ليس فى البوسنة وحدها بل فى كل يوغسلافيا السابقة ولسنوات خمس بعدها قبل أن تتم مكافأته ليصبح المندوب الأمريكى الدائم لدى الأمم المتحدة . . وخلال تلك السنوات التى تولاه فيها مسئولية البلقان أثبت هولبروك أن الولايات المتحدة - وليس غيرها - هى القادرة على قيادة العالم سواء الحرب أم السلام ..

فى تلك الفترة القصيرة تمكن المبعوث الأمريكى من تحييد الأمم المتحدة بل وأوربا أيضا ، واستطاع أن يصيغ اتفاق نهائى للسلام ، وإنهاء الحرب فى البوسنة ، وعلى الرغم أن الانتصار الذى حققه الدبلوماسى الأمريكى لم يكن وليد جهوده وحده بل بجهود دولته التى استطاعت خلال الأشهر الأخيرة من ذلك العام من تغيير الصورة على أرض الواقع بعد أن قررت أخيرا ممارسة بعض الضغط على الصرب حتى يقبلوا اتفاق السلام . لكنه فعل ذلك أيضا بعد

أن أجبر الأمم المتحدة أن تعلن حربا جوية على الصرب . تلك الحرب التي رفض الدكتور غالى طويلا أن يخوضها بهدف إنهاء الحرب .

فى بداية عام ١٩٩٣ تولى بيل كلينتون مهامه كرئيس للولايات المتحدة ومنذ تلك اللحظة أصبح الصراع بين الولايات المتحدة والأوربيين بشأن البوسنة سافرا ، وكان الوضع على الأرض يقول إن معظم قوات الأمم المتحدة مشكلة أساسا من جنود فرنسيون وبريطانيون .. فى الوقت الذى استمرت فيه الولايات المتحدة فى سياستها بعدم تعريض جنود أمريكيين للخطر ، وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت ضغوطها على أوروبا والأمم المتحدة من أجل إنهاء الحرب فى البوسنة . وقد استمرت هذه الضغوط أكثر من ١٨ شهرا ، وفى النهاية اضطر الأوربيون لقبول التدخل الأمريكى - ممثلا فى الناتو - وأنهت الضربات الجوية سيطرة الصرب وأعلن الدكتور غالى رغم ذلك أن الأمم المتحدة ليست فى حرب مع الصرب .

كان غالى - من وجهة نظر مسلمى البوسنة - وكأنه يعتذر عن اضطرار منظمته لقبول الضربات الجوية على الصرب ، وربما كان قبوله أخيرا لهذه الضربات هو إدراكه أنه سوف يكون كبش الفداء الذى قدمه الغرب للعالم فى الحرب التى أوشكت على الانتهاء وأنه ومنظمته سيكونوا المسؤولين عن مأساة البوسنة .

ومما لا شك فيه أنه خلال عام ١٩٩٣ كله كان هناك انطباع بأن الأمين العام للأمم المتحدة يحاول عرقلة القيام بعمل عسكري دولى ضد صرب البوسنة وأنه يماطل فى اتخاذ مجلس الأمن مثل هذا القرار ، ولعله كان للدكتور غالى عذره فى ذلك الوقت فهو رجل يرأس منظمة مهمتها الأولى هى الحفاظ على السلام والتوصل إليه بكل السبل السلمية ، ولكن مع مرور الأيام كان الصرب يثبتون أنهم لن يتوقفوا عن استكمال هدفهم بالسيطرة على جميع أجزاء البوسنة

وكانوا يتقدمون يوما بعد يوم إلى أن وصل ما يسيطرون عليه إلى ٧٠ في المائة من أرض البوسنة وهو ما كان يعنى فى النهاية أن إمكانية التفاوض والتوصل إلى حل سلمى أصبحت أمرا مستحيلا . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت ضغوط الأوروبيين - وعلى الأرجح الفرنسيين - تتجه إلى عدم الوصول بالأمور فى البوسنة إلى مواجهة مسلحة مع الصرب .

وكانت مسألة التدخل الجوى هى القضية التى كشفت ما يعتقد مسلمو البوسنة بأنه كان هناك انحياز يرقى إلى درجة المؤامرة ضدهم .. فقد أصر غالى على أن يكون قرار طلب المساعدة الجوية من قوات الناتو فى يده ، ثم تنازل لقادته العسكريين فى البوسنة عن هذا الحق بحجة أنهم يستطيعون تحديد وقت طلب المساعدة .. فقد كان ما يريده هو حماية قواته فى البوسنة بينما كان الآخرون يتطلعون إلى أن تحميهم الأمم المتحدة والمساعدة الجوية وتمنع تقدم الصرب للاستيلاء على مزيد من الأرض وارتكاب المزيد من المجازر . وكان منطق غالى هو أنه يتعين على الأمم المتحدة أن تظل بعيدة عن الانحياز وربما لم يكن يدرك أن هذا المنطق نفسه كان بمثابة انحياز تام للأقوياء .. أما مسلمو البوسنة فيعتقدون حتى الآن أنه كان يدرك ذلك .

طوال ذلك العام كانت الولايات المتحدة تطالب بشدة بالتدخل الجوى ، وهو مطلب كان يقابل بالرفض من قبل الأوروبيين الذين كان جنودهم فى الميدان وكانوا مهددين بالانتقام من قبل الصرب فى حالة تعرضهم لضربات جوية أو هكذا كانت الصورة التى أرادوا إقناع العالم بها ، وعندما وافقت الولايات المتحدة على قبول استئثار غالى بحق تقدير القيام بضربات جوية فى البوسنة ضد الصرب بناء على طلب القيادة العسكرية فى الميدان ، لم تكن تعلم أن غالى لن يستخدم هذا الحق أبدا حتى نهاية العام ، إذ أن قادته العسكريين - من الفرنسيين - لم يجدوا حاجة لتدخل جوى !! .

وهكذا واصل غالى - لسبب غير مفهوم - عناده فى عدم المطالبة بوقف المذبحة التى يتعرض لها المسلمون فى كل مكان على أرض البوسنة وقد أدى هذا العناد إلى أن سقطت اثنتان من المناطق الست التى اعتبرتها الأمم المتحدة مناطق آمنة إلى جانب سراييفو وتوزلا وبيهاش وجوراجدة . ولم يحدث أن تدخلت طائرات عسكرية تابعة للنااتو فى البوسنة سوى فى ابريل ١٩٩٤ وتحت ضغوط دولية هائلة لمنع سقوط مدينة جوراجدة التى تجمع فيها عشرات الآلاف من المسلمين الفارين من المناطق المجاورة ، لكن هذه الضربة التى تلتها ضربة واحدة أخرى بسبب وقوع ياسوشى اكاشى - اليابانى - مبعوث غالى فى البوسنة - وبالتالى وقوع الأمين العام للأمم المتحدة نفسه - فى حبال الفخ الصربى التى كان يحكيها وبأقتدار رادوفان كارادجيتش خاصة وأن الاثنين - غالى وأكاشى - كانا لا يتقان كثيراً فى استجابته لوقف إطلاق النار .

والغريب أن رفض عمليات تدخل طائرات النااتو العسكرية لوقف المذابح الصربية ضد مسلمى البوسنة كان وراءها بالأساس الجنرال برنارد جانففيه قائد القوات الفرنسية وقوات الأمم المتحدة فى البوسنة ، وبعد انتهاء الحرب ومغادرة جانففيه البوسنة ظهرت اتهامات كثيرة لهذا الجنرال الفرنسى بأنه كان يقضى معظم أمسياته فى ملهى ليلى فى ضاحية فوجوشتشا التى كان يسيطر عليها الصرب خارج سراييفو . وعلى الرغم من أنه لم يتم التحقيق أبداً فى أن هذا القائد الفرنسى كان يؤتى له بفتيات مسلمات لقضاء الليل معهن . ورغم أن هذه كانت فيما يبدو مجرد شائعات وقت الحرب إلا أنها صارت يقينا فى عقول البوشناق بعد الحرب .. وما قيل عن القائد الفرنسى قيل عن قادة فرنسيين آخرين بل أنه طال الفرقة الإيطالية العاملة فى سراييفو نفسها - والتى اتهمت هذه المرة بإدارة شبكة للدعارة من الفتيات الصغيرات المسلمات - ورغم أن

التحقيقات برأت الفرقة الإيطالية إلا أن مجرد إثارة هذه الأمور كان يعكس مدى ما كان يشعر به المسلمون من ظلم بسبب ظروف الحرب .

وقد حمل المسلمون الجنرال جانفبيه وآخرين من القيادات الفرنسية الكثير مما أصابهم وأنهم كانوا وراء كل القرارات التي اتخذها غالى في البوسنة خلال فترة تواجد هذا الجنرال ، على أننا ينبغي أن نؤكد أنه مهما كانت قدرات القائد العسكرى فى الميدان إلا أنه من جانبه لا يستطيع إلا أن ينفذ ما يصدر اليه من توجيهات القيادة السياسية فى بلاده .. وفيما بعد اعترف لى عدد من الضباط الايطاليين العاملين فى سراييفو - والذين رغم الشائعات - كان يحظون بقدر من الاحترام بين مواطنى سراييفو على وجه الخصوص - أنه لولا وجود الكتيبة المصرية فى العاصمة أثناء الحرب لازداد عدد ضحايا الحرب من المسلمين والكروات المحاصرين إلى أضعاف مضاعفة .

وكما قلت فقد أدت سياسية غالى أكاشى إلى أن تصبح سياسية قوات الأمم المتحدة فى البوسنة وهدفها الأساسى هو حماية أفراد هذه القوة ، وأدت أيضا إلى إجبار قوة هولندية كانت مكلفة بإحدى المناطق الآمنة وهى سربرينتسا إلى أن تخون شرفها العسكرى بأوامر من الجنرال جانفبيه وتتخلى عن نحو عشرين ألف مسلم لتمارس قوات الصرب وحشيتها ضدهم ليسجل التاريخ وقوع أكبر مذبحه فى تاريخ أوروبا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية - إن لم تكن أكبرها فى تاريخ العالم الحديث .

وفى عام ١٩٩٩ بدأت تتكشف - فى هولندا - بعض حقائق ما حدث - وظهرت وثائق تدين وزارة الدفاع الهولندية لدورها فى هذه المذبحة .. وبدأت حملة فى هولندا تطالب بالكشف عن دور جنودها فى هذه الكارثة . ولكن ولأسباب غير مفهومة تم و بسرعة إغلاق هذا الملف رغم محاولات البعض فتحه من آن لآخر .

ونتيجة لضغوط الولايات المتحدة والمجتمع الدولي تخلى الأمين العام للأمم المتحدة فى النهاية عن عناده بعد أن خرجت الأمور من يديه لتنتولاها الولايات المتحدة ، فوافق على إجراء ضربات جوية فى نهاية أغسطس ١٩٩٥ وبعدها وبعده أسابيع فقط أمكن للأطراف فى البوسنة توقيع اتفاق سلام ، بعدما أدرك الجانب القوى أنه فقد ميزة القوة .

ويقول الدكتور بطرس غالى عن هذا التحول الأخير " فى أواخر صيف ١٩٩٥ ومع الهجوم الكرواى - ضد كرايينا - الذى وفر قوات المشاة الضرورية على الأرض ، ومع ضربات الناتو الجوية التى حولت ميزان القوى لغير مصلحة الصرب وغيرت نسبة الأرض التى يسيطر عليها كل جانب .. توافر الدافع ولأول مرة لدى صرب البوسنة للتفاوض .. ومع ارتباط القوة أخيرا بالدبلوماسية .. أصبح فى الإمكان إجراء مفاوضات جادة .. وتقدم (ريتشارد) هولبروك فى إطار هذا الوضع الذى تحول تحولاً كلياً ، وفى غضون ما بين ثمانية وعشرة أسابيع خرج باتفاق لوقف إطلاق النار ، وبتسوية أصبحت تعرف باسم اتفاق دايتون " (*) .

أما الأسئلة التى يتعين علينا أن نطرحها الآن فهى عديدة ، ومن بينها : ماذا لو أن هذه القوة ارتبطت منذ البداية بالدبلوماسية ؟ وماذا لو أن الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا قد تخلت عن مخاوفها طوال ثلاث سنوات واستخدمت القوة ؟ وماذا كان يحدث لو أن غالى تخلى عن عناده ؟ والإجابة عن كل هذه الأسئلة تتلخص فى أنه كان يمكن إنقاذ حياة عشرات الآلاف من الأشخاص ووقف التدمير .

(*) الدكتور بطرس بطرس غالى .. خمس سنوات فى بيت من زجاج . ص ٢٨١ .

وفى اعتقادنا أن الولايات المتحدة وبطرس غالى اشتبكا منذ البداية فى معركة كان ميدانها فى البوسنة ثم فى الصومال ثم فى أروقة الأمم المتحدة ، ورغم احترامنا وتقديرنا للدور الذى قام به غالى ممثلاً لإفريقيا - ولمصر - فى قيادة أكبر منظمة دولية فى أكثر فترات الإنسانية تحولا وتغيرا .. ورغم احترامنا وتقديرنا لرفضه - البقشيش - الأمريكى بالمد فترة أخرى مقابل أن يصبح موظفا فى البيت الأبيض برتبة أمين عام للأمم المتحدة . إلا أنه يتعين أن نعترف بأن غالى الذى كان - كما رأينا - يمثل الجانب الأوروبى فى صراعه على زعامة العالم مع الولايات المتحدة ، لم يكن الأداة الجيدة لتناول هذا الصراع .. ونتيجة لذلك فقد زرع فى قلوب الكثيرين سواء فى البوسنة أو فى الصومال - أو حتى فى مصرأ - كثير من الشوك الذى أدمى قلوبهم ، ولم يفز هو فى النهاية سوى بمنصب يقل كثيرا عما كان يتولاه أو يستحقه بتاريخه الكبير كرئيس للفرانكوفونية .





الفصل الخامس

صحفى فى مهمة رسمية

أكثر من صحفى

من المعروف أن المهمة الأولى لأى صحفى فى العالم هى نقل الأحداث التى تقع فى مكان ما من العالم إلى باقى أنحاء العالم ، وخاصة إلى مواطنيه ، فهو ينقل إليهم وبأمانة وحيدة هذه الأحداث وتأثيراتها ، ثم أنه يقوم بتحليل ما خفى منها لجمهوره أو جمهور المؤسسة الصحفية التى يعمل بها ، ويكون الصحفى محظوظا إذا ما خدمته الظروف لأن يكون قريبا من صانعى القرار أو الأحداث .. ولكنه أحيانا ما يجد نفسه شاهدا أو شريكا فى أحداث غالبا لا يستطيع التحدث عنها إلا بعد مرور وقت طويل .

وفى البوسنة حدث أن وجدت نفسى وسط عدد من الأحداث ورغمما عنى أحد صانعيها ، على الرغم من أن مهمتى الأولى هى أن أنقلها فقط إلى الآخرين . وفى كثير من الأحيان كانت تلك المهام التى اضطلعت بها تتسم بالخطورة البالغة وأحيانا بالحساسية التى لا يمكن تقدير عواقب الاقتراب منها .

فى صيف عام ١٩٩٧ كانت قرارات المجتمع الدولى قد استبعدت رادوفان كارديتش من زعامة جمهورية صربسكا .. ولم يعترف صرب البوسنة بالقرار ، وتم حظر ظهوره فى جميع وسائل الإعلام فى الدولة بكيانها باعتباره مجرم حرب ومطلوب محاكمته .. وأصبحت بليانا بلافشتش رئيسة للكيان ، ولكن المتشددون الذين كانوا يعتبرون أن "بالي " ، تلك القرية الصغيرة التى تقع على مقربة من سراييفو وكانت طوال فترة الحرب وما بعدها مقرا لمجرم الحرب وقياداته المدنية والعسكرية ، هى مقر الحكم .. ورفضوا الانتقال إلى بانيالوكا التى أعلنتها بلافشتش عاصمة لجمهورية صربسكا ، وكانت هناك فى

الوقت نفسه محاولات غربية تقودها الولايات المتحدة بهدف دمج صرب البوسنة في الأمور العامة للبلاد وزيادة مشاركتهم في المؤسسات المشتركة مقابل زيادة الدعم والاعتراف بالكيان الصربي .. وبدأت اتصالات ممثلي المجتمع الدولي بالحكومة هناك في محاولة من أجل إقناعها بضرورة التخلي عن كل ما كان يمثلته كارادجيتش من تطرف وطموحات توسعية .. وفي البداية باءت تلك المحاولات بالفشل ، لكن لعبة العصا والجزرة التي مارستها الدول الغربية في النهاية جاءت ببعض الثمار .. ببطء لكن بنجاح محدود .

كانت مصر من بين تلك الدول التي سعت إلى تقديم مساعداتها لجميع الأطراف في البوسنة من أجل تأكيد وحدة أراضيها والمساواة بين طوائفها - بمن فيهم الصرب - وبالتالي لم يكن هناك ما يمنع من إجراء اتصالات مع الأطراف الصربية .

وفي صيف ذلك العام وصل إلى البوسنة وفد مصري كان يرأسه السفير محمود السعيد وكان مسئولاً في ذلك الوقت عن الصندوق المصري للتعاون الفني مع دول الكومنولث والدول الأوروبية المستقلة حديثاً ، وكان الوفد يضم عدداً آخر من مسؤولي وزارة الخارجية ، وكان من بين أهداف الزيارة الالتقاء مع المسؤولين الصرب في معقلهم في بالي .. تلك القرية التي أعلن منها جميع القرارات التي حولت البوسنة إلى جحيم .

كان السفير أحمد عبد الرحمن أبو طالب قد قام بترتيب الرحلة .. وكان معروفاً سلفاً أنها رحلة خطيرة بكل المقاييس ، ولم تكن المسافة بعيدة .. وفي قاعة الاستقبال في فندق الهوليداي إن كان الجميع يجلسون عندما دُعي السفير أبو طالب لمكالمة هاتفية ، وعندما عاد كانت تعلو وجهة ابتسامة عريضة واتجه ناحيتي ، ولم أكن أعلم حتى ذلك الوقت أنني سوف أشارك في الرحلة ، وهمس

فى أذى " هل ترغب فى زيارة بالى ؟ " ولم يكن هناك متسع من الوقت للتفكير ، وما هى الإدقائق وكان الموكب قد تحرك فى طريقه إلى بالى .

وهكذا كان أربعة من المصريين يمثلون وفدا هو الأول من نوعه الذى يقوم باتصال مباشر مع قيادات صرب البوسنة فى معقل دارهم .. السفير أبو طالب والسفير محمود السعيد وأحد موظفى الخارجية وأنا أصحابنا مترجم السفارة - وكان طبيباً سورى الأصل وحصل على الجنسية البوسنوية خلال فترة دراسته هناك - وانقسم الفريق إلى ثلاث سيارات ، كان السفيران فى إحداها وهى سيارة جيب مصفحة كانت هى السيارة الخاصة بكارل بيلت الممثل الدولى فى البوسنة وقتها والذى قام بترتيب الرحلة ، والأخريان كانتا تابعتين للشرطة الدولية تحملنى إحداها والمسئول الشاب واثنتين من الضباط الدوليين إحداهما هندية والآخر أكرانى وأيضاً مترجمة بوسنوية ، أما السيارة الثالثة فقد كانت تحمل المترجم وضابطين آخرين من ضباط الأمم المتحدة . وتحركت السيارات الثلاث ترفرف عليها أعلام الممثل الدولى والأمم المتحدة بصورة ظاهرة ، وعند خروجنا من باب الفندق كان المصريون الواقفون فى وداعنا ينظرون إلينا ومشاعر قلق عنيفة تجتاحهم .

اخترق الركب شارع تيتوفا حتى وصل إلى النفق الذى يفصل حدود سراييفو - الاتحادية - وسراييفو الصربية ، وكان النفق حتى ذلك الوقت مغلقاً بشكل جزئى بأكوام من الحجارة والسيارات المدمرة وكان مظلماً بالطبع ، وأثناء عبورنا تذكرت ما قاله لى عبده حبيب وزير الداخلية وقتها من أن النفق كان طوال الحرب تحت حراسة الكتيبة المصرية ، وكانت نقطة الحراسة تلك معرضة دائماً لقصف المدافع الصربية ، وفى إحدى مرات القصف سقطت القنابل على نقطة الحراسة وسقط أربعة من الجنود المصريين شهداء وكانوا أول شهداء مصريين فى البوسنة .

وعلى الرغم من أن مسألة تذكرى لهذا الحادث قد ضاعفت من قلقى باعتباره فألا غير حسنا ، إلا أننى قررت الاستمرار إلى النهاية .. وعبرنا النفق وبعد لحظات مررنا بلافتة كانت تشير إلى بداية حدود سراييفو الصربية .. نحن إذن فى الأراضى الصربية وكانت تلك هى المرة الأولى التى أمر فيها بهذا الطريق الذى يعد فى الواقع الطريق الرئيسى بين سراييفو وبلجراد . على يمين الطريق وعلى عمق بعيد كان يجرى نهر ملييتسكا وعلى جانبى النهر ارتفعت قمم الجبال وهناك فوق كل مكان مستو بين صخور الجبال كان يوجد منزل مدمر ، وعلى الرغم من ذلك فإن مشهد الطبيعة الساحر بكل تلك الأشجار شديدة الاخضرار و قمم الجبال العالية كان كفيلا بأن ينسينا مهمتنا .. وبأن حربا انتهت قبل أشهر قليلة وأن هذه المنطقة كانت تشكل خط الحرب الأمامى لكلا الجانبين .

كان الطريق نفسه غير ممهد بسبب عشرات المعارك التى جرت فوقه خلال محاولات الصرب التقدم منه لاحتلال سراييفو ، وكنا نستطيع أن نرى آثار جنازير الدبابات والحفر الناتجة عن انفجار القنابل الضخمة ومعظم أجزاء السور الحديدى على جانب الطريق قد دمرت مما جعل الرحلة محفوفة بمخاطر إضافية فضلا عن أن بعض الصرب المسلحين كانوا يكمنون فى مناطق على جانبى الطريق لمنع السيارات التى تحمل علامات سراييفو من المرور ، فقد كان الطريق هو نفسه الذى يتجه إلى مدينة جوراجدة المسلمة فى الشرق عبر أراضى الكيان الصربى . وقد تعرض كثير من السيارات وخاصة تلك التابعة للأمم المتحدة لإطلاق النار عليها ، الأمر الذى ضاعف من شعورنا بالقلق كلما توغلنا فى الطريق .. وحتى أقطع الصمت الذى خيم على الأشخاص الخمسة فى سيارتنا رحت أتحدث - بالانجليزية - عن جمال تلك المنطقة وفجأة قالت الفتاة البوسنوية بلغة صربية حازمة " هذه بلدنا " وسألنى الشاب المصرى عما

تقول فترجمت له بالعربية ما قالتها وأضفت موضحا أنها من الجانب الآخر فأدرك أنها صربية فطلب منى الصمت أو التحدث بالعربية . ولم تمر سوى دقائق قليلة حتى كان الركب قد وصل إلى بالي . نحن إذن في مقر قيادة كارادجيتش وفي المكان الذي صدرت منه جميع أوامر القتل والتدمير والذي أديرته منه كل العمليات ووضع كل الخطط العسكرية .

بالي قرية صغيرة لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة ، وقد أراد لها صرب البوسنة أن تكون سراييفو الصربية بل أنهم أطلقوا عليها بالفعل هذا الاسم الذي لا يزال معمولاً به حتى الآن لكي تصبح عاصمة للكيان الجديد . ورحلت أدقق النظر حولي ، فعلى الرغم من أن الدمار لم يكن سائدا هنا بأى شكل إلا أن الوجوه كان يبدو عليها الفقر الشديد والإرهاق ، نفس الوجوه في كل مكان في البوسنة . كانت الحرب قد أنهكت الجميع .. وعلى الرغم من ذلك كان شعورهم بالبغضاء تجاه القادمين الغرباء ملحوظا .. وعندما ترجلنا أمام مقر الحكومة وهو مبنى صغير مكون من دورين يقع على الطرف الجنوبي للمدينة كانت سيارات الشرطة تحرس المكان ، وبمعنى آخر كانت تحرس القادمين ، كانت الملاحظة الرئيسية لجميعنا أن أفراد الشرطة الصربية كانوا يرتدون زيا مموها باللون الأزرق كذلك الذي يرتديه أفراد الوحدات العسكرية الخاصة فلم يكن يبدو عليهم أنهم من أفراد الشرطة المدنية .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها وفد من دولة عربية أو إسلامية بزيارة هذا المكان منذ بدء الحرب وأحسست أنني كنت على موعد مع القدر والصدفة ، ودخلنا إلى مقر الاجتماع ، كان قد تم الاتفاق على أنني المسئول الإعلامي بالسفارة وقد طلبت هذه الصفة لأنني كنت أظهر وبشكل يومي في التليفزيون الصربي ضمن الصحفيين الذين يشاركون في المؤتمرات الصحفية

التي يعقدها ممثلو المنظمات الدولية في البوسنة .. وفي الاجتماع كان هناك اثنان من الوزراء الصرب أحدهما من الحكومة المركزية للبوسنة والثاني من حكومة صربسكا وعدد من مستشاريهم .. وراح السفيران المصريان يشرحان وجهة نظر مصر من هذا الاتصال واستعدادها لإشراك الكوادر الصربية في برامج التدريب التي تقدمها للبوسنة وعن استعدادها لفتح ذراعيها لأى نوع من التعاون شريطة أن يتم ذلك فى إطار البوسنة الموحدة .. وطلب الصرب أن يكون التعاون ثنائيا كالذى يتم بين أى دولتين ذات سيادة .. كانوا يتحدثون وكأنهم يمثلون بلجراد وبنفس الأسلوب الذى تعلموه ومارسوه دائما .. المراوغة .. ومحاولة إثبات ما اختلفوا مع العالم بشأنه وهو الاستقلال ، كانوا يرددون تعبير جمهورية صربسكا وكأنها عضو دائم فى مجلس الأمن الدولى . وطال الاجتماع لأكثر من ساعتين ، كانوا يحاولون شرح وجهة نظرهم والإيحاء بأن المسلمين فى الاتحاد المسلم - الكرواتى يأخذون كل شىء وكأن الاتحاد لم يكن يضم الكروات أيضا - كان العداء واضحا ، ومحاولات الوقعة بين المسلمين والكروات واضحة ولم ينس الصرب أيضا أن يحملوا المسلمين مسئولية كل ما حدث فى البوسنة .. وشعرت بأن النتيجة التى توصلت اليها قبل قدومنا قد تحققت .. الفشل .. فالمتشددین من صرب البوسنة فى ذلك الوقت كانوا يحاولون إلقاء تبعة انهيارهم الاقتصادى على كل من يمد إليهم يدا ، ورفض السفيران هذا المنطق ، وكان الأمر واضحا ، إما بوسنة موحدة أو لا تعاون .

وعلى الرغم من فشل الجانب الصربى فى فهم الرسالة التى سبق لمبعوثين غربيين إرسالها لهم إلا أننا كنا قد نجحنا فى دخول بالى وكسر الحاجز الوهمى الذى حاول الصرب إحاطة أنفسهم به وهو الرهبة والقوة ، والإيهام بإمكانية إقامة الدولة الصربية الثانية المستقلة .

وعندما عدنا في المساء إلى سراييفو كان التلفزيون الصربي يضع الاجتماع في مقدمة نشراته الاخبارية .. وبعدها كان زملائي من الصحفيين البوسنويين ينظرون إلى على أنني مغامر وأنتى أستحق التقدير للمحاولة وأن بلادى تستحق التقدير لرفضها تجزئة البوسنة حتى لوكان ذلك موقفا سريا .. وكانت تلك هى أيضا المرة الأولى التى أطلب فيها من صحفيين بوسنويين أن ينشروا رأيهم هذا فى صحفهم .. وقد فعلوا .

لقاء مع رئيسة صربسكا

لم يمر وقت طويل على رحلتنا إلى بالى عندما أعلنت بيليانا بلافيشيتش رئيسة صربسكا عن قرارات تستهدف تهدة خواطر المجتمع الدولى وإيداء استجابة وقدر من المرونة من أجل إنقاذ اقتصاد الكيان الذى كاد يصل إلى الصفر ، فأمرت بإعلان بانالوكا مقرا للحكم فى جمهورية صربسكا وقامت بنقل البرلمان وأجهزة الإدارة ومحطة التلفزيون الحكومية الرسمية .. كان لهذه القرارات رد فعل مريح بين المسلمين والكروات .. فقد ابتعدت الإدارة الصربية عن أكتاف سراييفو مئات الكيلو مترات ولم يعد هناك إلا سراييفو واحدة ولم تعد بالى إلا مجرد ضاحية من ضواحي العاصمة لا تضم سوى محطة إذاعة صربية كانت تطلق على نفسها اسم راديو صربسكا سراييفو ومحطة تليفزيون خاصة كانت تديرها ابنة كارادجيتش . وعقب تلك القرارات بدأ الغرب فى دعم بلافيشيتش باعتبارها معتدلة ، وحث باقى دول العالم على تشجيع الاتجاه الجديد فى صربسكا .. خاصة فى وجود رئيس وزراء فى الكيان كان يوصف هو الآخر بأنه معتدل وهو ميلوراد دوديك الذى كان يبدو بالفعل مواليا للغرب على الرغم أنه كانت لا تزال تحكمه فى بعض الأحيان نفس النعرات القديمة بضرورة اعتبار صربسكا جمهورية مستقلة عن البوسنة . وكانت مصر فى

طليعة تلك الدول التي راحت تستكشف إمكانات تعزيز فكرة الوحدة والاندماج التدريجي بين كياني الدولة البوسنية .. وهكذا جاءت الرحلة الثانية .

كانت الترتيبات مختلفة تلك المرة .. ولم يكن أعضاء السفارة المصرية في سرايفو يزدون عن ثلاثة دبلوماسيين على رأسهم السفير وبعض أفراد الحراسة .. وكان ذلك بالفعل من حسن حظي ، فقد اتصل بي السفير أبو طالب وبطريقته المميزة في إثارة حاستي الصحفية ليسألني (تحب تقابل بلافتش ؟) وكانت الاجابة قاطعة أن نعم . قال : في الخامسة صباح الغد نلتقي في السفارة . وهكذا بدأ وفد مصرى صغير مكون من السفير والمهندس سرى سليمان مدير مكتب شركة المقاولون العرب في البوسنة الذى كان يتولى تنفيذ عمليات الاعمار التى تسهم بها مصر في البوسنة ومنى في رحلة طويلة إلى بانيا لوكا .. تجمع ثلاثتنا في سيارة السفير وسيارة أخرى خلفنا كان هناك مترجم السفارة والمترجمة التى تعمل معى واثنان من حرس السفارة .. وفي الخامسة صباحا كنا نخترق أراضى الاتحاد المسلم الكرواتى تجاه الشمال ، وبعد نحو ساعتين ونصف بلغنا حدود الكيان الصربى قرب مدينة زفورنيك الشهيرة وهى منطقة كان يسيطر عليها الصرب وقت الحرب ثم أصبح يسيطر عليها جنود القوات الدولية من أوكرانيا وروسيا والولايات المتحدة ، فقد كانت أيضا أكبر نقطة تفتيش وأهمها بين الكيانيين البوسنيين .. وعلى الجانب الصربى كانت تنتظرنا سيارتا شرطة صربيتين ، قادتنا الأولى وهى تطلق سارينتها بلا انقطاع وسارت الأخرى فى الخلف ، وبدأت مغامرة جديدة .

كانت تلك هى المرة الأولى التى يرتفع فيها علم مصر على سيارة السفير ونحن نقطع أراضى صربسكا .. كان اعتزازى بالعلم الصغير الذى يرفرف على جانب السيارة كبيرا ونحن نسير بسرعة لاتقل عن ١٣٠ كيلو مترا فى الساعة . ولاحظنا بعد فترة قصيرة أن سيارتى الشرطة كانتا تتغيران كل نصف

ساعة فى ترتيب دقيق ومنظم ودون أن يتوقف الركب أو حتى يقلل من سرعته على طريقة سباقات التتابع .. كان يتم تسليم الركب من مدينة إلى أخرى وفى الفترة بين كل عمليتي تغيير كنا نتحدث ونشاهد على الجانبين آثار الدمار فى كل مكان فمررنا بمدن كنا نسمع عنها خلال الحرب بعد سقوطها فى أيدي القوات الصربية ، وكان أكثرها دمارا مدينة بريدور .. أما القرى فقد دمر عدد كبير منها عن آخره . تلك كانت قرى المسلمين .. وتكررت عملية تغيير سيارات الشرطة خمس مرات وصلنا بعدها إلى بانيالوكا .. وعندما وقفت السيارة أمام بوابة مقر الرئاسة كان الوفد يعامل معاملة وفد رئاسى .. كنا قد وصلنا قبل موعدنا بنحو نصف ساعة بسبب سرعة السيارات وكانت بلافتش لا تزال فى اجتماع مع المفوض السامى فى البوسنة بينما كان رئيس الوزراء - دوديك - فى النمسا .. ومن ثم كان أمامنا وقت كاف لنلقى بنظرة على المدينة وعندما نقل السفير رغبته إلى رئيس الحرس الصربى المصاحب لنا شعرنا بارتباكهم إلا أنه كان ينظر إليه فى الوقت نفسه على أنه رجل شجاع وأمر بزيادة عدد أفراد الشرطة المصاحبين لنا فقد كانت الشوارع مزدحمة بالعاطلين واللاجئين الوافدين على العاصمة الجديدة على أمل حل مشكلاتهم .. وبدأنا نقرأ العيون ، فقد كانت المدينة تعرف من هو الوافد عليها اليوم بسبب سارينة سيارات الشرطة وعلم مصر المرفوع على سيارة السفير .. رحنا نتمشى فى الشوارع القريبة من مقر الرئاسة الذى يقع فى وسط المدينة .. كان الجميع ينظرون إلى الوجوه الشرقية بدشة وتعجب ومحاولات لفهم ما يحدث .

بانيالوكا هى ثانى أكبر مدن البوسنة والهرسك بعد سراييفو ، ولكنها كانت المدينة الوحيدة وبدون أى استثناء آخر التى خرجت من الحرب دون أى أثر للدمار فيما عدا اختفاء مساجدها التى تم تسويتها بالأرض واختفت تماما عن الأنظار .. فلم تشهد المدينة الحرب بمعناها المعروف .. كان السكان الصرب

قبل الحرب يتمتعون بأغلبية في المدينة ، وكان يعيش فيها نحو ثلاثين ألف مسلم لم يبق منهم يوم زيارتنا سوى ألفى شخص .. ولذلك فقد بقي كل شيء في المدينة على حاله وجماله .. فقد كانت المدينة جميلة حقا .. وقد علمنا بعد ذلك من مفتى بانيالوكا أن المدينة أصبحت تتمتع بنقاء عنصري بلغت نسبته نحو ٩٥ في المائة وهي نسبة لا تسبقها فيها إلا مدينة سربرينتسا التي أصبحت نسبة النقاء العنصري الصربي فيها مائة في المائة ، ولا تزال تلك النسب سارية حتى الآن .

كانت شوارع المدينة مزدحمة بالأشخاص الذين يسرون على مهل واكتظت المقاهي بالآلاف الرواد أما في المحلات التجارية فقد كانت نسبة المشترين تكاد تكون معدومة . وحتى ذلك الوقت كانت نسبة البطالة في الكيان الصربي قد وصلت إلى اثنين وثمانين في المائة ، وهو ما كان يشكل أكبر نسبة بطالة في العالم كله . وكان متوسط الدخل الشهري للفرد لا يتعدى ٦٥ ماركا ألمانيا - أي نحو مائة جنيه مصري تقريبا - وهو وضع أدى إلى انخفاض كبير في أسعار السلع القليلة المعروضة في تلك المحال .. وإذا فقد كانت تلك هي حالة ما يطلق عليه اسم عاصمة الكيان .. وكانت الأمور أسوأ بكثير في مناطق أخرى من الكيان . على أية حال فقد انتهت جولتنا بسلام وعدنا لمقر الرئاسة وفي أذهاننا جميعا صورة مبنى - نارودنا بانكا - أو البنك الوطني ذو الطراز النمساوي بتمثيله النحاسية الضخمة المقامة أمام بوابته الرئيسية التي كانت قد أغلقت بسبب الإفلاس .

كان لقائنا برئاسة الكيان الصربي وديا للغاية .. جلسنا في الصالون التقليدي الملحق بمكتبها الذي غطت جدرانه صور لشعارات وشخصيات صربية قديمة ، وخلف المكتب العتيق كان هناك علم الكيان الصربي يغطي الحائط كله

بألوانه الزرقاء والبيضاء والحمراء يتوسطه صليب يحمل كل ضلع منه نصف دائرة بيضاء تقترب به كثيرا من الصليب النازي المعقوف .

راحت بلافتش تستعرض تاريخ مصر ويوغسلافيا وعلاقات الصرب بالمصريين والتعاون القديم في كل المجالات .. كانت تريد أن تشعرنا بأنها تمثل يوغسلافيا أو كأننا في جزء من يوغسلافيا .. ولم تفارقها ابتسامتها قط . وعندما تحدث السفير كان مثله مثل أى قائد عسكري يفضل الدخول إلى قلب الموضوع مباشرة دون تردد . وهكذا حدد من جديد شروط التعاون مع الكيان الصربي في ظل قياداته الجديدة . ولم يتحدث عن أية تفاصيل .. وأحسست أن السفير يتجنب أن توجه إليه الرئيسة أسئلة بعينها . وبعد نصف ساعة غادر السفير الغرفة وبقيت مع الرئيسة ومعنا مترجمتى الخاصة وكنا قد اتفقنا على أن أجرى حوارا معها عقب اللقاء الرسمي . وعندما كنت أرافق السفير إلى خارج مكتب الرئيسة قبل لقائى معها قال لى " كما رأيت ، كان لقاؤنا روتينيا .. إننى أترك الباقي لك .. خذ وقتك معها وسأنتظرك أمام المبنى .. وقبل أن أعود إلى بلافتشيتش من جديد ربت السفير على كتفى قائلا .. " لا أعرف ماذا ستسألها ولكن لا تخشى شيئا .. كلها إن شئت ! " .

كان أغرب لقاء صحفى أجريته طوال عملى الصحفى .. فمنذ البداية كنت أعرف من هى بيليانا بلافتشيتش .. كانت تشغل منصب نائب رئيس الكيان السابق ومجرم الحرب رادوفان كارادجيتش .. وكانت تفاخر دائما بأنها كانت شريكة له فى كل شيء بما فى ذلك مسؤوليته عن تدمير ٨٥ فى المائة من كل البوسنة ، كانت مسئولة عن الحرب جنبا إلى جنب مع باقى القيادات الصربية التى أمرت بحرق قرى المسلمين والكروات بشكل بشع طوال سنوات الأزمة الكارثية . كنت أشعر للمرة الأولى بتضارب كبير بين مشاعرى كمسلم عايش

معاناة البوسنة وأهلها وبين مشاعري كصحفي محترف على وشك أن يقوم بعمل صحفي غير مسبوق .. وسمحت لمشاعري كصحفي أن تتغلب في النهاية .

عندما طلب المجتمع الدولي أن يطرد كارادجيتش من القيادة الصربية كشرط لتقديم المساعدات الاقتصادية والاعتراف بالكيان كسلطة مستقلة داخل البوسنة .. لم يجد - كارادجيتش - سوى بلافتش كخليفة مناسب له .. لكن الأمور تغيرت بسرعة .. وتحولت الصداقة بينهما إلى عدااء سافر ، فقد كانت ترى أنه حان الوقت لأن يعترف صرب البوسنة بالواقع وبمتطلبات السلام وبدء الاندماج من جديد مع المجتمع الأوربي والدولي ، والأهم من ذلك كله الاقتراب من الطرف الآخر في الدولة والتخلي عن السياسات المتشددة التي اتبعتها الحرس القديم - وهي أحد أطراف هذا الحرس - حتى يمكن الخروج بالكيان من أزمتة الاقتصادية الطاحنة . وهكذا أعلنت التزامها بتطبيق اتفاق السلام بكل بنوده دون شروط .

بليانا بلافتش صربية أرثوذكسية تبلغ من العمر ٦٨ عاما - في ذلك الوقت - كانت في ملامحها تشبه إلى حد كبير جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل الراحلة ، كانت تتحدث بهدوء مبالغ فيه وبكلمات بسيطة ، ربما بسبب لغتها الانجليزية المتواضعة ، لكنها - شأنها شأن أى من قيادات صرب البوسنة - متمسكة في أعماقها بحق الصرب التاريخي في الأرض والسيادة في البوسنة .

كنت قد أعدت لها قليلاً من الأسئلة حيث حدد لى رئيس مكتبها نحو ١٥ دقيقة فقط .. لكن لقاءنا امتد لنحو الساعة - بناء على طلبها - فقد كانت تدرك أن مصر لها مكانتها ، وكانت تدرك أن تحسين صورة صرب البوسنة في المنطقة العربية والإسلامية لن يتم إلا عن طريق مصر والإعلام

المصري .. وقد وجدت لها فرصة لأن تبعث برسالة إلى الجمهور العربى وهى رسالة لم تستطع بشكل كامل أن تنقلها إلى السفير المصرى .

عندما طلبت من المترجمة التى كانت تعمل معى طوال فترة عملى فى البوسنة أن تبدأ فى ترجمة أسئلتى ، وكنت أتحدث بالانجليزية ، تدخلت بلافتش قائلة أننى أفهمك جيدا ، دع الحوار يكون مباشرا والتفتت إلى المترجمة وسألتها عن اسمها فأجابتها ، أليسا بلوتشو ، ورددت بلافتش الاسم .. ثم سألتها مجددا .. أنت من سراييفو ؟ وعندها ردت الفتاة بإصرار لم يخلو من عناد أنا مسلمة من بلدة هراستسا فى سراييفو ، وهنا قالت رئيسة الكيان الصربى للفتاة : طبعا أعرفها .. ثم وبابتسامة واسعة استطرد قائلة " سالتقى فى سراييفو قريبا " وأتبعنها بتعبير بوسنوى يعرفه الجميع من الطوائف الثلاث (AKO BOGDA) ومعناه : إذا أراد الله : ونظرت الفتاة إليها بابتسامة مقتضبة دون تعليق . وعندما غادرتنا مكتبها قالت لى أليسا إن بلافتش سوف تأتى إلى سراييفو ، فهى عندما تقول شىء تعنيه ، وبعد هذا التاريخ بثلاثة أشهر زارت بلافتش سراييفو لمدة ساعة واحدة بعد أن خرجت منها قبل ثمانى سنوات ، وماتزال تمتلك شقة فى وسط العاصمة وربما تعود إليها من جديد مرة أخرى .

ما قالته لى بلافتش كان مفاجأة لى .. فقد كشف حديثها عن الكثير من علاقات الدول الإسلامية - مثل ليبيا والعراق وتركيا - مع الكيان الصربى ، وعن مدى علاقات الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة مع الكيان ، ومن المؤكد أن علاقة الصرب مع روسيا كانت قد تقلصت إلى حد كبير ربما أثار سخط بلجراد أحيانا كما فهمت من بلافتش .

كانت بلافتش تدرك جيدا أنه بدون الصرب فلا سلام .. لكنها كانت تدرك أيضا أنه بدون أوروبا والولايات المتحدة فلا مستقبل لجمهورية

صربسكا .. وهكذا راحت تتحدث عن محاولاتها إصلاح العلاقات مع الغرب .
وعندما سألتها عن علاقتها بالدول الاسلامية ومصر قالت " أن تاريخ الصرب
الطويل يؤكد رسوخ هذه العلاقات ، وأن الكثيرين من الصرب يعملون فى ليبيا
والعراق ، وأن هناك مشروعات كثيرة مع تركيا كما أنه ليس لدينا خلاف مع
"إيران " !! وهاتان الدولتان - تركيا وإيران - ستقومان بتنفيذ عدد من
المشروعات الاستثمارية على المدى القريب فى صربسكا وقد زارنى سفراء
تركيا وماليزيا وليبيا وسيأتى سفير إيران - وقد حدث - أما مع مصر فقد
أنشأنا معا حركة عدم الانحياز .. وسوف أزور مصر بمجرد أن توجه لى
الدعوة " .

كانت بلافتشت تتحدث وكأنها رئيس يوغسلافيا وليس كرئيس لكيان يشكل
جزءا من دولة أخرى هى البوسنة والهرسك . وعندما نهبتها إلى ذلك ابتسمت
وراحت تستكمل حديثها . وعندما قلت لها إن السلام لن يحل فى البوسنة إذا لم
يُسَلِّم كارادجيتش للعدالة قالت " هذا الأمر يحدده الشعب الصربى ووفقا لدستور
الجمهورية فلا يمكن تسليمه .. لقد قاد كارادجيتش كفاح الشعب الصربى !!
وأخشى أنه لن يكون هناك من يجرؤ على اعتقاله وإلا فسيكون لذلك عواقب
خيمة كما أخشى أنه لن يسلم نفسه طوعية " .

كان ذهنى قد شرد إلى سراييفو وأنا أحدث رئيسة الكيان الصربى وكنت
أُتخيلها تتجول فى شوارع سراييفو وتزور شقتها هناك .. وعندما نقلت إليها ما
أفكر فيه قالت "سيحدث يوما ، ربما عندما ينسى الآخرون الجراح " .. وعندما
غادرت مكتبها كنت أفكر فى عدد السنين التى يمكن أن ينسى بعدها الآخرون
تلك الجراح ، وجائتنى الإجابة سريعا فقد قالت لى المترجمة البوسنوية وهى
تعلق على قول بلافتشيش بنظرة كلها إصرار " أما عنى فلن أنسى تلك
الجراح .. وسأعلم أبنائى ألا ينسوها " . ووجدت السفير ينتظرنى أمام مبنى

الرئاسة . واستفسر بسرعة عما فعلت وكان موعدنا مع وزير اقتصاد الكيان قد حان واكتشفنا بعده أن الجميع فى صربسكا كانوا يرغبون فى أن تتم معاملتهم على أنهم دولة فى مستقلة . وللمرة الثانية رفض السفير بحزم لكننا كنا قد تأكدنا أن وقتا طويلا سيمر قبل أن تهدأ جراح البوسنة .

سيلادجيتش ومصر

أعتقد أن حارث سيلادجيتش هو أبرز شخصية سياسية على الساحة البوسنية الآن - بعد استقالة الرئيس على عزت بيجوفيتش - وكنت قد رأيته للمرة الأولى فى زاجرب قبل انتقالى منها إلى سراييفو فى صيف عام ١٩٩٦ . وقبل إجراء أول انتخابات عامة فى البوسنة .. وفى ذلك اليوم أعلن سيلادجيتش رسميا أنشاققه عن حزب العمل الديمقراطى واستقالته من منصب وزير الخارجية وإنشاء حزبه الجديد ZA BOSNIA I HERCGOVINA (من أجل البوسنة والهرسك) . كان سيلادجيتش وزيرا للخارجية عندما وقع الخلاف بينه وبين قيادات حزب العمل الديمقراطى - الذى يتزعمه على عزت بيجوفيتش - فى أوئل عام ١٩٩٦ بشأن السياسات التى يتعين على البوسنة اتباعها مع بداية السلام ، وفى المستقبل فقدم استقالته من منصبه الذى شغله من بعده محمد شاكر بيجوفيتش - سفير البوسنة فيما بعد فى الأمم المتحدة - وقرر دخول الانتخابات الأولى مستقلا عن حزب العمل ، وقد تسبب ذلك فى ألم عظيم لعلى عزت بيجوفيتش وعلى الرغم من محاولات بعض أعضاء حزب العمل الديمقراطى تصوير ما قام به سيلادجيتش بأنه إنشقاق لضرب إسفين بين الرجلين إلا أن حكمة السنين والقدرة على رؤية المستقبل التى يتمتع بها الرئيس جعلته يحتفظ بعلاقاته الجيدة مع سيلادجيتش إذ كان يرى فيه مستقبل البوسنة ..

وعقب الانتخابات كان وراء اختياره كرئيس مناب لأول حكومة مركزية في البوسنة والهرسك .

منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها سلايدجيتش في مطار زاجرب قبل الانتخابات العامة رحت أتتبع شخصيته وكتبت عنه للمرة الأولى في يوليو من نفس العام ، وكان تقديري أنه سوف يصبح في غضون سنوات قليلة قائدا للبوسنة ومفكرها وأنه بلا جدال الرجل الذى سيأخذ البوسنة إلى أوروبا الحديثة .

كنت قد تعلمت منذ تجربة سفرى الأولى إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٥ أن كل دولة ينبغي أن تكتشف وقبل سنوات طويلة من هي الشخصيات القادمة في الطريق في الدول الأخرى ومن ثم فهم تعتنى بهذه الشخصيات وتبدأ في الاتصال بها مبكرا حتى إذا ما تبوأوا مناصب مرموقة في بلادهم يكون التعامل معهم أسهل وأسرع وتكون العلاقات أكثر قوة . وكان هذا اعتقادى بالنسبة لسلايدجيتش الذى تبنته الولايات المتحدة وقربته إليها وكانت ترى فيه الشخص المناسب لمستقبل البوسنة ، وعندما انتقلت إلى سراييفو فى أكتوبر من العام نفسه كان حارث سلايدجيتش قد أصبح رئيسا مشاركا للوزراء فى حكومة البوسنة والهرسك المركزية .

يتمتع سلايدجيتش بشخصية فريدة .. فالقريبون منه يعرفون عنه البساطة الشديدة ، فهو يقود سيارته الصغيرة الرسمية بنفسه ، ويفضل فى أمسيات الصيف أن يسير فى شارع الباشتشارشيا وسط المدينة القديمة بلا حراسة ودون إزعاج للآخرين أو العكس ، فالناس قد تعودوا منه ذلك وهم يلقون عليه التحية باسمه مجردا ويمضون فى الطريق ، أما بالنسبة لخصومه فهو شخصية متعجرفة متعالية والسبب فى ذلك ثقافته غير المحدودة إذ يعد واحدا من أوسع الشخصيات ثقافة فى البوسنة وأكثرها إدراكا بواقع بلاده ومستقبلها وبالتناقضات

التي أوقعها فيها الظروف .. وهو لم يكن أبدا أحد الشيوعيين القدامى ولا هو أحد أفراد الحرس القديم . وقد تلقى سيلادجيتش جانبا من تعليمه في مصر وواصل دراسته في ليبيا وقضى في البلدين نحو خمس سنوات فأتقن العربية وأصبح على علم واسع بالمنطقة العربية والإسلامية ثم حصل على الدكتوراة في التاريخ من أسبانيا ودرس الاقتصاد والفلسفة ويجيد عدة لغات من بينها الإنجليزية والإسبانية ، وهو ذو ميول غربية وعربية في الوقت ذاته وهو ما جعله أمر محير للكثيرين ، وخلال أزمة الفساد التي اجتاحت البلاد في عام ١٩٩٩ كان سيلادجيتش ، وباعتراف خصومه قبل مؤيديه ، على رأس قائمة الأطهار .

في فبراير ١٩٩٨ كان مجلس وزراء الحكومة المركزية للبوسنة والهرسك - شأنه شأن باقي مؤسسات الدولة المشتركة - يجتمع في إحدى حجرات المتحف الوطني المطل على شارع تيتوفا ، وعلى الرغم من أن نصف الحديقة الخلفية لهذا المبنى كان مزروعا بالألغام إلا أن جميع زوار البوسنة الرسميين عقدوا إجتماعاتهم فيه . وفي ذلك الوقت كانت قد تجمعت لدى الكثير من الأسئلة والاستفسارات عن الأوضاع في البوسنة في ظل الخلاف الشديد بين رئيسى الوزراء المناوبين . وعقب أحد اجتماعات مجلس الوزراء طلبت من سيلادجيتش أن ألتقى به وقال إنه يمكننا الالتقاء مساء اليوم نفسه أو أن نتحدث في سيارته لمدة نصف ساعة أثناء توجهه لاجتماعه التالي ، إلا أنني طلبت أن يكون اللقاء في المساء حتى يكون هناك متسعاً من الوقت فوافق على الفور .

لم أغادر مكتبى في ذلك المساء وعندما بلغت التاسعة مساء غادرت المكتب يائسا من إتمام اللقاء وتوجهت إلى مطعم مجاور لمنزلى كنت قد تعودت

تناول طعامى فيه .. وقبل أن أبدأ فى تناول العشاء جاعنى صاحب المطعم يبلغنى أن مكتب حارث يطلبنى .. وقال لى مستشاره الإعلامى الصديق ياسين رواشدة - وهو صحفى أردنى الأصل - إن فخامة الرئيس - كان يقصد سيلایدجتش - يطلب حضورك فوراً إلى مقر الرئاسة وبدون عشاء ، واعتذرت لصاحب المطعم وتوجهت من فورى إلى مقر الرئاسة . كان سيلایدجتش فى اجتماع ومن ثم جلست فى غرفة الانتظار الملحقة بمكتبه حيث كان هناك أيضا رجل ضخم الجثة يضع فوق رأسه طاقية من الفراء على الطراز الروسى كانت تخفى نصف وجهه لكنى شعرت أنه ليس غريبا عنى ، وما أن لمحنى الرجل حتى هب واقفا وهو يرحب بى بلهجة عرب شمال أفريقيا ولما لم أتعرف عليه فوراً خلع طاقيته فعرفته وتبادلنا الأحضان .. كان الرجل هو الفنان العربى التونسى القدير لطفى بوشناق . وجلسنا نتحدث كأصدقاء قدامى على الرغم أن تلك هى المرة الأولى التى ألتقى به فيها . وعندما أنهى سيلایدجتش اجتماعه خرج إلينا معتذرا ومبتسما وبادرنى قائلا : اليوم لا أسئلة فى السياسة .. ستكون أمسينا فنية فقط .. وبعدها توجهنا إلى مطعم على قمة تل فى شمال سراييفو .. وامتدت سهرتنا طويلا .

تناول حديثنا أوجها ثقافية مختلفة .. وتحدثنا عن الشعر العربى والسينما المصرية .. خاصة وأن سيلایدجتش كان يأمل فى أن تقوم البوسنة بإنتاج فيلم عالمى عن تاريخ الحرب فى البوسنة ، وكان يفكر فى أن يقوم بإخراجه المخرج العالمى مصطفى العقاد ، أما أنا فقد اقترحت أن يتولى إخراجه المخرج المصرى العالمى يوسف شاهين ، وأستحسن لطفى بوشناق الفكرة .. وفكر رئيس الوزراء مليا .. وقال : بالفعل إنه مخرج جيد . واكتشفت فى رئيس الوزراء جوانبه الثقافية والفنية والإنسانية التى زادتنى إعجابا به .. وغنى لطفى بوشناق أغنيات كثيرة بناء على طلب من سيلایدجتش .. وعلى الرغم من مرور

ساعات طويلة على هذه الجلسة الطويلة - التى تخللها عشاء على الطريقة البوسنوية - لم يتطرق أى منا إلى موضوعات سياسية ، لكن سيلایدجتش راح يتحدث عن مصر بإسهاب وعن حى الأزهر وأغنيات أم كلثوم وعبد الوهاب ، وفجأة قال لى إنه يريد أن يزور مصر بعد نحو شهر ولكن الظروف لا تسمح بذلك . وكانت تلك خاتمة جلستنا الجميلة . وعندما كنا فى طريق العودة مستشاره الاعلامى وأنا - قال لى المستشار : أعتقد أن الرئيس يرغب فى زيارة مصر لأمر ضرورى إلا أن عقبات البروتوكول تعوق تنفيذ ذلك بأسرع وقت ، وهو يعتقد أنك كصحفى يمكن أن تساعد فى ذلك خاصة أنه لا يستطيع أن يعرض الأمر بشكل رسمى على السفير المصرى .. ثم قال لى ياسين رواشدة بحزن شديد " إن هناك بعض الدوائر السياسية فى البوسنة لا تريده أن يذهب إلى مصر ، وأنه لذلك أصبح أكثر إصرارا على القيام بهذه الزيارة على أن توجه إليه الدعوة " . وكنت أعرف مدى الخلافات بين رئيسى الوزراء وخاصة تجاه العلاقات مع الدول العربية .

وفى الصباح كنت قد كتبت بما دار من حوار إلى مصطفى نجيب رئيس تحرير الوكالة ، ولم أعرف مصير ما كتبت إلا بعد أسبوعين عندما دعيت مرة أخرى إلى مكتب رئيس الوزراء ، وكانت الدعوة هذه المرة لاجراء حديث بمناسبة الزيارة التى سيقوم بها سيلایدجتش إلى مصر . وفى هذا الحديث عرفت منه أنه معجب بالتجربة المصرية فى عملية خصخصة مؤسسات القطاع العام وأن زيارته ستتركز على طلب معاونة مصر فى تطبيق التجربة المصرية الناجحة فى البوسنة .

وعقب هذه الزيارة قام عدد من خبراء الخصخصة المصريين بزيارة البوسنة ، وكان سيلایدجتش حريصا على أن يلتقى بكل منهم فى جلسات مطولة ليستمع إلى التجربة عن قرب ، وليعرف بشكل أكبر ما هى المعوقات

التي تعترض البوسنة في هذا المجال ، وأعتقد أنه عرف الكثير من هؤلاء الخبراء .

مصر والبوسنة

على الرغم من أن الكثيرين ربما لم يسمعوها عن البوسنة والهرسك قبل أن تشتعل الحرب هناك ، إلا أن العلاقات بين هذه الجمهورية السابقة من جمهوريات الاتحاد اليوغسلافي كانت على علاقة عميقة بمصر شأنها شأن باقي جمهوريات ذلك الاتحاد ، إلا أن البوسنة ظلت تحتفظ بمكانة خاصة في مصر والعكس كذلك ، فيندر أن تجد من بين كبار علمائها المسلمون من لم يتلق تعليمه في الأزهر الشريف ، بل أن الكثير من السياسيين تلقوا جانباً من تعليمهم في بعض جامعات مصر ، وعلى الجانب الآخر كانت جامعة سراييفو تضم الكثيرين من الطلاب العرب وبشكل خاصة كلية الطب ، ويحتفظ البوسنيون بذكريات طيبة عن مصر ، وهم لم ينسوا أنه خلال عهد الرئيس جمال عبد الناصر عادت إليهم بعض حقوقهم الدينية وأعيد فتح الكثير من المساجد عندما تدخل ليقنع الرئيس تيتو بمنح مسلمي البوسنة بعض الحريات التي كانوا يفقدونها منذ إعلان الاتحاد في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

وقد استمر النهج المصري في الاهتمام بالبوسنة بعد ذلك فتم التوسع في المنح الدراسية لطلابها ، وفي الوقت نفسه كانت منتجعات البوسنة الصحية هي المكان المفضل للمصريين للاستشفاء . وعندما اندلعت الحرب كانت مصر من أولى الدول التي سارعت بالمشاركة في قوة حفظ السلام الدولية التي قررها مجلس الأمن في منتصف عام ١٩٩٢ ، وكانت القوة المصرية مشكلة من كتيبة مشاة وتم إطلاق اسم طابا عليها منذ ذلك الحين .. وكان يرأسها في ذلك الوقت

ضابط برتبة لواء إلا أنه تم تغييره بعد ذلك بضابط برتبة عقيد إذ أن اللواء المصرى كان يفوق فى رتبته قائد قوات حفظ السلام كلها . وعلى أية حال فقد تمركزت الكتيبة المصرية فى سراييفو فى معسكر سابق للجيش اليوغسلافى يطلق عليه اسم البسترك ، وقد تحول المبنى الرئيسى فى ذلك المعسكر إلى وزارة الدفاع البوسنوية بعد الحرب بينما أعيد تمركز القوة المصرية مع غيرها من القوات الدولية فى معسكر الماريشال تيتو وسط العاصمة .

ليس هناك من مواطنى العاصمة البوسنيوية من لا يحمل لهذه الكتيبة قدراً من الحب والاحترام ، فعلى مدى السنوات السبع التى ظلت فيها الكتيبة هناك كانت سندا معنوياً ومادياً للمحاصرين أثناء الحرب وبعدها . ويعتقد أهل سراييفو أنه لولا وجود القوة المصرية فى سراييفو خلال الحصار لكانت قد سقطت منذ بداية الحرب .. ولم يعد سرا أن أفراد الكتيبة تعرضوا لكثير من الانتقادات من القيادة الفرنسية لقوات حفظ السلام إذ كانوا الوحيدين الذين يتمتعون بالشجاعة الكافية لرد الهجمات التى كانوا يتعرضون لها من قبل القوات الصربية التى تحتل الجبال المحيطة بالمدينة مما دفع الصرب فى النهاية لأن يمتنعوا عن إطلاق النار فى كل منطقة البسترك وهكذا وجد السكان المحاصرين الأمان فى تلك المنطقة .. وقد حكى لى كثير من مواطنى سراييفو عما كان يفعله جنود الكتيبة المصرية لمساعدتهم بالمواد الغذائية والمياه لدرجة أن الجنود كانوا يقتسمون طعامهم مع السكان . وهو ما كان يثير حفيظة بعض قيادات القوات الدولية إلا أنه كان يجبرهم أيضاً على احترام هذه القوة . ويكفى القول أنه بعد إنتهاء الحرب ظلت الكتيبة المصرية تقدم مساعداتها للسكان فى كل المجالات ، فعلى مدى عامين فقط تم علاج نحو خمسين ألفاً من سكان سراييفو - من المسلمين والكروات والصرب - بما فى ذلك حصولهم على الأدوية .

فى أواخر عام ١٩٩٧ كانت يبدو للعالم أن الأمور قد استقرت فى البوسنة ، ولم يكن ذلك صحيحا ، وفى إحدى أمسيات شهر ديسمبر الباردة صدرت الأوامر للكتيبة المصرية بالعودة إلى البلاد وإنهاء مهمتها فى البوسنة . ولم أكن أدرك وقع مثل هذا النبأ فى البوسنة وبشكل خاص فى سراييفو . وفى الصباح التالى كان جزء من الكتيبة قد تحرك بالفعل تجاه ميناء بلوتشا الكرواتي حيث تنتظر سفينة مصرية لنقل الوحدات إلى الأسكندرية ، وبدا أن الأمور تسير بسرعة ولكن بهدوء ، وعلى الرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكرا إلا أن خبر مغادرة الكتيبة المصرية سرى فى العاصمة كلها بسرعة البرق وعلى الفور كان هناك عشرات من أهالى المدينة الذين كانوا ينتقون العلاج والمساعدات الغذائية اليومية من الكتيبة يتزاحمون أمام البوابة الرئيسية ، وعندما تأكدوا من الخبر عم حزن بالغ بينهم . وكنت بين هؤلاء الناس لأسألهم عن مشاعرهم تجاه ما قدمته الكتيبة لهم .. وكانت مفاجأة لى من بعضهم أنهم كانوا يفكرون فى إعاقه خروج الكتيبة من المعسكر وكان كل ما يفكرون فيه أن كارثة ستحدث ، والغريب أننى سمعت شائعة بينهم تقول إن القوات المصرية ستسحب لتأكدها من أن الحرب سوف تتدلج من جديد وأن القرار تم لخلاف بين هذه القوات المسلمة وبين القوات الأوربية ، ثم توجهت إلى الجنرال لويجى كانتونى قائد اللواء الايطالى الذى كانت الكتيبة المصرية تعمل فى إطار مهامها فى تأمين العاصمة ، فأكد لى أن القرار كان مفاجأة وأنه بالفعل يخشى من أن يؤدى غياب الكتيبة المصرية إلى إحداث نوع من الخلل فى التوازن بين القوات ، إذ أنها القوات الوحيدة التى تنتمى إلى العالم الإسلامى التى تعمل فى سراييفو بينما القوة الأردنية قوة رمزية تشارك فى حماية المطار فقط أما القوات التركية فكانت تعمل بشكل أساسى فى مدينة زينيتسا على الرغم من أن قيادتها فى

سراييفو ، ولذلك فهو يخشى من أن يفسر المسلمون القرار على أنه مضاد لهم وبالتالي يتغير سلوكهم نحو القوات الدولية ليصبح سلوكا عدائيا . بعد لقائي مع الجنرال تأكدت من ضرورة بقاء القوة المصرية التي كان لها الفضل في رفع اسم مصر عاليا بين القوات الأوروبية بكفاءتها وقدرتها القتالية والتدريبية باعتبارها أول وحدة عسكرية مصرية تشارك في مهمة في القارة الأوروبية .

عقب هذا اللقاء طلبت من وزير داخلية الاتحاد المسلم الكرواتي عبده حبيب أن يفسر لي مخاوف المواطنين في المدينة ففاجأني بقوله أن لديه معلومات بأن عددا من المنظمات والجمعيات والأحزاب في البوسنة قررت إجراء مظاهرة أمام مبنى الرئاسة البوسنوية للمطالبة ببقاء الكتيبة المصرية . وقال " لو أنهم لم ينظموا هذه المظاهرة لطالبت أنا بتنظيمها والسبب في ذلك أننا كوزارة داخلية نعتمد بشكل كبير على الكتيبة المصرية لتأمين سراييفو استراتيجيا وخاصة على المحاور المشتركة مع الكيان الصربي أما مهمتنا الآن فلا تتعدى تنظيم المرور والأمن الداخلي " .. كان حبيب يرى أن الكتيبة المصرية لابد أن تبقى . وعندما سألته عن رأى الرئيس على عزت بيجوفيتش قال لي اسأله بنفسك . ومن مكتبه حاولت الاتصال بالرئيس ولم أفلح فقد كان اليوم ما يزال في بدايته والرئيس مشغول باجتماعاته ولكن مدير مكتبه قال لي اتصل بعد ساعة . وبعد ساعة قال لي أن الرئيس يبلغك بما يلي " إن قرار سحب الكتيبة المصرية وقع علينا وقع الصدمة ، ونحن ندرك أن مصر قد تكلفت كثيرا بسبب بقاء الكتيبة لكل هذه السنوات ونحن نشكر مصر لكل ما قدمته لنا القوات المصرية في الحرب والسلام وعلى الرغم من احتياجنا لها فننا نقدر ونحترم قرار الرئيس مبارك ونتفهم دوافعه " . وعندما سألته عن رد فعل الرئيس إزاء ما أثير عن تنظيم مظاهرات في اليوم التالي للمطالبة ببقاء الكتيبة قال لي الرجل أن الرئيس سوف يشرح للناس دوافع مصر .

وعدت إلى الشارع أسأل الناس عن رد فعلهم إزاء مغادرة الكتيبة وما قيل لم يكن مفاجأة . كان الناس وكأنهم يشعرون بأن ظهرهم أصبح للحائط .. ولا أريد هنا أن أبالغ في ما قدمته الكتيبة .. الا أنني شاهدت بنفسى فى الجبال المحيطة بسراييفو وفى مناطق لا يمكن لأى سيارة يمكن أن تصلها كيف كان مهندسو وجنود الكتيبة المصرية يحفرون الشوارع فى درجات حرارة وصلت إلى ١٥ درجة تحت الصفر لكى يقوموا بتوصيل خطوط الغاز للمناطق المحرومة من التدفئة وكم كان الخطر الذى يتعرضون له كبيرا بسبب انحدار الطرق ومخاطر وجود ألغام هنا وهناك .

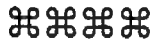
وأخيرا كتبت تقريراً شاملاً عن كل ما حدث ذلك الصباح إلى رئيس التحرير والذى رفعه على الفور إلى الجهات المسؤولة دون أن ينشر معظمه . وبعدها كان على أن أتوجه إلى السفارة ، وسألنى أبو طالب السفير عما فعلت وعدت أروى له ما حدث بالتفصيل .. كان السفير يدرك باعتباره عسكرياً سابقاً أهمية استمرار وجود الكتيبة فى البوسنة وكان من ناحيته يجرى اتصالات مكثفة مع المسؤولين فى مصر للعدول عن القرار .

فى المساء كنت مع أفراد الكتيبة التى كانت تحزم أمتعتها ومعداتنا استعداداً لمغادرة الجزء الأكبر منها فى الصباح ، كان قد تم تحميل المعدات الثقيلة على سيارات شحن ضخمة تابعة للواء الإيطالى ، وكأنما كانت الطبيعة نفسها ترفض مغادرة الكتيبة إذ تعرضت سراييفو فى تلك الليلة لعاصفة ثلجية لم تشهد العاصمة مثلاً منذ سنوات طويلة ، وكان يبدو أن تلك العاصفة ربما ستعيق الرحلة الطويلة إلى ميناء بلوتشا ، وفى الساعة من مساء نفس اليوم وبمصادفة بحتة عندما كنت أجلس مع العميد حمدى الدسوقي قائد الكتيبة فى مكتبه تلقى الأمر ببقاء الكتيبة . وفى اليوم التالى كان خبر قرار الرئيس مبارك

ببقاء الكتيبة المصرية يتصدر جميع الصحف المصرية .. وفي البوسنة كذلك .
وبقيت الكتيبة عاماً آخر بعد أن تم تخفيض جانب من قوتها .

ومرة أخرى يتعين على أن أقول إن ما ساهمت به مصر في البوسنة ربما لا يصل إلى ما ساهمت به دول أخرى غنية ، لكن مساهماتها كانت دائماً في المكان المناسب ولم تكن المساهمات فقط من جانب الدولة . والواقع أن البوسنة سوف تذكر ولسنوات طويلة قادمة ما قدمه الشعب المصرى من مساعدات إنسانية إلى إخوانهم ، وسوف يكون صرح الصداقة المصرية البوسنوية الدائم هو ذلك البناء الرائع الذى قررت السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس بإقامته فى مدينة موستار وهو قرية الأطفال من أبناء الشهداء الذى دفعت تكاليف انشاءاته جمعية الهلال الأحمر المصرى - نحو عشرة ملايين جنيه مصرى - من تبرعات الشعب المصرى .

وهناك الكثير من تلك اللفتات الإنسانية الكثيرة التى كان يتعين على الإشارة لها لولا أن القضية التى أتعرض لها فى الأساس هى مستقبل البوسنة .



خاتمة

فى غضون الأشهر الأولى من عام ٢٠٠٠ شهدت منطقة البلقان الكثير من التطورات الهامة التى يمكن أن يقال أنها سوف تؤثر وبشكل كبير على مجريات الأمور فى تلك المنطقة لسنوات طويلة قادمة . ولعل أهم وأخطر هذه التطورات على الإطلاق هو طرد سلوبودان ميلوشيفيتش من حكم يوغسلافيا بعد أن أدى دوره التاريخى فى إشعال أربع حروب فى المنطقة وتفتت الاتحاد اليوغسلافى القديم ومقتل مئات الآلاف من البشر . وعلى الرغم من أن الاتجاه السائد الآن فى يوغسلافيا هو العودة إلى الحظيرة الأوربية بإرساء نهج ديمقراطى جديد يساير النهج الأوروبى إلا أنه يتعين علينا القول بأن الثورة الشعبية فى صربيا والتى أنهت وجود ميلوشيفيتش لم تنه فكره السياسى ولا سيطرة الحزب الاشتراكى الصربى على الكثير من مقاليد الأمور . وعلى الرغم من أن الإطاحة به كانت أحد الأمور الضرورية للوصول إلى قدر من الاستقرار فى المنطقة إلا أن فكره وممارسات نظامه ومؤسساته ستظل تسيطر لفترة من الزمن ، ولن يكون غريبا أن إصراره على الاستمرار فى قيادة الحزب ليس إلا مجرد التفاف تكتيكى على رغبة الجماهير الصربية فى التخلص من حكمه ، وعلى رغبة العالم فى التخلص من شروره إلى الأبد ، حتى يحين الوقت ليقفز من جديد - سواء بشخصه أو عن طريق أحد أتباعه - إلى السلطة . وفى اعتقادى أنه على الرغم من إصرار ميلوشيفيتش وحزبه على السيطرة على مقاليد الأمور فى صربيا فإن العالم وأوروبا على وجه التحديد ليسوا على أى قدر من السذاجة بحيث يسمحوا بعودة نظام ميلوشيفيتش - آخر النظم الشمولية فى أوروبا - من جديد .

وما يهمنى هنا هو أن ما حدث ويحدث فى صربيا إنما له تأثير مباشر على الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية للدول المجاورة وبشكل خاص البوسنة والهرسك . ولقد شهدت المنطقة أيضا فى نفس الفترة استمرار العنف العرقى فى كوسوفو ، وعلى الرغم من أن الأمور تبدو قد أستقرت إلى حد ما ، فمن المؤكد أن نار العرقية لم تخبو بعد و ربما لن تخبو إلا إذا تخطى ألبان كوسوفو عن مطلب الاستقلال وإلا إذا تخطى الصرب عن بقاء الإقليم كما كانت عليه الأمور من قبل ، وفى اعتقادى أن أيا من المطلبين لا يمكن تحقيقه فى الوقت الحالى ونيران الحرب لم تزل هناك . ولن يضمن بقاء الوضع كما هو إلا استمرار وجود القوات الدولية فى الإقليم وهو ما ينطبق على البوسنة نفسها .. فعلى الرغم من مرور نحو خمس سنوات على اتفاق السلام فليس هناك من يضمن استمراره إذا ما قرر الناتو أنه قد حان الوقت لمغادرة البوسنة ، وهو فى اعتقادى أمر لن يتم ، إذ أن هناك أيضا ، كما هو الأمر فى كوسوفو ، كثير من النيران تحت الرماد ، فضلا عن أن دولة كبرى مثل الولايات المتحدة لا يمكنها أن تترك تلك المنطقة الاستراتيجية فى الوقت الحالى كما سبق أن أوضحت ، ومن ثم ففى اعتقادى أن بقاء تلك القوات لفترة لا تقل عن خمس سنوات قادمة هو ضرورة يملها الوضع السياسى غير المستقر فى المنطقة .

فى تلك الفترة أيضا شهدت المنطقة غياب الزعامات التقليدية فى المنطقة ، فى البداية تودجمان ثم ميلوشيفيتش ثم على عزت بيجوفيتش . ولعل الأخير هو الذى ترك الساحة بإرادته ، ورغم مطالب جماهيرية ببقائه ، إلا أنه أثر وقد أدى واجبه أن يعطى درسا آخر ربما هو آخر الدروس بأن الفارس الحقيقى هو الذى يدرك متى ينبغى عليه أن يسلم الراية إلى الجيل الجديد . و إذا كان هناك من لا يزال يتمسك - من الجيل القديم - بأهداب السلطة والمجد فإنه سيجد

نفسه مرغما على ترك الساحة ، سواء من قبل الشعب أو من قبل المتغيرات السريعة فى العالم والتي لا يمكن أن تدركها الأفكار القديمة . وفى اعتقادى أن هناك فى البوسنة من يمكنه أن يقود البوسنة إلى الأمام من أبنائها .. وإذا كان الشعب بمسلميه وكرواته وصربيه لا يزال يتمسك بنزعات قومية لا يخفى على المرء أسبابها ، فانه ولهذا السبب تحديدا يحتاج إلى من يقوده من هذا الكهف المظلم إلى نور الحرية الحقيقية بالعيش فى سلام اجتماعى تختفى فيه تلك النعرات ، وربما يتطلب الأمر وقتا وربما لن يتم تحقيق ذلك فى الجيل الحالى ، إلا أنه ليس أمام البوسنة إلا طريق واحد هو طريق الوحدة وقد خطت فيه خطوات كبيرة ولذلك فعلينا أن نتمسك بكل ما تحقق .

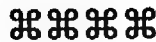
إن قصة البوسنة لم تنته بعد ، وإذا كنا ننظر إلى الأمام بحذر فيجب علينا أن نتحسس مواقع خطواتنا ، فلا تزال هناك كثير من الألغام ، وهناك الكثير من الشر الكامن فى نفوس البعض الذين يحاولون سرقة أحلام الأجيال القادمة فى العيش بسلام . وهؤلاء الذين يرفضون إلا أن يكونوا وحدهم هناك سيكونوا أكثر الناس تعاسة ، فهم لن يتمكنوا من إعادة عقارب الساعة إلى الوراء لأنهم فى محاولتهم الفاشلة تلك سوف يفوتهم الركب المسرع إلى آفاق المستقبل .

وعلى أن أشير فى نهاية هذا الكتاب إلى أن علاقات العالم العربى مع البوسنة لا تزال محدودة ، ويخطئ الكثيرون إذا اعتقدوا أن مهمة مساعدة البوسنة قد أنتهت . فالبوسنة لا تزال فى احتياج لنا . وبعد سنوات ليست بالقليلة سوف نكون باحتياج لها . وعلى الرغم من ذلك فنحن نترك الساحة ونبعد وكأنه لم يعد لنا شأن بها ، على الرغم من أن القدر قد وفر لنا - فى العالم العربى فرصة ربما لن تتكرر - فى أن يكون لنا وجود وتأثير كبيران ، اقتصاديا وثقافيا وسياسيا . لقد ساهمنا فى الكثير هناك ، ولا ينبغى علينا أن نهمل هذا الاستثمار الكبير للآخرين ليجنوا ثماره .

لقد خضنا الكثير من التجارب نفسها . ونحن فى مصر قد عانينا كثيرا لفترة من الفترات عندما توغلت إسرائيل فى أفريقيا وفى آسيا بعد أن كنا قد اطمأننا أننا كسبناها إلى صفنا . ونحن نترك المجال مرة أخرى لإسرائيل وغيرها لأن تدخل البوسنة منفردة بعد أن زرنا الكثير من الأشجار . وإذا لم نستطع أن نستثمر تلك الحالة الفريدة فسوف نفقد إلى الأبد أرضا واسعة فى ميدان المعركة الاقتصادية ، فالبوسنة تحتل مكانا استراتيجيا من أوروبا ، والبوسنة لديها مستقبل اقتصادى مبشر ، والبوسنة تحمل لنا - فى العالم العربى - الكثير من الحب والاحترام والامتنان ، ولكن أى دولة فى العالم سوف تتعاون مع من يستمر فى التعامل معها والوجود فيها وباستثمار كل تلك العوامل التى يمكن أن تضيق مع الوقت .

وليس سرا أن مجموع التجارة العربية - ٢٢ دولة - لا يمثل نحو ثلاثة فى المائة من التجارة الخارجية مع البوسنة . فهل عدت مصر وهل عدت الدول العربية ما يمكنها من أن ترفع هذا الرقم إلى أضعافه ؟ . هل عدت الدول العربية رؤوس الأموال الضخمة التى تمكنها من الاستثمار هناك ، مع العلم بأن معدل الخطر قد تناقص ولا يزال يتناقص باضطراد ؟ .

نحن أمام فرصة تاريخية للوجود فى البوسنة ، وأستطيع أن أؤكد أن البوسنة يمكن أن تصبح الأندلس الجديدة ، تمتاز فيها الثقافات وتتعدد ثم تعود لتنتشر من جديد فى كل ربوع أوروبا .

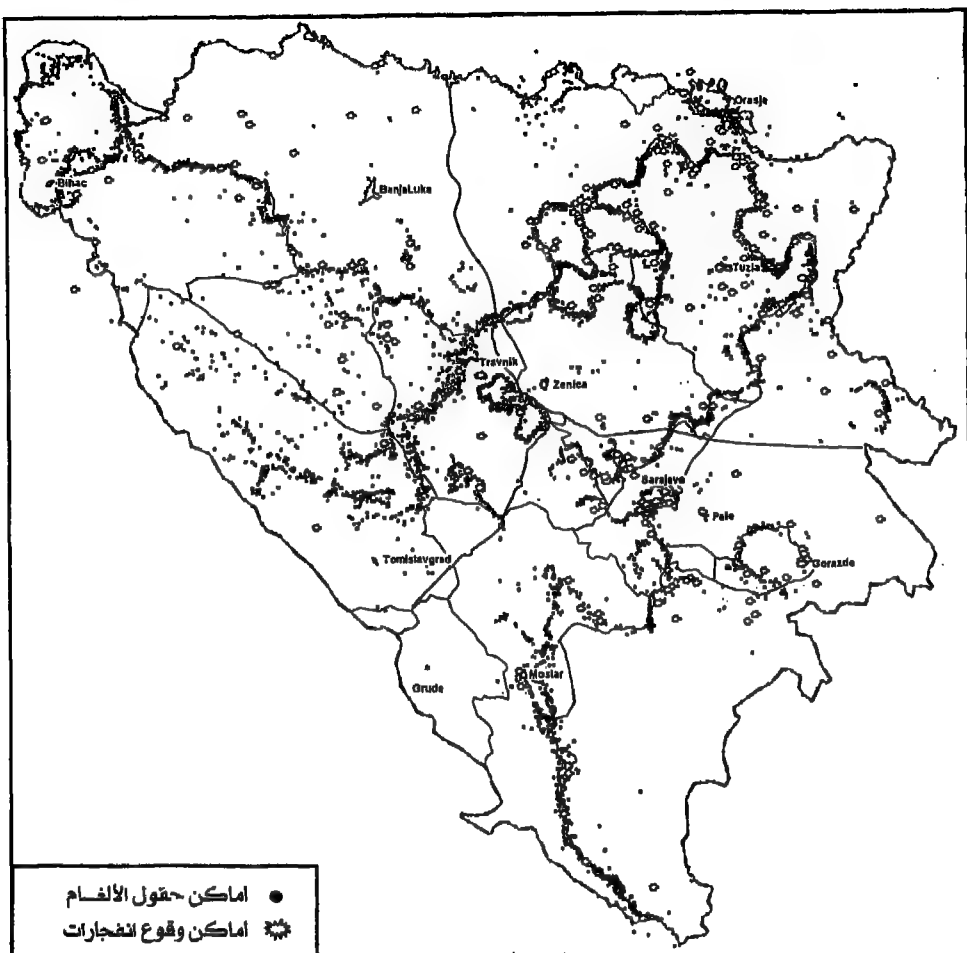


ملحق الصور



خريطة توضح موقع البوسنة والهرسك بين دول أوروبا














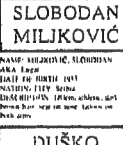






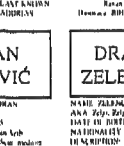




خريطة توضح اماكن حقول الألغام في البوسنة

PERSONS INDICTED FOR WAR CRIMES

WARRANTS FOR THEIR ARREST ARE HELD BY THEIR RESPECTIVE CAPITALS

IF YOU ENCOUNTER ANY OF THESE INDICTED WAR CRIMINALS IN THE COURSE OF YOUR REGULAR DUTIES AND THE SITUATION PERMITS, DETAIN THEM AND CONTACT YOUR CHAIN OF COMMAND!

 <p>NAME JANJIC, DANAR AKA: Janjic DATE OF BIRTH: 13 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, GURAN AKA: Gurin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, KURAN AKA: Kurin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, LURAN AKA: Lurin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, MURAN AKA: Murin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, NURAN AKA: Nurin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>
 <p>NAME JANJIC, OVRAN AKA: Ovin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, PVRAN AKA: Pvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, QVRAN AKA: Qvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, RVRAN AKA: Rvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, SVRAN AKA: Svin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, TVRAN AKA: Tvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>
 <p>NAME JANJIC, UVRAN AKA: Uvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, VVRAN AKA: Vvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, WVRAN AKA: Wvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, XVRAN AKA: Xvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, YVRAN AKA: Yvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, ZVRAN AKA: Zvin DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>
 <p>NAME JANJIC, AA AKA: AA DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, BB AKA: BB DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, CC AKA: CC DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, DD AKA: DD DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, EE AKA: EE DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>	 <p>NAME JANJIC, FF AKA: FF DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945 NATIONALITY: Bosnian Serb DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back" LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH</p>

WANTED

ZORAN VUKOVIĆ

NAME: VUKOVIĆ, ZORAN
AKA: Zoran
DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945
NATIONALITY: Bosnian Serb
DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back"
LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH

DRAGAN ZELENKOVIĆ

NAME: ZELENKOVIĆ, DRAGAN
AKA: Dragan
DATE OF BIRTH: 14 Jan 1945
NATIONALITY: Bosnian Serb
DESCRIPTION: 170cm, 75kg, dark hair, many brown spots and light on forehead - "elephant on the back"
LAST KNOWN ADDRESS: Ulica N. Pula, BH

THE FOLLOWING PERSONS INDICTED FOR WAR CRIMES HAVE BEEN ARRESTED

NAME	NATIONALITY	ARRESTED	NAME	NATIONALITY	ARRESTED
ALEKSOVIĆ Zlatko	BOSNIAN CROAT	28 APR 97	KUPREŠKIC Vlatko	BOSNIAN CROAT	18 DEC 97
BLAŠKIC Thodor	BOSNIAN CROAT	01 JUN 96	KVOČKA Miroslav	BOSNIAN CROAT	08 APR 98
CERKEZ Mario	BOSNIAN CROAT	02 MAY 96	LANDŽO Esad	BOSNIAN CROAT	02 MAY 96
DELIC Hazim	BOSNIAN CROAT	27 JUN 97	MUCIĆ Zdravko	BOSNIAN CROAT	18 MAR 96
DOKMANOVIĆ Slavko	BOSNIAN CROAT	07 MAR 96	PAPIĆ Dragan	BOSNIAN CROAT	10 JUN 96
ERDEMEVIĆ Dražen	BOSNIAN CROAT	18 DEC 97	RADIĆ Mladen	BOSNIAN CROAT	08 APR 98
FURUNDŽIJA Anio	BOSNIAN CROAT	22 JAN 98	SANTIĆ Vladimir	BOSNIAN CROAT	10 JUN 97
JELIŠIĆ Goran	BOSNIAN CROAT	06 OCT 97	SINČIĆ Milan	BOSNIAN CROAT	14 FEB 98
JOSIPOVIĆ Drago	BOSNIAN CROAT	07 OCT 97	TADIĆ Dušan	BOSNIAN CROAT	14 FEB 98
KOVAČEVIĆ Milan	BOSNIAN CROAT	13 MAY 98	TADIĆ Miroslav	BOSNIAN CROAT	14 FEB 98
KRNOJELAC Milorad	BOSNIAN CROAT	03 APR 97	TODOROVIĆ Stevan	BOSNIAN CROAT	27 SEP 98
KUNARAC Dragoljub	BOSNIAN CROAT	10 JUN 96	ZARIĆ Sina	BOSNIAN CROAT	14 FEB 98
KUPREŠKIC Mirjan	BOSNIAN CROAT		ZARIĆ Zoran	BOSNIAN CROAT	16 APR 98

USKLADIŠTENO NAORUŽANJE IZ EGIPTA

Artiljerija za vojnu ravnotežu

Naoružanje koje je za VFBiH darovao Egipat smješteno je u Hadžiće i Zenicu • Početak buduće suradnje

Egipatski ambasador Ahmed Abu Talib u subotu je u krugu remonitnog zavoda u Hadžićima zapovjedniku Zdrženog zapovjedništva Vojske Federacije BiH, armijskom generalu Rasimu Deliću, svečano predao naoružanje koje je Egipat poklonio za VFBiH. Dvanaest haubica kalibra 120 mm D-30 i 12 dalekometnih topova od 130 mm M-59 konačno je smješteno u Hadžiće, a 18 protivavionskih topova kalibra ZU-23 uskladišteno je u Zenici.

Ambasador Talib je izjavio kako bi "ovo naoružanje za federalnu vojsku trebalo pomoći stvaranju ravnoteže sa srpskom stranom", te izrazio nadu da će sve strane u BiH poštivati sve aspekte vojnog sporazuma kako bi se stabilizirao mir i obnovila zemlja. Posebno je naglasio kako Egipat bosanskom narodu pomaže pružajući političku potporu u međunarodnim odnosima, dajući tehničku pomoć svim ministrarstvima Vlade FBiH te prisustvom svog egipatskog bataljona još od 1992. godione pomaže čuvanju mira u BiH. Govoreći o poklonjenom naoružanju, egipatski je ambasador napomenuo kako su topovi od 130 mm upotrijebljeni 1973. u pripremnoj paljbi pri napadu na "prijavu liniju" protiv Izraela, na Sueckom kanalu. Dodao je da bi Egipat mogao Federaciji pomoći i u obuci vojnika "čim se završi dogovaranje sa stranama".



Zvanice pored darovanog topa

(Šumita: D. Babić)

"Ovo je znatna podrška u artiljerijskom naoružanju kojom će se poboljšati i vatrene efikasnosti naša vojske", kazao je tom prilikom general Delić. "Haubica D-30 je savremeno oruđe koje je (i prije) posjedovala naša armija i koje je dalo značajan doprinos u odbrani prostora BiH, a dobili smo i dalekometne topove 130 mm koji treba da poboljšaju efikasnost artiljerije na većim daljinama. Protivavionska sredstva su dovezena u Zenicu, jer je, po Daytonu, predviđeno da se sva protivavionska sredstva grupiraju na manji broj lo-

kacija radi zaštite civilnog vazdušnog saobraćaja. Ova je poželjka došla bez municije, ali sa rezervnim dijelovima. Naša namjenska industrija ima mogućnost za proizvodnju ovakve vrste municije. Ova sredstva zamjenjuju ko zna koliko sredstava manjeg kalibra koja moramo reducirati u našoj armiji".

"Mogu reći da je ovo otvaranje novog procesa u saradnji dviju prijateljskih zemalja", konstatirao je Delić, dodajući kako Egipat ima stoljetnu vojnu tradiciju te "kompatibilnu namjensku industriju s kojom vojna industri-

ja BiH može uspostaviti odgovarajuću saradnju".

Inače, u Hadžiće je uz američko naoružanje nedavno iz Ujedinjenih Arapskih Emirata dovezeno 36 haubica od 105 mm, model 56, dok je municija odvezena ka Livnu. Iz UAE se još očekuju tenkovi i samohodna oruđa, čija se doprema očekuje od 10. siječnja. Delić je dodao kako je jednu isporuku naoružanja najavio Katar te da se naredne godine očekuje pomoć Malezije i još nekih zemalja Zalijske.

A. PRELUDA

الصحف البوسنية تبرز حفل تسليم الأسلحة المصرية إلى جيش الاتحاد المسلم الكرواتي
وفى الصورة الجنرال راسم ديليتش قائد الجيش وسفير مصر فى البوسنة



الاف من قطع المفعية والأسلحة التي تم جمعها وتدميرها في إطار اتفاق
خفض التسليح في البوسنة تحت رعاية منظمة الأمن والتعاون في أوروبا



صورة لإحدى المقابر الجماعية التي يتم الكشف عنها بين حين وآخر في البوسنة



علم كروات البوسنة - والذي يمثل ما كان يسمى بجمهورية الهرسك بوسنة - لا يزال مرفوعاً في المناطق التي يسيطر عليها الكروات في الاتحاد المسلم الكرواتي بدلاً من علم الاتحاد



لا تزال هناك آلاف من المنازل المدمرة التي تحتاج إلى إعادة
البناء حتى يمكن عودة اللاجئين والمشردين إليها



جنود الكتيبة المصرية (طلابا) قاموا بأعمال جلييلة في حراسة
العاصمة البوسنوية في الحرب والسلام والصورة أثناء حراسة
أحد الشوارع الهامة لدى زيارة بابا الفاتيكان لها عام ١٩٩٧



جنود الكتيبة المصرية ساهموا بالكثير من أجل رفع العاناة عن الشعب البوسنوى وهم هنا يقومون بمد انابيب الغاز إلى المناطق التى اضررت فى سرايففو كهدية من الشعب المصرى



السيدة سوزان مبارك حرم رئيس الجمهورية فى حفل افتتاح قرية الأطفال اليتامى فى مدينة موستار باعتبارها رئيس جمعية الهلال الأحمر المصرية التى قامت بإنشاء القرية من تبرعات أفراد الشعب المصرى



اهتمت مصر بإعادة بناء عدد من مساكن ضحايا الحرب والمستشفيات التي دمرت وفي الصورة
سفير مصر في البوسنة أحمد عبد الرحمن أبو طالب في حفل تسليم المرحلة الثانية من
المساكن التي أعيد بناؤها على نفقة الهلال الأحمر المصري من التبرعات الشعبية



المؤلف يشارك في حفل بدء العمل في إعادة بناء كوبرى موستار التاريخى
الذى دمر أثناء الحرب .. وفي الصورة الرئيس على عزت بيجوفيتش
ورؤساء وزراء البوسنة والاتحاد الفيدرالى وقائد القوات الدولية في البوسنة



المؤلف في لقاء مع الشيخ مصطفى تسيرتش رئيس العلماء ومفتي البوسنة



المؤلف في صورة تذكارية مع السيد حارث سيلايدجيتش
رئيس وزراء البوسنة والفنان التونسي البوسنوي الأصل لطفي بوشناق

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	إهداء
٧	مقدمة
١٥	الفصل الأول : الطريق إلى سراييفو
٣٥	الفصل الثاني : أشواك السلام
	١- بدءا من تحت الصفر ٢- ألغام ومفقودون
	٣- مجتمع يبحث عن هوية ٤- اللاجئين
	٥- أزمة الحكم ٦- مجرمو الحرب
٩٧	الفصل الثالث : الوجود العسكرى الدولى فى البوسنة
	- سلام أم وقف لإطلاق النار ؟ - التوازن العسكرى فى البوسنة والبلقان - إعادة بناء جيش البوسنة والهرسك - الوجود العسكرى الدولى - كيف يمكن للحرب أن تتدخل فى البوسنة ؟ - الولايات المتحدة وروسيا .
١٢٣	الفصل الرابع : الأمم المتحدة والبوسنة .. الانحياز
	١- ازرع شوكا لا تحصد غير الثوب . ٢- غالى فى الأمم المتحدة ، كيف ؟ ٣- الشك والمؤامرة ما هو دور فرنسا ؟ ٤- صنيعة فرنسية أم صاحب قرار ؟ لماذا رفض غالى الحرب ضد الصرب ؟
١٥٥	الفصل الخامس : صحفى فى مهمة رسمية
	أكثر من صحفى - سيلانديتش ومصر - مصر والبوسنة
١٨٣	خاتمة
١٨٧	ملحق الصور

المؤلف فى سطور

زكريا السيد عبيد



★ من مواليد القاهرة فى ٢٤ اغسطس ١٩٥١ .

★ تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة

عين شمس كما حصل على دورات دراسية فى

الصحافة بجامعة جاكسون وبوسطن بالولايات

المتحدة عام ١٩٩٢ .

★ التحق بوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية عام ١٩٨٢ حيث يعمل حتى الآن .

قام بتغطية حرب الخليج الثانية كما عمل مديرا لمكتب الوكالة فى كل من

زاجرب (كرواتيا) وسراييفو (البوسنة والهرسك) و بلجراد وبرشتينا

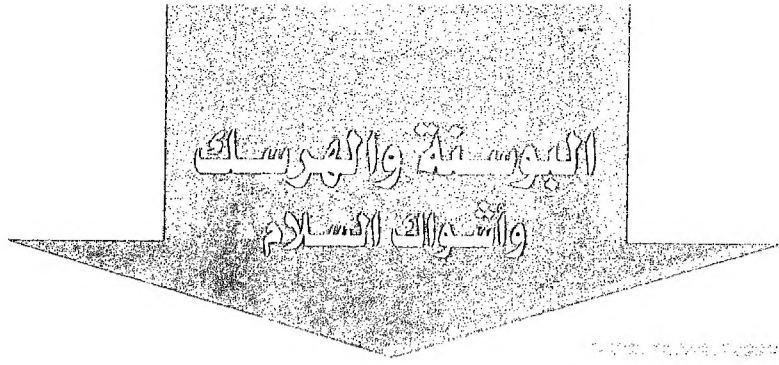
(يوغسلافيا) وذلك فى الفترة من يناير ١٩٩٦ إلى نهاية عام ١٩٩٩ .

★ وقام منذ ذلك الحين بنشر العديد من التحقيقات الصحفية والابحاث

والتراجم فى الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية . كما نشرت له

الهيئة المصرية العامة للكتاب مجموعة قصصية بعنوان " للمدينة وجه آخر "

عام ١٩٩٠ .



يطرح هذا الكتاب عددا من التساؤلات عن وضع البوسنة والهرسك بعد نحو خمس سنوات من إقرار السلام هناك ويحاول الإجابة عنها .. ولعل أهم تلك التساؤلات هي هل حقا انتهت الحرب في البوسنة بتوقيع اتفاق دايتون للسلام ؟ وهل يمكن للبوسنة أن تصبح دولة موحدة بدلاً من التقسيم الذي تشهده حالياً ؟ وما هي إمكانيات عودة البوسنة كدولة مستقلة آمنة ؟

إن الكتاب هو محاولة لاستقراء آفاق المستقبل في البوسنة في ظل الحرب التي عانت منها طوال أربع سنوات دمرت فيها بنيتها الأساسية . وهو كذلك محاولة لتحليل الأوضاع هناك بعد سنوات من السلام وعلاقات هذه الدولة الوليدة بجيرانها في البلقان وأوروبا وانتماءاتها إلى الشرق والغرب .. وبحثاً عن الهوية .. وهو تجديد للطريق الملىء بالأشواك الذي تسير فيه من أجل السلام النهائي بين طوائفها وفصائلها التي طال عداؤهم لقرون طويلة .

وهو أيضاً محاولة لاستقراء العلاقات العربية مع البوسنة فيما بعد الحرب .. ولعل هذا الكتاب هو الأول من نوعه الذي يتناول أحداث البوسنة فيما بعد الحرب يقدمه للقارئ العربي في محاولة جادة لإعادة وصل ما انقطع من خيوط بين بلادنا العربية والإسلامية وهذا البلد الوليد ، وحتى لا تسقط البوسنة في براثن النسيان وتتوه معالم قضيتها لنفاجأ بعد سنوات بكارثة جديدة هناك .

والكاتب هو صحفي بوكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية وعمل مديراً لمكتب الوكالة في زاجرب وسراييفو وبلجراد في الفترة من يناير ١٩٩٦ إلى نهاية عام ١٩٩٩ وكان شاهد عيان لكل ما شاهدته البوسنة والهرسك في فترة صنع السلام .

الناشر